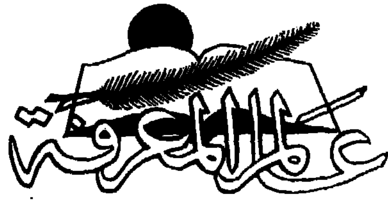


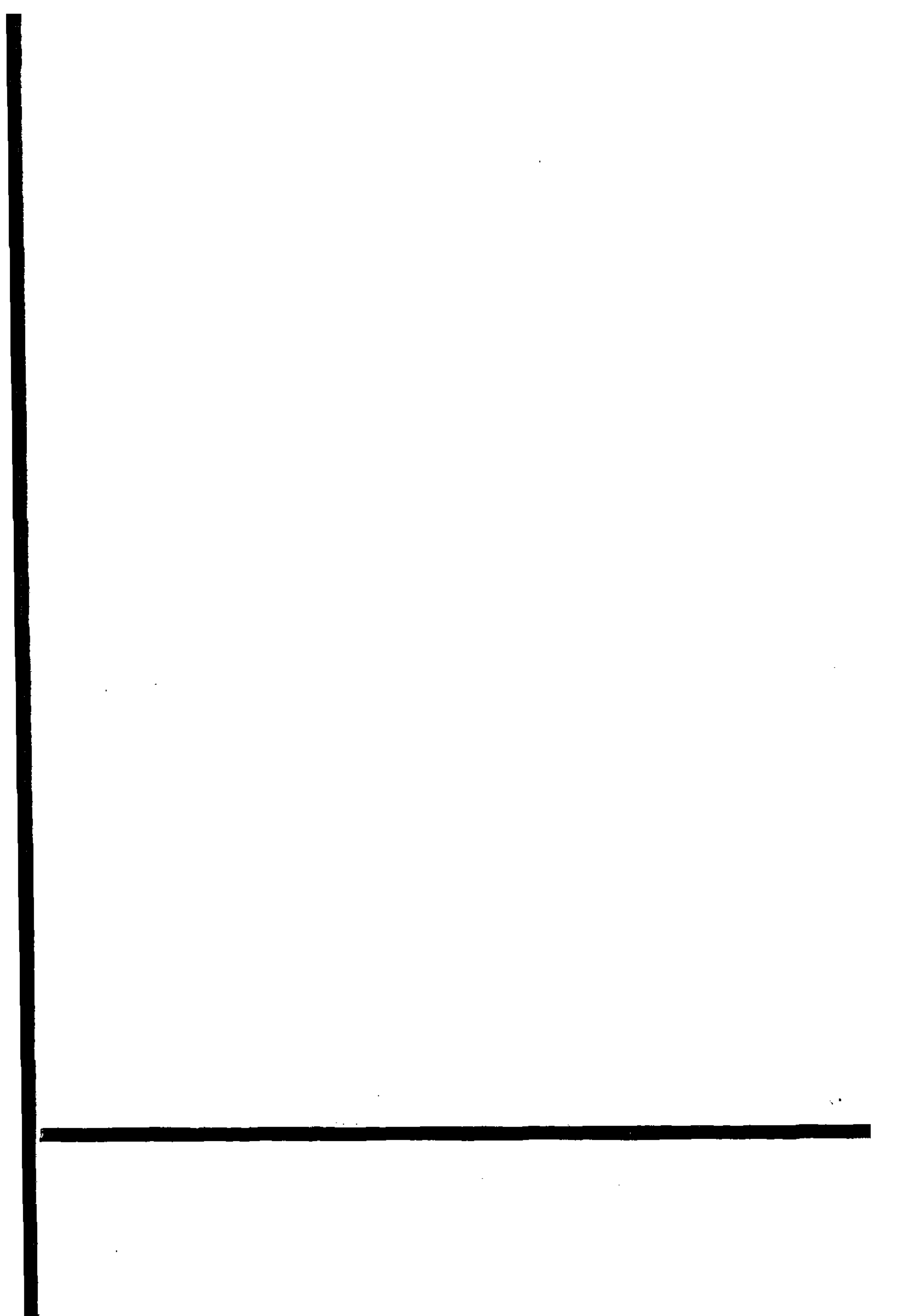
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

تاريخ الدراسات العربية في فرنسا

تأليف :
د. محمود المقداد

١٦٧ - جمادى الأولى ١٤١٣ هـ ، نوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٩٢م

المراسلات:
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
فاكس: ٤٨٧٣٦٩٤ ص.ب ٢٣٩٩٦ - الصفاة / الكويت 13100



المحتـــــــوى

رقم
الصفحة

المــدخــل

ظهر اهتمام شعوب العالم بالعرب منذ دخولهم القوي، في القرن السابع للميلاد، إلى مسرح التاريخ وصنع الأحداث وتغيير خريطة العالم القديم اللغوية والثقافية والدينية والعرقية. وكان ذلك كله بعد بزوغ الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، وتسجيلها الانتصارات من مدينة النبي (صلى الله عليه وسلم) المنورة داخل جزيرة العرب وعلى أطرافها، وتوحيدها العرب المشتتين لأول مرة في التاريخ، وانطلاقتها المعروفة بهم في آفاق المعمورة شمالا وشرقا وغربا، فيما عرف بـ (الفتوح الإسلامية)، لينتشر اللسان العربي، لسان الوحي الإلهي المبين، في أرجاء واسعة تمتد امتداد سيادة الإسلام نفسه من أواسط الهند وتخوم الصين وهضاب تركستان شرقاً إلى شواطىء المحيط الأطلسي وتخوم فرنسا غربا.

كانت ضخامة هذا «الحدث التاريخي»، أو لنقل: هذه «الظاهرة الفريدة» من الفتوح التي عرفها التاريخ موضع دهشة المؤرخين وإعجابهم، نظراً لرسوخ قواعد هذه الظاهرة وثبات آثارها في كل أرض حلت فيها سيادة الإسلام فيما يسميه الفقهاء (ديار الإسلام).

وكان من أبرز هذه الآثار ذلك المزج العرقي واسع النطاق بين العرب والشعوب التي افْتُتِحتْ بلدانها ودخلت في دين الله أفواجاً، وكان «الاستعراب» نتيجة طبيعية لتلك السيادة وذلك المزج والاستعراب المقصود هنا كان استعرابا لسانيا ودينيا وثقافيا شاملا، وكان اندماجا كليا في بوتقة العروبة بمعناها الحضاري والثقافي الإنساني، لا بمعناها الإتنولوجي العرقي أو التعصبي البغيض الذي قد يذهب إليه بعض دعاة التعصب وأصحاب الأفق الضيق.

غير أن شعوب العالم التي لم تدخل يوماً في ظل سيادة الإسلام، ولا في نطاق

خلافتـه، وكانت في الـوقت نفسه تجاور (ديـار الإسلام) وتقع على تخومهـا مباشرة، شهدت حركة «استعراب» ولكن بمفهوم آخـر غير المفهوم الذي رأيناه آنفا، ويمكننا أن نطلق عليـه تسمية دقيقـة لائقة بـه تفسره وتبين حقيقته هي «استعـراب الدراسـة والاطلاع» وهـو استعراب معرفي محض لم يكن يخالط عقيدة المستعـرب ولا دمه، ولا يحل محصوله الثقافي منـه محل ثقافته، ولا يزحزح اللسان العربي لسـانه عن موضعه، لأن المستعـرب الـدارس هنا لا يهتم بـالانـدمـاج في الـوسط العربي أو الـدخـول في الإسلام، وإنما يصب اهتمامـاته كافة، بشكـل أو بآخر، على الإلمام باللسـان العربي إلمامـاً متقناً، أو إلمامـاً سطحيـا وضحلاً، بحسب مـا يتـاح لـه من ظروف، تمهيـدا لـلاطلاع على تـاريخ العـرب ودينهم وآدابهم وفنـونهم وعلومهم في مختلف البيئـات والعصور، أو باختصار: للاطلاع على (حضارة العرب)، ومن ثم تعريف أبناء وطنه وجلدته ودينه بها بمختلف الطرق: كالدراسة والترجمة والتصوير والتحليل والتعليق والاقتبـاس والنقد والتأثـر والتقليـد، وما قـارب ذلك أو شـابهه من طرق التـوصيل والنقل المتبعة بين الشعوب والحضارات.

والغاية المنشودة من الاستعراب المعرفي هذا متعددة الوجوه والألوان: إذ قد تكون لخدمة غاية علميـة وأدبية وفنية نبيلة، وقد تكون لخدمة أغراض دفـاعية محضة لحماية الـذات من خطـر متوهم من جيرانهم العـرب، وقـد تكـون لخدمة مصـالح تجاريـة واقتصادية ذات نفع مشترك وعام بين الطرفين، وقـد تكون لخدمة أغراض سياسية أو عسكرية أو إعلامية أو تجسسية أو لخدمة حرب نفسية موجهة إلى العرب، وخصوصاً في عصر ثورة الاتصالات وطي المسافات المذهلة التي نعيش فيها اليوم.

وقـد نشأت عن ذلك حـركـة واسعـة ــ خصوصـاً في الغـرب الأوربي النـاهض والطامح إلى التـوسع والسيطرة، إثر سلسلـة الحروب الصليبية Croisades وعصر النهضـــة Renaissance، متعـدياً حـدود الدفـاع عن النفس ـ أطلق عليهـا اسم (الاستشراق) Orientalisme الذي كان يعني : دراسـة الشرق من جميع النواحي. وكان مفهـوم (الشرق)، في أذهان الأوربيين، ينصرف غـالباً إلى الشرق العـربي الذي كـان يشمل فيما يشمل الشرق الإسـلامي كـذلك لأنه ينضـوي تحت اسم الحضـارة

العربية الإسلامية ويحمل طوابعها وخصائها عموماً.

غير أن مصطلح الاستشراق هذا أصبح فضفاضاً نوعاً ما، بعد دخول أوربا في العصر الحديث، إثر الكشوف الجغرافية والثورة الصناعية، إذ استولى الأوربيون، مدفوعين بالنزعة الاستعمارية Colonialisme، على بلدان وراء البلدان العربية والإسلامية، في كل من أفريقيا وآسيا، وأدخلوا دراساتٍ للغات وحضارات كثيرة (شملت الهند، والصين، واليابان، وأندونيسيا، الخ). وتوسع مفهوم الاستشراق بالتالي ليشمل لغات هذه البلدان وحضاراتها، مما دعا إلى نشأة مصطلح أضيق وأدق ضمن حركة الاستشراق الكبرى، وهو مصطلح (الاستعراب) Arabisation، ويطلق على الدارس في نطاقه اسم (مستعرب) Arabisant، أي من يهتم بدراسة اللسان العربي وحضارة العرب. ويطلق على جملة الدراسات التي يقوم بها جمهور الباحثين من المستعربين اسم (الدراسات العربية).

ونلفت الانتباه هنا إلى حقيقة مسلَّم بها لدى الباحثين في ميادين التواصل الحضاري بين الشعوب عبر التاريخ، هي أنه مامن شعب في العالم أجمع حاز اهتمام الشعوب الأخرى الفاعلة في الحضارة الإنسانية وتاريخها بقدر ما حاز العرب من اهتمام الباحثين والدراسين عند تلك الشعوب، والدليل على ذلك أنه لا تكاد مكتبة من مكتبات العالم تخلو من عدد قليل أو كثير من المخطوطا العربية القديمة، ولا تكاد جامعة من جامعاته تخلو من قسم للغة العربية وآدابها يخرِّج المستعربين لخدمة البلاد التي توجد فيها هذه الجامعة أو تلك. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مكانة العرب الحضارية في الماضي، وأهميتهم الاستراتيجية والثقافية والاقتصادية في الحاضر.

ويزعم هذا البحث أنه يلقي الأضواء على الدراسات العربية وحركة الاستعراب والمستعربين عموما في فرنسا (بلاد الغال قديماً)، التي تعد إلى اليوم إحدى كبريات الدول الغربية الفاعلة في تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وفي تاريخ أوربا والعالم عموماً، ويرقى الاحتكاك والاتصال الأول بين العرب والفرنسيين (الغاليين)

إلى سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢م التي شهدت وقعة بواتييه Poitiers الشهيرة في قلب فرنسا قرب نهر اللوار، وهي الوقعة المعروفة عند المؤرخين العرب بوقعة (بلاط الشهداء)، التي قاد العرب المسلمين فيها الفاتح عبدالرحمن الغافقي، إكمالا لسلسلة فتوح المغرب والأندلس، وقاد جموع الغالبين فيها الأمير شارل مارتل Charles Martel، الذي ممكَّن من تأسيس مُلْكٍ قوى مكافأة له على إيقاف زحف المد العربي الإسلامي في غربي أوربا، وكان حفيده الإمبراطور شارلمان Charlemagne المشهور في التاريخ.

وكان لفرنسا دور فعال وأساسي في شن الحروب الصليبية المقدسة على البلاد العربية، وكان لها دور خطير في المسألة الشرقية الشهيرة، ودور كبير في الحركة الاستعمارية التي سيطرت على مجمل البلدان العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين. كما كانت باستمرار وراء دعم الصهيونية وقيام دولة إسرائيل في فلسطين ومدها بأسباب القوة والاستمرار، ويشهد على ذلك العدوان الثلاثي على مصر، وفي تأييدها سراً وعلانية إلى اليوم، على الرغم من تعدد الحكومات الفرنسية وتباين اتجاهاتها وسياساتها.

وقد تتبعت في هذا البحث جملة الصلات بين الغرب الأوربي عامة وفرنسا خاصة وبين الشرق العربي، ثم تطرقت إلى اهتمام الفرنسيين بالمخطوطات العربية منذ أقدم فترة في ميدان هذا الاهتمام، ثم عرجت على دراسة تعليم اللغة العربية في معاهد فرنسا ومؤسساتها التعليمية والعلمية المختلفة، ثم قمت بدراسة أنواع الدراسات العربية التي اشتغل بها المستعربون الفرنسيون، ورصدت مجمل ماقاموا به من أنشطة في غير حقول المخطوطات والتعليم والتأليف، ووقفت في نهاية المطاف على تراجم لعدد من أبرز المستعربين الفرنسيين في القرنين الماضي والحاضر، أردتهم أن يكونوا ممثلين لمجالات عمل المستعربين الفرنسيين واهتماماتهم المختلفة.

وإني لأرجو، أخيرا، أن أكون قد وفقت في تقديم لوحة متكاملة عن الدراسات العربية في فرنسا منذ أقدم فترة من تاريخها إلى اليوم، وأن أكون ـ في الوقت نفسه ـ قد

أعطيت حركة الاستعراب والمستعربين في فرنسا من الأحكام والآراء ما يكون فيه الحق والانصاف لهم أو عليهم من غير تجن ولا إنكار. وأحمد الله تعالى على عونه لي في إنجاز هذا العمل الذي آمل أن يسد ثغرة في مكتبتنا العربية بما يقدم للقارىء العربي الكريم من متعة وفائدة. والله ولي التوفيق.

دمشق في يوم الخميس ٦ رجب سنة ١٤١٠هـ
الموافق لـ ١ شباط سنة ١٩٩٠م
د. محمود المقداد

الفصل الأول

الصلات بين الشرق العربي والــغرب الأوربي

إن قولنا (الشرق) و(الغرب) لا يعني أن هناك حداً فاصلاً بدقة يمكن أن نفصل به بين مجالين جغرافيين واضحين، وإنما هما مصطلحان جغرافيان سياسيان نشآ في الأوساط الاستعمارية الغربية منذ أن تمكن الغربيون من النهضة الصناعية المادية، وبعد أن انتشر الميل إلى الاستعمار في قلوب أصحاب رؤوس الأموال الصناعية والتجارية من ذوي السلطة والمصلحة في التوسع على حساب الشعوب الأخرى الضعيفة والمتخلفة صناعياً في العالم، فانطلقوا لذلك باحثين عن مصادر المواد الأولية الرخيصة لمصانعهم من جهة، وعن أسواق لترويج بضائعهم المنتجة في بلادهم وتصريفها من جهة أخرى، بالإضافة إلى بحثهم عن مناطق النفوذ والسيطرة لضمان كل ذلك.

وكانت المنافسة شديدة بين دول أوربا، وعلى وجه الخصوص الغربية منها، وكان التسابق فيما بينها في المجال البحري قائما على أوسع نطاق، ومن أبرز هذه الدول: إسبانيا، والبرتغال، وهولندا، وبلجيكا، وفرنسا، وبريطانيا. وكان اتجاه هذه الدول جميعا منصبا بعد الكشوف الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر على العالم الجديد في غرب المحيط الأطلسي، ثم تحول النظر بعد ذلك سريعا إلى الشرق الفسيح والمعمور المكتظ بالسكان أو الذي لا يزال بكراً مجهول البقاع منه: إلى المناطق الشاسعة في أفريقيا وآسيا التي تتميز بالتخلف الاقتصادي والضعف العسكري، فأطلق هؤلاء الغزاة الغربيون من أصحاب الأساطيل البحرية القوية والجيوش الحربية الجرارة والسفن التجارية المشحونة بالبضائع، تسمية : الشرق Orient على هذه المناطق المنتشرة في القارتين.

وكانت البلاد العربية والإسلامية واقعة ضمن نطاق هذا التحديد الجغرافي المفهوم من مصطلح الشرق، ولم يدخل العالم الجديد بقارتيه العظيمتين في نطاق هذا المصطلح، ولكنه دخل شيئاً فشيئاً في نطاق مصطلح (الغرب) Occident الذي يشتمل على بلدان أوربا، وخاصة بلدان النصف الغربي منها.

ولا نجد، في الواقع، دقة منطقية في مصطلحي (الشرق) و(الغرب) هذين، لأن

أفريقيا مثلا تقع جغرافيا في جنوب ما يسمى بالغرب تقليديا أي : أوربا . ولم يكتف المستعمرون بكلمة الشرق على إطلاقها، نظراً لاتساعه الجغرافي، فقيدوها بصفات تعطيها تحديدات غير صارمة مثل قولهم: الشرق الأقصى، والشرق الأوسط، والشرق الأدنى.

أما عن الصلات بين هذا الشرق وذاك الغرب فإنها لم تنقطع منذ أن قامت الحضارات القديمة العريقة في كلا المجالين الجغرافيين، ومنذ أن عرف الإنسان في هذه الحضارات سبل النقل والاتصال البري والبحري وتأسيس دول شمولية متعددة الأجناس واللغات والعقائد عن طريق الغزو أو التجارة، فنجد الفينيقيين والمصريين واليونانيين مثلا يتبادلون المصالح التجارية والمؤثرات، ويؤسسون المستعمرات التي كانت لها في البداية صبغة تجارية، وربما اصطدموا في مواقع حربية لسبب أو لآخر، في صلات عدائية ناجمة من المطامع والمنافسات.

ونجد اليونانيين، بقيادة الإسكندر المقدوني، يمدون سلطان دولتهم على الشرق إلى أن وصل إلى آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق وفارس والهند، وكان ذلك كله عن طريق الحروب المتصلة، فأثر اليونانيون في هذا الشرق الذي سيطروا عليه وتأثروا به.

ونشأت بعد ذلك الإمبراطورية الرومانية التي انتشرت دولتها في معظم أنحاء أوربا، وخاصة غربيها، وفي شمال أفريقيا، وفي آسيا الصغرى والشام ومصر، مما جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية خالصة زمنا غير قليل من التاريخ، وارثة حضارة اليونان وممتلكاتها السابقة. وكانت هناك بلا ريب مصالح متبادلة في ميدان التجارة بين هذه الإمبراطورية وبين دول الشرق التي لم تسيطر عليه، كما كانت بينها وبين تلك الدول علاقات سياسية أو احتكاكات حربية ساخنة كما هي الحال مع الفرس والعرب وقرطاجة زمن الحروب البونية المشهورة[1]، لأن قرطاجة كانت منافسة

(١) الحروب البونية les guerres puniques هي تلك الحروب التي وقعت بين روما وقرطاجة بين سنتي ٢٦٤ و١٤٦ قبل الميلاد، وأدت إلى دمار الدولة البونية (أي القرطاجية) : كانت الحرب البونية الأولى بين سنتي ٢٦٤ و٢٤١ ق.م والثانية بين سنتي ٢١٨ و٢٠١ ق.م والثالثة بين سنتي ١٤٩ و١٤٦ ق.م.

لروما في شمال أفريقيا. وكانت الإمبراطورية الرومانية لذلك تؤثر في المناطق التي تسيطر عليها أو تجاورها وتتأثر بها على حد سواء. ومن تأثيرات الشرق العربي مثلا في الرومان أنهم حملوا منه بذور المسيحية ونشروها في كل أنحاء أوربا بعد أن اتخذ امبراطورهم قسطنطين [1] هذه العقيدة دينا رسميا للدولة، وذلك بعد قرابة ثلاثة قرون من ظهور السيد المسيح (عليه السلام) في فلسطين، حتى أن عاصمتهم روما أصبحت عاصمة روحية لمذهب الكاثوليكية، كما أصبحت العاصمة الثانية المنشقة عنها، وهي بيزنطة، التي عرفت بعد ذلك بالقسطنطينية نسبة إلى الإمبراطور قسطنطين، عاصمة روحية للمذهب الأرثوذكسي.

ومنذ بداية العقد الثاني من القرن السابع الميلادي، بدأت بالظهور على مسرح التاريخ في جزيرة العرب دولة عربية واحدة تدين بالإسلام عقيدة وتشريعا كانت تحمل في ذاتها طاقة حضارية إنسانية عظيمة بقيادة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم)، ولم يمض ربع قرن على ظهور الإسلام حتى كانت جيوش الفتح الإسلامي تطرق أبواب العراق والشام ومصر مهددة بالزوال الجزئي أو الكلي لأعظم الدول المعاصرة لها، ومنطلقة إلى ما وراءها من بلدان مبشرة بنشوء عصر جديد من النور والتفتح العقلي والحرية. وقد طرق الإسلام أبواب أوربا من الشرق بمحاولته فتح القسطنطينية، ومن الجنوب بفتحه لصقلية وجنوب إيطاليا، ومن الغرب بفتح الأندلس والتوغل في بلاد الغال (فرنسا اليوم) حتى مدينة بواتييه، بعد فتحه لشمال أفريقيا. ثم عاد الإسلام ليدق أبواب أوربا الشرقية ثم الوسطى زمن السلطان محمد الفاتح وخلفائه الأقوياء.

ونتحدث، هنا، عن هذه الأفعال من قبل العرب المسلمين وما كان لأوربا بعد

(١) قسطنطين: هو قسطنطين الكبير (٢٨٠ ـ ٣٣٧م)، كان إمبراطورا رومانيا ما بين سنتي ٣٠٦ و٣٣٧م، وقد تمكن من توحيد الإمبراطورية تحت حكمه سنة ٣٢٤م، بعد صراع دام خمسة عشر عاما، وكانت قد فقدت وحدتها سنة ٢٨٥. وشهدت فترة التوحيد هذه دخول هذا الإمبراطور في المسيحية، وإقامة الكنيسة ومنحها حقوقا شتى، وكان قسطنطين يرى في هذه الكنيسة أبرز دعائم الدولة الموحدة، وعد سلطته مستمدة من الله، وقد أسس المدينة التي عرفت باسم (القسطنطينية) نسبة إليه سنة ٣٣٠م، في موقع ما كان يعرف بـ (بيزنطة).

ذلك من ردود فعل عليها، لأن كل ذلك أسهم حقيقة في نسج خيوط العلاقات بين الشرق العربي والغرب الأوربي وأعطى هذا النسيج ألوانه المختلفة والمتفاوتة على مر الزمان.

١ ـ الفتوح العربية في أوربا:

تم في العقد الأخير من القرن الأول للهجرة فتح شبه جزيرة الأندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير، وانتقل همّ الفاتحين في أوائل القرن الثاني للهجرة إلى فتح بلاد الغال، فاجتازوا بجيوشهم جبال البيرينيه الفاصلة بين بلاد الأندلس وبينها وتقدموا شمالا إلى أن وصلوا إلى مدينة بواتييه التي جرت على مشارفها واقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢م بقيادة عبدالرحمن الغافقي، وكان على رأس جيوش الفرنجة التي حشدت لمواجهتهم شارل مارتل جد الملك شرلمان، وكانت نتيجة المعركة مؤسفة، إذ توقفت بعدها حركة الفتح في هذه الجبهة ثم أخذت موجته تنحسر منذئذ إلى أن خرج العرب نهائيا من الأندلس نتيجة رد الفعل عبر قرون في سنة ١٤٩٢. وقد ذكر جرجي زيدان أنه لو فاز العرب في تلك المعركة «لانتشر الإسلام في فرنسا، ثم في سائر أوربا.. ولانتشرت اللغة العربية في تلك القارة كما انتشرت في قارتي آسيا وأفريقيا وسائر العالم الإسلامي»(١).

وقام الأغالبة في تونس بفتح جزيرة كورسيكا سنة ٨٠٩م، واستولوا من ثم على جزيرة سردينيا سنة ٨١٠م. ثم قام جماعة منفيون من الأندلس بالاستيلاء على جزيرة كريت. وقام الوزير الأغلبي القاضي أسد بن الفرات بقيادة أسطول عربي لفتح جزيرة صقلية، المنفذ الجنوبي لأوربا الوسطى سنة ٨٢٧م، وتم فتح باليرمو فيها سنة ٨٣١م، واستقر العرب هناك، وكانت مدن إيطاليا المنقسمة فيما بينها تستعين أحيانا بالعرب ليحارب بعضها بعضا، مما أتاح للعرب هناك التدخل في شؤون حكوماتها الداخلية، واستولوا على بعض أجزاء إيطاليا الساحلية، وامتدوا في بعض الأحيان إلى الداخل، حتى اضطروا البابا يوحنا الثامن سنة ٨٧٢م إلى أن يدفع الجزية لهم بعد

(١) انظر كتابه: تاريخ التمدن الإسلامي، ١/١٠٧.

أن هـددوا مـدينـة رومـا نفسهـا . إلا أن تحالفا بين البـابـا ومـدن إيطـاليـا المختلفـة وإمبراطورى ألمانيا وبيزنطة أدى إلى إخراج العرب من إيطاليا إلى صقلية سنة ٩١٦م، ثم استولى النورمنديون على صقيلة نفسها في سنة ١٠٩١م .

وكـانت جزيـرة صقلية هـذه همزة الوصل التجـارية بين شمال أفـريقيا وأوربـا ، وكـانت نقطـة احتكـاك حضـاري على درجـة عـاليـة من الأهميـة بين العـرب والأوربيين .

وكانت الأنـدلس نقطة أخـرى للاحتكاك الحضـاري بين العرب والأوربيين ، إذ كانت بمنزلة مركز إشعاع وتنوير لغربي أوربا الذي كان يستعمل اللغة اللاتينية آنذاك لغة للعلم والمعرفـة . وقد أصبحت مدينة طليطلة ، التي استولى عليهـا الأسبان سنة ١٠٨٥م، مركزا هامـا وحيويا لنقل العلوم وترجمة الفلسفة من العـربية إلى اللاتينية ، فصارت لـذلك كعبة طلاب العلم من أنحـاء أوربا الغـربية والوسطى كـافة . وممن كـان لهم إسهام كبير في حـركـة النقل والترجمة هـذه واشتهـروا بها : المطران الفـرنسي ريمون Raymond، والإيطالي جيراردو كريمون Gérard de Crémone الذي نقل وحـده إلى الـلاتينيـة أكثر مـن سبعين كتابـا في شتى العلـوم . كما كـان هنـاك علماء آخرون ، تعـود انتماءاتهم إلى بلدان أوربية أخـرى كألمانيـا وإنكلترا وغيرهما ، يعملـون في ميـدان الترجمة هـذا ، وقد أنجـزوا كثيرا من الترجمات المفيـدة ، ولـذا نجد مـدينـة طليطلة تشبه في مكانتهـا عند الأوربيين مكانة بغداد في عهد ازدهـارها العلمي إبان عصر المأمون خاصة ، حين كانت مركزا لترجمة الآثار العلمية المحضة المختلفة وغيرها من اليونـانية والفـارسية والسريـانية وغيرها من اللغـات الثقافيـة القديمـة آنذاك إلى العـربيـة[١] . وظلت طليطلة قرابـة أربعة قرون المركز الثقـافي والديني الأول في شبه جزيرة الأندلس [٢] .

وتم استيلاء الإسبـان على الأندلس نهائيـا بسقوط غـرناطـة نهائيا في يـدهم سنة

---

(١) انظر Leclerc (L.), Histoire de la médecine arabe, 2ème éd, U.S.A., 1971, II, P. 345.

(٢) انظر مادة (طليطلة) Tollie في Encyclopédie du XXe siècle.

١٤٩٢م، وخرج العرب على أثر ذلك مضطرين منها إلى شمال أفريقيا والمشرق العربي، وظل من بقي منهم وهم قلة قليلة يعانون من آثار الاضطهاد والتعصب الديني الأعمى في ظل حكم إسباني غير متسامح، وتحولوا في نهاية الأمر إلى المسيحية بضغط من محاكم التفتيش التي نصبت في كل مكان.

٢ ـ الحروب الصليبية وأثرها في أوربا:

شجعت انتصارات الإسبان على العرب المسلمين في الأندلس، حين استولى الفونس السادس [١] على طليطلة سنة ١٠٨٥م، وحين استولى النورمنديون على جزيرة صقلية سنة ١٠٩١م، على متابعة الحروب والحملات على ديار المسلمين في عقر دارهم، ومما زاد رغبة الأوربيين في ذلك انتصار السلاجقة سنة ١٠٧١م على البيزنطيين في موقعة منازكرت وتهديدهم القسطنطينية، مما دفع الإمبراطور ألكسيس الأول كومنينوس[٢] إلى طلب النجدة من البابا أُربانيوس الثاني[٣]، فلقي طلبه هذا

---

(١) ألفونس السادس : Alphonse VI عاش بين سنتي (١٠٤٠ ـ ١١٠٩م)، كان ملكا على ليون من سنة ١٠٦٥م، ثم أستولى على قشتالة وغاليسية، ثم التفت إلى طليطلة فانتزعها من يد العرب سنة ١٠٨٥م، واتخذها عاصمة لملكه.

(٢) الكسيس الأول كومنينوس : Alexis I Comnenus عاش بين سنتي (١٠٥٦ و١١١٨م)، وهو إمبراطور على بيزنطة من سنة ١٠٨١م وكان مؤسس أسرة كومنينوس الحاكمة في الإمبراطورية البيزنطية.

(٣) البابا أربانيوس الثاني : Urbanius II عاش بين سنتي ١٠٤٢ و١٠٩٩م، وتولى منصب البابوية بين سنتي ١٠٨٨ و١٠٩٩. وقد تابع العمل الإصلاحي لأسلافه وحكم بالحرمان على هنري الرابع الألماني وفيليب الأول الفرنسي، وكان هو نفسه من أصل فرنسي، وأقدم، في مجمع كليرمون Clermont سنة ١٠٩٥، على اتخاذ إجراءات صارمة، إذ أعلن بدء الحرب الصليبية الأولى، بتوجيه نداء إلى الغرب حرضه فيه على نجدة االشرق المسيحي ضد الغزو التركي، فاستجاب له ألوف الرجال، لأن فكرة الفروسية آنذاك كانت تفرض على المحارب واجب الدفاع عن شعب الله ضد مضطهديه، وكانت الغاية المعلنة هي إنقاذ قبر المسيح وتأمين طريق الحج، واتخذت هذه الحرب الصليب شعارا لها، فنسبت إليه، وقد استغرقت جملة الحروب الصليبية مـاينوف على قرنين من عمر الزمان، إذ بدأت سنة ١٠٩٥ لتنتهي سنة ١٢٩١. وكان عدد حملاتهاتسعا كالتالي:

الأولى (١٠٩٥ ـ ١٠٩٩).

الثانية (١١٤٧ ـ ١١٤٩) وأخفقت أمام دمشق.

الثالثة (١١٨٩ ـ ١١٩٢) وكان سببها المباشر تحرير صلاح الدين مدينة القدس، بعد انتصاره =

هوى في نفس البابا الطموح إلى توحيد الكنيستين الغربية والشرقية بتقديم العون لبيزنطة، فدعا إلى عقد مجمع كليرمون برئاسة سنة ١٠٩٥م، وطلب إلى أحد الحجاج، الذين يدعون أن السلاجقة المسلمين قد آذوهم عندما كانوا يؤدون مناسك حجهم إلى الديار المقدسة، وكان يدعى بطرس الناسك، أن يتكلم في هذا المجمع، فقام وخطب فيه داعيا بحماسة إلى قيام حرب صليبية مقدسة لتخليص قبر السيد المسيح عليه السلام من أيدي المسلمين الكفرة على حد زعمه، فوافق المجمع على دعوته هذه، وصادف كل ذلك ميلا لدى نبلاء أوربا الإقطاعيين الذين يطمعون في التوسع وكسب المغانم من بلاد المسلمين، فتحالفوا مع طبقة رجال الكنيسة في المصالح، وانضم إلى ركبهم طرف ثالث هو تجار الموانيء الأوربية على البحر الأبيض، وخاصة تجار الموانيء الإيطالية.

وتم بالفعل تحقيق ذلك بتسيير تسع حملات كانت تلبي رغبتين أساسيتين: الأولى رغبة رجال الكنيسة من المتعصبين في تخليص بيت المقدس والأراضي المسيحية ذات القداسة من أيدي المسلمين وهيمنتهم. والثانية رغبة نبلاء أوربا والمغامرين فيها والتجار في البحث عن الثروة والغنى والموارد والأسواق الجديدة التي تمدهم بالأموال والسلع.

= في وقعة حطين سنة ١١٨٧.

الرابعة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤) وكان هدفها مصر.

الخامسة (١٢١٧ ـ ١٢٢١) ضد مصر أيضا.

السادسة (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩) وتمت إعادة السيطرة بها على القدس. إلى أن عادت إلى يد مصر سنة ١٢٤٤.

السابعة (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤).

الثامنة (١٢٧٠) وكان هدفها تونس، ومات فيها لويس التاسع ملك فرنسا بالطاعون.

التاسعة والأخيرة في تلك السلسلة (١٢٩١) وقد أخفقت في انتزاع مدينة عكا من أيدي المسلمين.

ورأى المتتبعين لتاريخ هذه الحملات أنها إذا ما كانت قد انتهت. من الوجهة العسكرية، إلى الاخفاق والخيبة، فقد كان لها أثر عميق في تطور العالم الأوربي، إذ عجلت تعجيلا غير مباشر تحرر المدن، وذلك باجبار السادة على بيع إقطاعتهم للحصول على المبالغ اللازمة لتمويل هذه الحملات، وقد أتاحت كذلك معرفة فضلى للعالم الآسيوي. وسهلت التبادلات التجارية، والفكرية، والفنية بين طرفي البحر الأبيض المتوسط.

مرت الفصيلة الأولى من الحملة الصليبية الأولى بالقسطنطينية، عاصمة البيزنطيين ومقر الكنيسة الشرقية، في طريقها إلى الديار المقدسة، فسلبتها ونهبتها وخربتها وارتكبت المذابح والفواحش على اختلافها بحق أبناء دينهم أنفسهم، مبرهنين على الخلفية الحقيقية لحملاتهم كلها. وقد اتجهت هذه الحملة بعد ذلك شرقا فأبادها السلاجقة إبادة كاملة. وأما الفصيلة الثانية من الحملة نفسها فقد تمكنت من الاستيلاء على مدينة القدس سنة ١٠٩٩م.

وجاءت موقعة حطين سنة ١١٨٧م حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية تلك في المنطقة العربية، فقد دحر صلاح الدين الأيوبي فيها الصليبيين، وفتح القدس. وتوالت بعد ذلك الحملات الصليبية، إلا أنها كانت حملات واهنة ضعيفة، وكان سقوط عكا في يد الملك الأشرف ابن السلطان قلاوون نهاية مأسوية لمسرحية الحروب الصليبية في المشرق العربي كله، إذ أن الصليبيين عادوا إلى أوربا يحملون معهم ذكريات مرة ودروسا صعبة من الشرق لأبناء جلدتهم وأخوانهم الأوربيين. وقد ذكر الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور في ذلك قائلا: «وهكذا دالت دولة الصليبيين في الشرق الأدنى، وظلت ذكريات الشام ومصر ولويس التاسع عالقة في أذهان الفرنسيين دون غيرهم، أو على الأقل أكثر من غيرهم من الشعوب الغربية التي أسهمت في الحركة الصليبية، ومن ذلك الوقت والفرنسيون يحرصون على بقاء صلتهم قوية بالشرق الأدنى والبلدان العربية ـ وبخاصة بلاد الشام ـ وينظرون إلى هذه المنطقة على أنها منطقة نفوذ لهم ـ على الأقل في المجال الحضاري ـ وذلك حتى كانت حملة نابليون على مصر والشام، فرأى الفرنسيون فيها إحياء لنفوذهم القديم في الشرق الأدنى على عصر الحروب الصليبية»[1].

وكان من نتيجة هذه الحروب ازدياد معرفة الغرب الأوربي بالشرق العربي، إذ كانا قد ظلا في عزلة «حتى قامت الحروب الصليبية لتفتح عيون الغرب على الشرق، وتلقي ضوءا ولو خافتا على بعض البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام، مما صار

---

(١) انظر كتابه: الحركة الصليبية، ص ١٢٦١.

له أبعد الأثـر بالنسبة لتاريخ الشرق الأدنى فضـلا عن مستقبل العلاقات بين الشرق والغرب»[1].

ومن المسلم به لدى المؤرخين الغربيين أن فترة هذه الحروب قد رافقتها حركة تيقظ في أوربا يـدعوهـا بعضهم بـ (النهضـة الأوربية في القـرن الثاني عشر)، وهـي نهضة مبكـرة سبقت النهضة المشهـورة بعد سقـوط القسطنطينية بيـد العثمانيين المسلمين، وكان لها أثـر كبير في انتقال كثير من مظـاهر الحضـارة العربيـة الإسلاميـة إلى الغرب الأوربي في أكثر ميادين الحياة الاجتماعية والعمرانية والتنظيمية والعسكرية.

وقد لفتت هـذه الحروب بعنف نظر الغربيين إلى الحضارة العـربية وإلى الإسلام، ووجدوا تفاوتـا عظيما بين وضعهم المتأخر وأوضاع المسلمين المتطورة والمتقـدمة. وقد رافقت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية هذه الفترة، فكان هنالك اتصال ساخن حربي في المشرق العربي، في حين أن المغرب العربي ـ والأندلس خاصة ـ شهد اتصالا حربيـا متقطعا، مـع سلام متقطع أيضـا عملت فيه مـراكز الترجمة بنشـاط كبير أفاد العقل الأوربي فوائد علمية جمة. وقد نقل بعض العائدين من المشرق العربي إلى أوربا بعض المخطوطات العربية المتعلقة بالطب والفلسفة[2]، ومنهم من أتقن العربية في بلاد الشام. وامتد الاحتكاك بين الأوربيين الغـزاة والعرب إلى ميدان الزواج والامتزاج العرقي، وليس بسيطـا البتة أن يدوم الاتصال بين هؤلاء الأوربيين والعـرب أكثر من قرنين من عمر الزمان، من حدود سنة ١٠٩٥م إلى سنة ١٢٩٠م تقريبا، ومن غير أن يـؤخذ العـرب بجمال النسـاء الأوربيـات القادمـات مع أزواجهن أو المولـدات على الأرض العربية نفسها في ظل الدول والممالك الصليبية التي أقاموها عليها.

٣ ـ النهضة الأوربية:

كان إحيـاء العلوم والآداب اليونـانية والرومانيـة القديمة، وسقـوط القسطنطينية

---

(١) م.ن.

(٢) ذكر أسامة بـن منقذ في كتابه: الاعتبار، ص ٣٥ استيلاء الإفرنج على مكتبتـه المنقولة من مصر إلى الشـام فقال: فهـون علي سلامـة أولادي وأولاد أخي وحرمنـا ذهاب مـاذهب من المال، إلا ماذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلـد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ماعشت.

بيد العثمانيين المسلمين، وتقلص سلطان الكنيسة، وظهور النزعات الفردية وحب المغامرة والحرية، والميل إلى الكشوف الجغرافية، والحقائق العلمية الجديدة المذهلة، والإصلاحات الدينية المسيحية، واختراع الطباعة، وهجرة العلماء البيزنطيين مع مخطوطاتهم إلى إيطاليا خاصة، والتجارة مع الشرق، والحروب الصليبية، وحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، كل ذلك كان من أهم أسباب النهضة في أوربا الغربية على وجه الخصوص. وكان التاريخ الفاصل بين عصر النهضة الأوربية والعصر الذي يطلق عليه الأوربيون اسم (العصر الوسيط) هو سنة ١٤٥٣ التي شهدت سقوط القسطنطينية، عاصمة البيزنطيين على البر الأوربي المطل على مضيق البوسفور، بيد السلطان العثماني محمد الذي لقب أثر ذلك بـ (الفاتح). ونلحظ أن الترجمات من العربية إلى اللاتينية، على وجه الإجمال، كانت تخدم حاجات عملية: كالعلوم الطبية، والصيدلة، وعلوم الطبيعة، والكيمياء، والفيزياء، والزراعة، والحيوان والبيطرة. أو كانت تخدم حاجات عقلية: كالفلسفة، والمنطق، والرياضيات، وغيرها. وهذا القانون المتحكم في حركة الترجمة من لغة متحضرة متطورة إلى لغة أخرى في طور النهوض والتفتح سائد في معظم حالات الاحتكاك بين حضارتين متفاوتتين في المستوى الحضاري، فالناس يلجؤون عادة إلى ما يشتركون فيه جميعا، ويكون ذلك في الجوانب الموضوعية التي لاترتبط بروح الجماعة أو عاطفتها ارتباطا كليا، ولا تكون في الوقت نفسه تعبيرا عنها أو صورة لها. وعلى هذا الأساس، كانت هذه الترجمات تؤدي خدمات موضوعية للعلماء، وتسد ثغرات في صرح التفكير العلمي والعقلي الناشيء في أوربا. وقد قام بهذه الترجمات عدد من كبار العلماء من أمثال ألبير الكبير الألماني (١٢٠٦ ـــ ١٢٨٠م) أستاذ الفلسفة واللاهوت وأعظم علماء عصره في التاريخ الطبيعي، وروجربيكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤م) العالم الإنكليزي الشهير، وغيرهما من كبار العلماء الأوربيين آنذاك.

وكانت الترجمات تتناول آثارا منقولة من اليونانية إلى العربية لعلماء وفلسفة وأطباء من اليونان، وكانت تتناول أيضا آثارا عربية خالصة لمؤلفين باللغة العربية في مختلف الاختصاصات والمعارف التي ذكرنا آنفا ميادينها.

وقد أحصى الدكتور ليكليرك Leclerc في كتابه: (تاريخ الطب العربي)، عدد المؤلفات التي نقلت من العربية إلى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر فقط، فوجدها تزيد على ثلاثمئة ترجمة موزعة كالتالي[1]:

١ ـ تسعون ترجمة تتعلق بالعلوم الفلسفية والفيزيائية، والطبيعية.

٢ ـ سبعون ترجمة تتعلق بالعلوم الرياضية، والفلكية.

٣ ـ تسعون ترجمة تتعلق بالعلوم الطبية.

٤ ـ أربعون ترجمة تتعلق بعلم النجوم، والكيمياء السحرية alchimie.

٥ ـ عشر ترجمات منوعة.

ولاشك في أن عددا كهذا من الترجمات، وفي موضوعات متنوعة كهذه، سوف يحدث هزة في أفكار الغربيين تؤدي بهم إلى تنبيه العقول على واقع جديد، وتطلعهم على آفاق رحبة لم يعرفوها من قبل، ويقر ليكليرك بفضل العلم العربي على أوربا فيقول:

«شكل العلم العربي نفسه، هذه المرة، الأساس الذي يثري الأدب اللاتيني الذي أصبحت لغته هي اللغة العلمية في الغرب»[2]

وتُطْلِعنا مراجعة يسيرة للقسم الثامن من الكتاب المذكور آنفا عن تاريخ الطب العربي، وهو بعنوان: (العلم العربي في الغرب)، بالتفصيل، على أن هذا العلم العربي قد انتقل عن طريق الترجمة، ويحدثنا عن الترجمات عموما، ثم يعطينا لمحة عن المترجمين وعما أنجزه كل منهم من ترجمات في حياته، ويقدم لنا أخيرا ثبتا بأسماء المؤلفين ومؤلفاتهم المترجمة إلى اللاتينية[3].

ويرى إرنست رينان E. Renan أن «دخول النصوص العربية في الدراسات

---

(١) انظر كتابه: Histoire de la médecine arabe, 2ème éd, U.S.A., 1971, II, p. 526.

(٢) انظر: Op. cit. ,II, p. 366.

(٣) انظر: Op. cit. ,II, p. 341-526.

الغربيـة أدى إلى تقسيم التاريخ العلمي والفلسفي للعصر الـوسيط إلى فترتين متميزة إحداهما من الأخرى تماما»(١)، ويضيف الى ذلك قوله : «في الفترة الثانية عاد العلم القـديم أيضا إلى الغـرب، ولكن أكمل هـذه المرة في الشروح العـربية أو في المؤلفـات الأصلية للعلم اليـوناني التي كان الرومـان يفضلون عليها المختصرات»(٢)، إلى أن يقول على وجه العموم : «لم تـكن الكتـب الأولى المترجمة مـن العـربية كتبا فلـسفية، إذ ترجم قسطنطين الأفـريقي وجربير Gerbert، وأديـلار دوبـات Adélardl de Bath، وأفــلاطـون دو تيفـولي Platon de Tivoli، كتبـــــا في الطب والفلـك والـريـاضيـات، قبل أن يحلم المرء بطلب معلـومـات فلسفيـة من زنـادقـة (كـذا!) كالفارابي وابن سيناء»(٣).

وكان ريمون مطـران طليطلة هو صاحب الفكـرة الأولى الرئيسية في الترجمة، ولما كان مستشارا أكبر لقشتالة من سنة ١١٣٠ الى سنـة ١١٥٠م، فقد كون حوله معهدا من المترجمين نجد على رأسه آنذاك كبير الشمامسة دومينيك غونديسلافي Dominique Gondislavi، وكـان عدد من اليهـود يعمل تحت إمـرتـه، مثل يحيى بن ديث Jean Avendéath ويحيى الإشبيلي Jean de Séville كما أن بعض العرب كـان يساعد في الترجمة أحيانا.

وكانت أولى محاولات الترجمة الفلسفية عن ابن سينا، وقام بها جيرار دو كريمون، وألفـريد مـورلي Alfred Morlay، ثم تناولا بعـد ذلك أبحاثا للكنـدي والفارابي، وبذلك «أصبحت كتبا هـامة جدا في الفلسفة العربية معـروفة منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي لدى اللاتين»(٤).

وكان نشـاط التجارة الفكرية والسرعة التي كـانت الـكتب تنتشر بها مـن مميزات الـعصر الـوسيط، حتى ان كتابـا مؤلفـا في المغرب أو القـاهرة كـان يعرف أحيـانا في باريس وكولونيـا في وقت أقل مما يتطلبه أي كتاب هام في أيامنـا للانتقال من ألمانيا،

---

(١) انظر كتابه : Averroés et averroISME, 1852, p. 200.
(٢) انظر : Ibid.
(٣) انظر : Op. cit. p. 201.
(٤) انظر : Ibid.

عبر نهر الراين، إلى فرنسا[1].

كانت إسبانيا، في الحقيقة، وخصوصا طليطلة، هي المكان الذي تحققت فيه الصلات بين أوربا والعرب المسلمين. وكان لكل من صقلية ونابولي، في إيطاليا، دور في هذه الصلات أيضا، إذ «عمل المترجمون في هاتين النقطتين بحماسة متساوية واتبعوا طرقا متشابهة»[2].

وكانت الترجمة تتم إما مباشرة من العربية إلى اللاتينية، وإما بطريق غير مباشرة من العربية إلى العبرية أو الأسبانية، ثم منهما إلى اللاتينية، غير أننا نتحفظ كثيرا على هذه الطريق، ونرجح أن تكون قلة قليلة من الأعمال هي التي سلكته.

وكان ابن رشد ـــ في نظر الأوربيين ـــ هو ممثل الفلسفة العربية وشارح أعمال أرسطو في القرن الخامس عشر، وقد انتقلت فلسفته إلى الشعوب اللاتينية على يد ميشيل سكوت M. Scott، وروجر بيكون R. Bacon، وهرمان Hermann. ويبين رينان أهمية حركة الترجمة هذه في الثقافة الغربية فيقول: «لن يكون التاريخ الأدبي للعصر الوسيط كاملا إلا حينما نجري ـــ بحسب المخطوطات ـ إحصاء للكتب العربية التي كان جهابذة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين يقرؤونها»[3].

وغير خاف علينا ما لتأثير هذه الترجمات عموما في النهضة الأوربية، ذلك لأنها ظلت تقدم للغربيين حتى فترة متأخرة ثمارها الطيبة، كما أن حركة الترجمة إلى اللاتينية استمرت على تفاوت إلى أن بدأت هذه الحركة تتطور، تحت تأثير نشأة الدول القومية في أوربا ونتيجة لحركة الاستشراق أو الاستعراب في القرون الخمسة الأخيرة، لتصب ترجماتها في قوالب اللغات المحلية التي تفرعت من اللاتينية الأم، أو إلى اللغات القومية الأخرى التي لا تمتّ إلى اللاتينية بصلة سوى كونها لغة الثقافة العامة في أوربا في العصر الوسيط وبدايات عصر النهضة

(١) انظر: Op. cit. p. 202.
(٢) انظر: Op. cit. p. 203.
(٣) انظر: Op. cit. p. 204

الأوربية الحديثة.

وقد لخص المستشرق الفرنسي المشهور إدغار بلوشيه E. Blochet أثر العلم العربي وترجماته في الغرب الأوربي بقوله إن ما اصطلح على تسميته بالنهضة الأوربية La Renaissance لم يكن ليكون لولا اتصال الأوربيين بالعرب المسلمين وحضارتهم، وهو يُذَكِّر بحماسة هؤلاء الأوربيين وهم يقبلون على دراسة هذا العلم العربي(١).

٤ ـ الخطر العثماني على أوربا:

بعد أن تكونت نواة الدولة العثمانية في المنطقة الشرقية من آسيا الصغرى في حدود سنة ١٣٠٠م، أخذت تتوسع على حساب الدولة السلجوقية والإمبراطورية البيزنطية، وظل خلفاء عثمان، بالفعل، يتبعون سياسة التوسع هذه حتى اجتازوا البوسفور إلى البر الأوربي، وتوسعوا في بلغاريا وصربيا، تاركين خلفهم القسطنطينية تنتظر مصيرها المحتوم الذي قدر لها سنة ١٤٥٣ على يد السلطان العثماني محمد الفاتح (م١٤٨١)، وكان أسلافه قد أثاروا الرعب في أوربا فأطلقوا على ما يتهددهم من العثمانيين اسم (الخطر العثماني) الذي أدى إلى تحالف مقدس بين المجر (هنغاريا) والنمسا وألمانيا وفرنسا ضد العثمانيين، إلا أن السلطان بايزيد هزمه في موقعة (نيكوبوليس) سنة ١٣٩٦م، ولكن تيمورلنك (م١٤٠٥م)، الغازي التركي المسلم الشهير، قام بعد احتلاله دمشق بالهجوم على العثمانيين وهزمهم قرب أنقرة سنة ١٤٠٢م، وأسر السلطان بايزيد نفسه الذي انتحر في السنة التالية، مما أدى إلى حرب أهلية بين أبنائه على السلطة حتى سنة ١٤١٣م، وأدت هذه الحرب بالنتيجة إلى فقدان مناطق واسعة في البلقان قام باستعادتها فيها بعد السلطان محمد الأول (م١٤٢١م)، وتوسع فيها أكثر من ذي قبل، وتابع سياسته التوسعية فيها بعده خلفاؤه، ومن أبرزهم: مراد الثاني (م١٤٥١) ومحمد الثاني الذي لقب كما رأينا بـ (الفاتح)(٢).

---

(١) انظر كتابه: Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris, 1901, p. XI-XVI.

(٢) انظر: العرب والعثمانيون للدكتور عبدالكريم رافق، ص ٣٨ ـ ٣٩.

وقد مرت الدولة العثمانية بثلاثة أطوار [1]: طور القوة والصعود الذي امتد من بداية القرن الرابع عشر للميلاد إلى حدود سنة ١٥٦٦ التي انتهى فيها حكم السلطان سليمان القانوني، وكانت هذه الفترة تخيف الأوربيين كثيرا. وطور التردد بين القوة والضعف، وهو يمتد من سنة ١٥٦٦ حتى وفاة السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٧ . وطور الضعف والانهيار الذي يمتد من سنة ١٨٠٧ إلى سنة ١٩١٨ التي شهدت انحسار الأتراك إلى المجال الجغرافي الراهن بنتيجة خسارة الدولة العثمانية وحلفائها الحرب العالمية الأولى.

وبالإضافة إلى التوسع العثماني في أوربا في الطور الأول، نجد العثمانيين يتوجهون إلى البلاد العربية ويستولون في عهد السلطان سليم الأول (م١٥٢٠) ـ بعد توسعهم في غربي إيران وأرمينيا سنة ١٥١٥ على الشام سنة ١٥١٦ ثم على مصر سنة ١٥١٧ بعد إسقاط حكم المماليك فيهما، وعلى الجزائر سنة ١٥١٨ ، وأعلنت سائر البلدان والأقاليم العربية تبعيتها طوعا للباب العالي تباعا، يستثنى منها المغرب الأقصى الذي ظل خارج نطاق الهيمنة العثمانية على البلدان العربية.

وقد حاصر العثمانيون سنة ١٦٨٣ مدينة فيينا عاصمة النمسا، وكان هذا الحصار يمثل قمة الخطر العثماني على أوربا وذروة التهديد الإسلامي لها، ثم أخذت دولتهم بعده تنحسر تدريجيا إلى أن انفرط عقدها تماما إبان الحرب العالمية الأولى[2].

وإذا لم تكن الدولة العثمانية ذات حضارة رفيعة تنشرها التي هيمنت عليها، فإنها على الأقل كانت قوة ضاربة استطاعت أن تحافظ بها على قدرة الإسلام على الاستمرار والمجابهة، إذ أن السلطان سليم الأول استطاع أن يجعل لسلطانه هيبة الخلافة الإسلامية، وذلك لأنه عد نفسه ممثلا للمسلمين في العالم وحاميا لهم منذ تسلمه مفاتيح الحرمين ولقب نفسه بلقب (حامي الحرمين الشريفين)، وأضاف إليه لقب (الخليفة) في سنتي ١٥١٦ و١٥١٧ بعد أن اصطحب معه إلى إستانبول من القاهرة آخر الخلفاء العباسيين وانتزع لقب الخلافة منه بوصفه أقوى رجل في الدولة، فصارت إستانبول بذلك مركز القوة الإسلامية حتى انهيار الدولة و إلغاء الخلافة الإسلامية

(١) م.س، ص ٤٣.
(٢) م.س، ص ٣٧.

رسميا على يد الجمهوريين الأتراك بزعامة مصطفى كمال (م١٩٣٨) في سنة ١٩٢٤ بعد أن ألغى نظام السلطنة سنة ١٩٢٣ .

وقد وقع عبء الدفاع عن أوربا إزاء الخطر العثماني أصلا على عاتق أسرة هابسبورغ الكاثوليكية ، ويتمثل الدور الخطير للنمسا في التاريخ الأوربي ، وهو أحد المسوغات الرئيسية لوجود الإمبراطورية النمسوية ، في وقوف هذه الإمبراطورية وراء الحدود الجنوبية الشرقية لأوربا ، مدافعة عن الحضارة اللاتينية والألمانية في وجه الإسلام[١] .

ونشأ نتيجة لهذا الخطر العثماني على أوربا مصطلح سياسي هو (المسألة الشرقية) وضعه السياسيون الغربيون وكانوا يعنون به تلك العلاقة القائمة على مختلف الصعد بين الإسلام والدول الشرقية التي تقوم عليه أو يتجسد فيها وبين المسيحية والدول الأوربية التي تتجسد فيها[٢] ، وكانت هذه المسألة أيضا تعني تلك السياسة الأوربية المتبعة مع الدولة العثمانية للاستفادة منها وترويضها وتحجيمها والحد من فاعليتها تمهيدا لزعزعة كيانها و إضعافها والاستيلاء تدريجيا على ممتلكاتها والأقاليم الكبرى التابعة لها وتقسيمها غنيمة فيما بينها . فكانت هذه السياسة تتأرجح بين التحالف مع الدولة العثمانية والتحالف عليها بحسب الظروف . وكانت القوى الاستعمارية في أوربا تتطلع بلهفة إلى اقتطاع أجزاء من هذه الدولة . وقد كتب غابرييل مونو E.Monod في مقدمته لكتاب «المسألة الشرقية» الذي ألفه دريو G.Driault حول حقيقة هذه السياسة الأوربية وجوهرها إزاء الدولة العثمانية فقال : «وقد تحالفت روسيا والنمسا معا على أن تصبح منطقة البلقان مستقلة ، لتشكل بالتالي حاجزا بينهما وبين الخطر العثماني ، فكان هذا التحالف حربا صليبية جديدة منتصرة هذه المرة»[٣] .

وقد اهتمت فرنسا نتيجة لهذا الخطر العثماني الإسلامي أيضا وبوصفها أكبر الدول

---

(١) انظر : أصول التاريخ الأوربي الحديث لهربرت فيشر، ص ٣٧٥ .
(٢) انظر: Driault (E,), la question de l'Orient, p. VIII.
(٣) انظر: Op. cit p. IX.

الممثلة للكاثوليكية، بتعليم بعض أبنائها اللغة التركية لغة الدولة القوية، كما اهتمت بتعليمهم اللغة العربية لغة الدين الذي تقوم عليه تلك الدولة وتدافع عنه، إضافة إلى كون العربية لغة حضارة عريقة ذات أثر كبير في العصر الأوربي الوسيط ومن أجل تخريج المترجمين بهاتين اللغتين، أسس كولبير[1] Colbert الوزير الفرنسي المشهور زمن لويس الرابع عشر، مدرسة (فتيان اللغات) Jeunes de Langues التي كان لها مركزان في الدولة العثمانية: أحدهما في بيرا Péra قرب استانبول، والثاني في أزمير Smyrne، وهي ميناء يطل على بحر إيجة.

وإذا نظرنا إلى الصراع العثماني مع الغرب، في محاولة للتقويم من منظور شامل، فإننا سنجده صراعا خاسرا منذ البداية لأنه لم يعتمد اللغة العربية لغة للدولة العثمانية بوصفها ممثلة الإسلام والحاكمة باسمه طوال قرون في البلاد العربية خاصة، نظرا لكونها لغة استراتيجية للحضارة الإسلامية بغير نزاع. وكان هذا الخطأ خطأ قاتلا أدى بالعرب إلى التخلف عن ركب الحضارة وأدى بالمسلمين عموما إلى حالة من الخمول على الرغم من امتلاك العثمانيين لأقوى جيوش الأرض في مرحلة من مراحل تاريخهم. والأدهى والأمر من ذلك أن هؤلاء العثمانيين كانت لديهم نزعة خفية إلى تتريك العرب خاصة وإلغاء اللغة العربية ثقافيا، وهذه سياسة غريبة جدا لا يفهم منها سوى القصور الذريع في رؤية الآثار السلبية التي ستظهر عمليا على نحو أو آخر في جسد الدولة العثمانية ومستقبلها.

٥ ـ التجارة الأوربية مع الشرق:

منذ أقدم العصور كانت القوافل التجارية البرية تعبر المنطقة العربية واصلة بين الشرق والغرب، كما أن السفن التجارية كانت تجوب البحر الأبيض المتوسط وترسو في موانئه على الشواطىء المحيطة به، وكانت تمخر عباب المحيط الهندي والخليج

(١) كولبير: هوجان ـ باتيست كولبير، من كبار رجال الدولة الفرنسية، عاش بين سنتي ١٦١٩ و١٦٨٣، تقلد عددا كبيرا من المناصب العليا زمن الملك لويس الرابع عشر، وكان من عظماء الوزراء المنظمين للدولة والإدارة ومؤسساتها، وقد أحدث عددا من الأكاديميات العلمية، وكان من حماة الآداب والفنون ومشجعي أربابها على وجه العموم.

العربي وبحر العرب والبحر الأحمر. ونشأت في المنطقة العربية حضارات قوامها النشاط التجاري كاليمن وتدمر ومكة وغيرها.

ويذكر بلوشيه أنه منذ أقدم العصور إلى الأيام الأخيرة من العصر الوسيط كانت هنالك أربع طرق للاتصال التجاري بين الشرق وأوربا، تمتد كالتالي[١] :

الطريق الأولى : تنطلق من شواطىء الخليج العربي، وتسير مع مجرى نهر الفرات أو دجلة، وتجتاز هضبة القوقاز الضخمة، وتسير بعد ذلك في وادي نهر الفولغا Volga كله، ونهر الدون Duna، وفي جزء من مجرى نهر نييمن Niemen، إلى أن تصل إلى شواطىء بحر البلطيق في بروسيا، وتستمر من ثم إلى السويد والجزر البريطانية وإيرلندا.

الطريق الثانية : تنطلق من سواحل البحر الأسود خلال أودية أنهار الدنيبر والبوغ Boug ودنيستر Dniester و نييمن والفستول Vistule، وكانت هذه الطريق تنتهي إلى النقاط السابق ذكرها آنفا تقريبا.

الطريق الثالثة : تنطلق من دلتا نهر النيل وتحط رحالها على سواحل فرنسا، على مصب نهر الرون Rhone، ثم تتبع مجرى نهر السون Saone، وتسير مع مجرى نهر الراين ثم الموز Meuse أو السين Seine وروافده أو مجرى نهر اللوار Loire.

الطريق الرابعة : تنطلق أيضا من دلتا نهر النيل وتحط على الساحل الغربي لخليج ليون Lion قرب مدينة ناربون Narbonne اليوم، وتتبع من ثم مجرى نهر الغارون Ga-ronne، ثم تصل إلى الساحل الغربي لفرنسا، حيث كان بالإمكان الوصول من هناك بحرا إلى إنكلترا وإلى إيرلندا.

ومن الملاحظ أن الطريقين الأولى والثانية كانتا تصلان ما بين المشرق العربي وأوربا الشرقية والشمالية، في حين أن الطريقين الثالثة والرابعة تصلان هذا المشرق الغربي بوسط أوربا وغربها وشمالها الغربي، وقد دلت على وجود هذه الطرق التجارية

---

(١) انظر كتابه: Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris, 1901, p. 119-127.

اكتشافات أثرية تتمثل في النقود العربية والإسلامية والشرقية عموما، التي يعتقد أنها كانت تسقط من أحزمة التجار العرب والمسلمين والشرقيين الذين كانوا يسلكونها.

وهناك خطوط تجارية أخرى كانت تربط بين موانىء البحر الأبيض المتوسط العربية وموانىء أوربية. وعندما جاء عصر الكشوف الجغرافية البحرية وتقدمت وسائط النقل البحري والبري، ازداد النشاط التجاري أكثر فأكثر بين الشرق عموما والغرب الأوربي خصوصا.

وكان اكتشاف رأس الرجاء الصالح أحد أسباب تطور الصلات العامة بين الشرق والغرب عن طريق الدوران حول أفريقيا، وكان فاسكودي غاما[1] هو الذي اكتشفه في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، في سنة ١٤٩٧م تحديدا. وكان هذا التحول في طرق التجارة البحرية ضربة قاصمة للتجارة المارة عبر البحر الأحمر بمصر متجهة إلى ساحل البحر المتوسط فأوربا، وكان أيضا ضربة قوية للتجارة المارة ببلاد الشام عبر الخليج العربي مما أدى إلى انحطاط الأوضاع الإقتصادية وضعف الموارد المالية في مصر والشام، مما أدى إلى ضعف الدولة المملوكية التي كانت تقوم بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب على وجه العموم، فأدى ذلك إلى ضعفها العسكري الذي تمثل سريعا في هزيمة جيوشها أمام العثمانيين الذين كانوا آنذاك في أوج قوتهم العسكرية المتمثلة في الجيش الانكشاري.

وإذا كانت الدول الأوربية قد فرحت كثيرا لاتصالها المباشر بالشرق مستغنية عن الوساطة التجارية العربية التي كانت تكلفهم باهظا، فقد أدركوا سريعا ما يكلفهم طول الطريق التجارية البحرية الجديدة من متاعب وصعوبات جمة ومخاطر لا تحصى، وفكروا بحل ذلك عن طريق الاستيلاء المباشر على المناطق المفصلية والاستراتيجية العربية، إلا أن دخول العثمانيين الأقوياء حال دون التنفيذ السريع

---

(١) فاسكو دي غاما: Vasco de Gama بحار برتغالي عاش بين سنتي ١٤٦٩ و١٥٢٤، وقد تجاوز سنة ١٤٩٧ رأس الرجاء الصالح، واتبع الساحل الشرقي لأفريقيا، ثم وصل إلى ساحل مالابار، وبلغ كلكتا سنة ١٤٩٨، ووقع أميرها معاهدة تجارية مع البرتغال، وتوفي في الهند.

لأحلامهم الاستعمارية هذه، وأجّلها آمادا متفاوتة انتظارا لفترات ضعف هذه الدولة وعجزها عن الردع والحسم في مثل هذه المناطق المنوي الاستيلاء عليها. ونظرا لأن المنطقة العربية عموما ذات موقع استراتيجي هام للتجارة الدولية والمواصلات بين الشرق والغرب بفضل موقعها المتوسط في العالم القديم، وبعد الكشوف الجغرافية للعالم الجديد، فقد لفتت إليها أنظار الطامعين والمستعمرين، وجرى التنافس بين دولهم عليها، ومن ذلك ماجرى بين فرنسا وبريطانيا من تنافس على احتلال مصر فقد حاول الفرنسيون احتلالها بحملة نابليون سنة ١٧٩٨، بهدف قطع طريق الهند على الإنكليز، فقام هؤلاء بدورهم بأكبر نصيب في القضاء على هذه المحاولة وفي إجلاء المحتلين الفرنسيين من مصر بالتعاون مع العرب والعثمانيين، وذلك بتشجيعهم ومدهم بالسلاح وبتدخلهم المباشر أيضا (كما فعل أمير البحر نلسون في خليج أبي قير، إذ حطم الأسطول الفرنسي الراسي فيه تماما). ثم عادت بريطانيا نفسها سنة ١٨٠٧ فأنزلت حملة بقيادة فريزر محاولة احتلال مصر، إلا أن حملتها أخفقت في تحقيق هذا الحلم أمام مقاومة المصريين الشعبية في رشيد. ثم اتضحت المطامع الاستعمارية في تشجيع الفرنسيين لخديوي مصر على شق قناة السويس لتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط واختصار طريق رأس الرجاء الصالح اختصارا هائلا أمام التجارة عبر هذه القناة، وتم تنفيذ المشروع خلال عشر سنوات بجهود الكادحين المصريين وعرقهم ودمهم، وافتتحت القناة للملاحة سنة ١٨٦٩. ولم تلبث بريطانيا طويلا حتى تدخلت إلى جانب فرنسا في الشؤون المالية والاقتصادية والإدارية لمصر، إلى أن لاحت الفرصة المواتية للإنكليز بالاتفاق مع الفرنسيين على إطلاق يدهم في مصر مقابل إطلاق يد الفرنسيين في تونس في وقت واحد لوضع العثمانيين أمام الأمر الواقع الذي لا يستطيعون مواجهته ومنع حدوثه نظرا للضعف العسكري والانهيار الإداري اللذين كانت الدولة العثمانية تعاني منهما. فكان احتلال الإنكليز العسكري لمصر سنة ١٨٨٢ بعد مقاومة وطنية ضعيفة، فأمنت بريطانيا لنفسها طريق التجارة مع الهند، ومتنت سلطانها في بلدان الشرق التي كانت خاضعة لها خضوعا مباشرا.

وطوال العصر العثماني كان لفرنسا علاقات تجارية هامة مع الموانىء الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، وتعززت أكثر باحتلالها الجزائر ثم بعد ذلك تونس. ولا تزال هذه العلاقات قائمة ومزدهرة إلى اليوم مع مختلف البلدان العربية المطلة على البحر المتوسط.

٦ ـ الازدهار الصناعي الأوربي والتوسع الاستعماري على حساب الشرق:

مع نهوض الطبقات الوسطى الصناعية والتجارية في المدن الواقعة في الغرب الأوربي، ومع تفتح وعي هذه الطبقات وازدياد سيطرتها في ظل النظام الاقطاعي البالي الذي فقد أسباب التلاؤم مع الظروف الاقتصادية المتطورة الجديدة واختلال موازين القوى، نشبت صراعات بين البرجوازية ممثلة الطبقات الجديدة الناهضة ذات السلطان المالي والاقتصادي والتأثير الثقافي، وبين طبقة الملك والنبلاء ممثلة النظام الاقطاعي الذي لم يبق منه سوى المظاهر البراقة والقشور الفارغة من المضمون ومن الرسالة الثقافية الملائمة لمتطلبات المجتمع المتبلور في ظل الظروف المستجدة.

وقد أدت هذه الصراعات إلى تحطيم النظام الإقطاعي القديم والمهلهل وبروز البرجوازية الصناعية والتجارية في المدن قوة بديلة له، وكانت الثورة الفرنسية في ١٤ تموز من سنة ١٧٨٩ الحد الفاصل بين عصرين تاريخيين عريقين اقتصاديا وسياسيا. وبتسلم البرجوازية مقاليد السلطة ازدهرت الحياة الاقتصادية في ميادين الصناعة والتجارة والزراعة والعمران، وأسهم في هذا الازدهار تلك الاختراعات العلمية المتوالية في أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر. وكل ذلك أدى إلى زيادة الإنتاج واطراد سرعته في بلدان الغرب الأوربي الصناعية، مما أدى إلى تضيق الأسواق المحلية بالمنتجات وتكدس فائض وفير منها كان يحث أصحاب رؤوس الأموال الصناعية إلى التطلع إلى تصريفه خارج حدود بلدانهم بالبحث عن أسواق جديدة.

وقد شجعت الكشوف الجغرافية والمغامرات الفردية على ارتياد عوامل جديدة وكان من حصيلة كل ذلك اطلاع الأوربيين على أراضي بلدان وأقاليم جديدة غنية

بالمواد الأولية الهامة التي يمكن استغلالها بغير مقابل لإمداد المصانع الأوربية بكثير مما تحتاج إليه من هذه المواد لتصنيعها، كما أن تصريف المنتجات في أسواق عالمية كان مهمة ملحة عند الرأسماليين الصناعيين الذين تحالفوا مع الرأسماليين التجاريين، لما لهذه العملية من مردود كبير في ميدان الأرباح وتراكم رؤوس الأموال بين أيديهم جميعا.

ولتحقيق هذا الهدف المزدوج: الحصول على المواد الأولية رخيصة الثمن وتصريف فائض الإنتاج الصناعي الكبير، قامت الدول الأوربية التي تسير أمورها الطبقات الرأسمالية الصناعية والتجارية، التي تمتلك وسائل الإنتاج ومقاليد السلطة معا، بتسيير أساطيلها وجيوشها إلى مختلف بقاع العالم، وخصوصا منطقة الشرق المتمثلة بقارتي آسيا وأفريقيا، فتشكل نتيجة لهذه الحركة النشطة ما أطلق عليه إصلاح (الحركة الاستعمارية) الأوربية Colonialisme.

وكان التنافس الاستعماري بين الدول الأوربية الغربية وراء سلسلة من الحروب غير الإنسانية في مختلف البلدان التي تعرضت للاحتلال الأجنبي، وكانت حروب التنافس هذه تقع بين هذه الدول حتى في عقر دارها.

وكانت بريطانيا قد برزت أكبر قوة استعمارية منذ بداية حركة الاستعمار، وظلت تحمل هذه الصفة حتى العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦. وترجع أسباب ذلك إلى قوة أسطولها البحري من جهة وإلى سياستها الذرائعية النفعية الماكرة من جهة ثانية. وكانت فرنسا تليها في هذا الميدان، ثم تأتي دول أخرى كإسبانيا والبرتغال وهولندا. وكان الصراع بين هذه الدول الاستعمارية المتنافسة يؤدي غالبا إلى ربح بعض الممتلكات والمستعمرات أو خسارتها من حين الى آخر.

وقد تعرضت بعض سواحل المنطقة العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط لهجمات السفن الإسبانية والبرتغالية، وخصوصا سواحل المغرب والجزائر، وكان من نتيجة ذلك احتلال أسبانيا بعض المناطق في شمالي المغرب (كالريف المغربي وطنجة وسبتة ومليلة)، وفي جنوبية (منطقة الصحراء أو ما كان يعرف بساقية الذهب). كما

تعرضت سواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية لهجمات برتغالية مبكرة، حتى كانت المنافسة البريطانية للبرتغال فيها منذ سنة ١٨٣٩ .

ولم تقع المنطقة العربية الخاضعة للسلطان العثماني في ظل الاحتلال الاستعماري إلا بعد أن ضعفت قوة الدولة العثمانية المركزية وعجزت عن حماية الأطراف البعيدة من ولاياتها. وكان هذا الضعف قد دب في كيان الدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاسع عشر. ولعل المحاولة الفرنسية التي جرت لاحتلال مصر وانتزاعها من السلطان العثماني كانت المحك العملي لاختبار حقيقة هذا الضعف، وكان من نتائج ذلك فيما بعد تجرؤ فرنسا على احتلال الجزائر القريبة منها سنة ١٨٣٠ واحتلال تونس المجاورة لها سنة ١٨٨١ ، والمغرب سنة ١٩١١ ، وأخيرا سورية سنة ١٩٢٠ .

وأما بريطانيا فقد احتلت مصر في سنة ١٨٨٢ ، ثم العراق سنة ١٩١٤ ، وبعد ذلك فلسطين والأردن سنة ١٩١٧ .

وسيطرت إيطاليا على ليبيا فقط سنة ١٩١١ .

ومن الطبيعي أن تصبح العلاقات بين المنطقة العربية والدولتين الكبريين المستعمرتين نشيطة نشاطا كبيرا وعلى كل المستويات، لأن هذا النشاط نشاط تفاعل واتصال مباشر، أي اتصال تأثر وتأثير عن كثب.

٧ ـ النهضة العربية الحديثة :

يرى أكثر مؤرخي العصر الحديث أن النهضة العربية بدأت مع نزول الحملة الفرنسية على مصر بقيادة الجنرال نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ وامتدت من ثم عبر البر إلى بلاد الشام، وتحديدا إلى مدينة عكا، واستمرت في مصر حتى سنة ١٨٠١ . وعلى هذا المذهب تكون النهضة العربية في العصر الحديث من عمر الثورة الفرنسية إلا بضع سنين. ولعل في هذه النظرة أو هذا المذهب صوابا كثيرا ، ذلك لأن الصراع الدولي الذي جرى بين أربعة أطراف: إذ كان الفرنسيون من جهة، والعرب والعثمانيون والإنكليز من جهة ثانية، أحدث هزة كبيرة في نفوس العرب في كل من

مصر والشام معـا وهما قاعدة الأمة العـربية على طول التـاريخ . وإذا أضفنا ذلك إلى الصراع المحلي الذي جرى على السلطـة ، بعد خروج الفرنسيين ، بين محمـد علي باشا قـائد القوات العثمانيـة التي أرسلتهـا الدولـة لمحـاربـة الفرنسيين ، والمماليك الحكـام التقليديين لمصر قـرابة ثلاثـة قرون من الزمان وكـانوا متنفذين وأصحـاب الإقطاع في مصر بعد سقـوط سلطانهم بدخـول العثمانيين إلى مصر، وزعماء الشعب الوطنيين في مصر، إذا أضفنا هذا الصراع على السلطـة بين هذه الفئات الثلاث ، فإننـا نرى نشوء وعي عند الناس في مصر لحقـائق كثيرة : منها إدراكهم مالبلادهم من أهميـة ومكانة عند الطـامعين . ومنها إدراكهم مدى ضعف العثمانيين وعجـزهم عن مقاومـة الغزو الغربي لبلادهم وعن حمايتها . ومنها إدراكهـم عجز المماليك المتنفذين في طول البلاد وعـرضهـا عن صد الغـزاة وفي الـدفـاع عن مزرعتهم الخصبـة : مصر. واكتشفـوا أن العثمانيين والمماليك بالتالي لا يستحقون التبعية ولا الطاعة وأن عليهم أن يتخلصوا من نير سيطرتهم عليهـم وتولي زمام أمـورهم بأنفسهم ، ولـذا قام المصريون فعـلا بتنظيم المقاومة عن بـلادهم ضد الفرنسيين وتحملوا الأعباء والتضحيـات وحدهم طوال فترة الاحتلال . وقاموا بعـد جلائهم بالمطالبة بأن يكون لهم حق اختيـار حاكمهم وتقرير نسبة الضرائب التي تفـرض عليهم ، وبأن تكون المشـورة لهم ليعمل برأيهم المعبر عن مصـالحهم الحقيقيـة ، ولتحقيق كل هـذه الطمـوحـات والأحلام سـانـد المصريـون زعماءهم في اختيارهم قائدا ذكيا وداهية استطاع أن يتقمص بإخلاص كل ما يصبون إليه وأمَّلهم بتحقيقه لهم ، ألا وهـو محمد علي باشا قائد الحملـة العثمانية التي جاءت إلى مصر لمقـارعة البقـايا المضطـربـة من الحملة الفـرنسيـة ، إذ أعجب به المصريـون الـوطنيون وطـالبوا بـه واليا عليهم من قبل السلطـان العثماني ، فوافق السلطـان على ذلك ، وكـانت بدايـة الرحلـة مع أسرة محمد علي هـذه التي ستنقلب أداة طيعة بيـد الأطماع الخارجية في مصر وخيراتها .

عمل محمد علي ، منذ تسلمه زمام الأمور في مصر، على تحقيق هدفين اثنين :

الأول : أن ينفرد بمقـاليد الحل والـربط في مصر ، ويكون الحاكم المطلـق فيها ، ملغيا بالتالي فكرة الشورى والتعاون مع الزعماء الوطنيين الذين لم يلبث ان صفاهم أو

أبعدهم عن طريقه. وفي نطاق هذه التوجه قام بتصفية المماليك المطالبين بالسلطة تصفية دموية فيما عرف بـ (مذبحة القلعة).

الثاني: أن يبني جيشا قويا ضاربا في المنطقة يكون أداة طيعة جدا في يده لدعم سلطته من جهة، وتحقيق مشروعاته الطموحة في بناء دولة عربية قوية في المنطقة. ولم يكن ممكنا أن يتم بناء مثل هذا الجيش القوي إلا إذا كان يقوم على أسس حديثة وعلمية تساير تطور العصر وطبيعته، ولذلك اهتم بالتسليح الحديث للقوات، وتأسيس كليات عسكرية تخرج جيشا عارفا أصول الحرب والقتال وفنونها، إلى جانب بناء مصانع للسلاح والذخيرة، وإنشاء دار صناعة (ترسانة) للسفن الحربية في البحر لتكوين أسطول بحري قوي في البحر الأبيض والبحر الأحمر معا. وكانت مدارس الجيش تشتمل على مختلف الاختصاصات العلمية والتطبيقية. وقد استعان محمد علي في كل ذلك بإرسال بعثات دراسية إلى عدد من البلدان الأوربية الغربية، ولاسيما إيطاليا في بداية الأمر ثم فرنسا منذ سنة ١٨٢٥ بنصيحة من رئيس الجراحين في الجيش، وهو الطبيب الفرنسي كلوت بك[1] Clot Bey، فكانت أول بعثة توجهت إلى فرنسا تلك التي ضمت بين أفرادها الشيخ رفاعة الطهطاوي، صاحب الكتاب الشهير: (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الذي وصف فيه جميع مظاهر الحياة الفرنسية في باريس خلال فترة بعثته هناك من أجل تدريب الجيش وتعليمه، بما في ذلك حركة الاستعراب التي رآها ورأى القائمين عليها وكانت له مع بعض أعلامها أحاديث وصداقات.

ولعل محمد علي في طموحه وتطلعاته التي ذكرناها آنفا كان مقلدا ذكيا وسريعا لنموذجين غربيين هما: التجربة الإمبراطورية النابليونية المخفقة في مصر والشام ثم التجربة نفسها ثانية ولكن على المسرح الأوربي. والتجربة البحرية الانكليزية التي أثبتت جدواها وفعاليتها من خلال حركة الاستعمار الواسعة التي كان نجاحها الأول يعزى إلى قوة الأسطول البحري البريطاني بالدرجة الأولى.

(١) انظر، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص ١٣.

وتم لمحمد علي بالفعل ما أراد من تأسيس أسطول بحري قوي وجيش بري ضارب، ومن توفير خبرات علمية وكفاءات إدارية جيدة في مختلف الشؤون، وظهر أثر ذلك عمليا في حروبه مع الوهابيين في منطقة الحجاز، وفي فتحة السودان وبلاد الشام، وفي تحديه الدولة العثمانية التي كان جنديا لها يوما ما، وفي إجبارها على مصالحته والإقرار له بولايته على مصر وتوريثها أبناءه من بعده.

وإذا عدنا إلى الآثار التي تركتها الحملة الفرنسية في نفوس المصريين وإلى الانطباعات التي طبعتها في عقولهم وعواطفهم، وجدنا ذلك في ميادين شتى: ففي الميدان العسكري أطلعت الحملة المصريين على أنواع حديثه من الأسلحة، وعلى أساليب حربية جديدة، وعلى تنظيمات وألبسة جديدة لم يكونوا يألفونها من قبل. وفي الميدان الاجتماعي نجد الحملة تصطحب معها أسر الضباط والجنود، وتحمل أزياء أهل فرنسا وعاداتهم وتقاليدهم، وتعد أنواعا من الأطعمة وألوانا من الحلويات، وضروبا من المشروبات التي لم يعهدها المصريون قبلهم، إلى غير ذلك من النواحي الاجتماعية العامة. وفي الميدان العلمي كانت الحملة تصطحب معها عددا من الاختصاصيين والعلماء في مختلف العلوم مع أدواتهم ومعداتهم ومختبراتهم وأجهزتهم المختلفة، وقد لفتت تجاربهم وأعمالهم فضول المصريين وأثارت في عقولهم تساؤلات كثيرة، وهم يستغربون مالم يعتادوا عليه: ومن ذلك مثلا ماسجله المؤرخ المصري المعاصر للحملة، عبدالرحمن الجبرتي، عن دهشته من بعض التجارب الكيميائية في بعض المختبرات الفرنسية، إذ يقول: «ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من زجاجات موضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئا في كأس، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى، فعلا الماءان، وصعد منه دخان ملون حتى انقطع، وجف مافي الكأس وصار حجرا أصفر، فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه. ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمدت حجرا أزرق، وبأخرى فجمدت حجرا أحمر ياقوتيا. وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له

صوت هائل . . انزعجنا منه، فضحكوا منا»[١].

وكان بصحبة الحملة عدد من علماء الآثار والتاريخ والجغرافيا، وقد عملوا جميعا على دراسة موقع مصر ومناخها وبيئتها ومواردها وآثارها الشاخصة وحياتها العامة في شتى الميادين، وصنفوا من المادة التي جمعوها والملاحظات التي دونوها والنتائج التي توصلوا إليها كتابهم الشهير (وصف مصر) Description de L'Égypte، وكانت نتائج الحملة عظيمة في ميدان علم الآثار، وخاصة ما كان من فك رموز الكتابة المصرية القديمة المعروفة بـ (الهيروغليفية) التي كانت مدونة على حجر رشيد الذي حمل مع العائدين إلى فرنسا، والذي فك رموزه عالم الآثار الفرنسي شامبليون[٢] Champollion.

وكان الفرنسيون قد حملوا معهم إلى مصر مطبعة تطبع النشرات والبلاغات والتعليمات والأوامر والبيانات، باللغات الفرنسية والعربية والتركية، بحسب الحاجة. كما أسس نابليون مؤسسة علمية في القاهرة لا تزال إلى اليوم وهي تؤدي خدمات هامة في ميدان الاستعراب ودراساته، أطلق عليها اسم (معهد مصر) In-stitut d'Égypte.

وكان المستشرقون والمستعربون الفرنسيون المرافقون للحملة بصفة مترجمين وباحثين قد اكتشفوا لأول مرة وجود اللهجة العامية المصرية لغة للتفاهم بين السكان، إلى جانب الفصحى التي كانت تستعمل أحيانا في أوساط المثقفين والمتفقهين، فأدهشهم وجود هذين المستويين للغة العربية في هذا القطر، إلا أنهم اكتشفوا الظاهرة نفسها فيما بعد إبان مشاركتهم في الحملة الفرنسية على الجزائر، إذ وجدوا لهجة عامية بين أوساط الشعب تختلف عن اللهجة العامية المصرية،

---

(١) انظر كتابه : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٤/ ٣٥١.

(٢) هو جان ـ فرنسوا شامبليون، وقد عاش بين سنتي ١٧٩٠ و١٨٣٢، وكان عالم مصريات، وقد أوصله شغفه باللغة القبطية إلى فك رموز الكتابة الهيروغليفية واكتشاف الكتابة الهيراطيقية، وقد درس حجر رشيد وإحدى المسلات المصرية مع النص الأغريقي المطابق للنص الهيروغليفي على قاعدة تلك المسلة، وعرض نتائجه على أكاديمية النقوش والآداب في رسالة إلى السيد داسييه Dacier تتعلق بأبجدية الأصوات الهيروغليفية.

فـاكتشفوا اختـلاف اللهجـة العـربية العـاميـة من قطـر عربي الى آخـر، الى جـانب اكتشافهم الأول للازدواجية بين الفحصى والعامية في هذه الأقطار[١]. وقد دفعهم ذلك الى الاهتمام بتعليم اللهجات العامية المشرقية والمغربية في مدرسة اللغات الشرقية الحيـة ببـاريس بعـد عـودتهم، لما في ذلـك من فـائدة عمليـة لهم في مجال الاتصـال والتعامل وغير ذلك من الفوائد.

ولاشك في أن بدايات النهضة العربية الحديثة قد انطلقت من هذه الفترة في جميع ميادين الحياة الاجتماعيـة والعقلية والعلمية والعسكرية، نظرا لأن محمـد علي باشا لم يقطع حبل التـواصل مع الغـرب الأوربي بعـد جـلاء الفـرنسيين عن مصر، بل وسع نطاق هـذا التواصل وعزز التعاون معـه من أجل بناء الجيش القوي الذي كـان يعده أداة لتحقيق مايصبـو إليه من طموحـات في المنطقة العربية. إلا أن هـذا التواصل لم يستمر على نسـق واحد وثابـت وإنما كان يتعرض بسبـب العوامل المتحكمـة فيه إلى فترات نشاط وقوة وإلى فترات فتور وضعف.

وكان إنشاء الصحف وتـوطيد حركة الطباعـة والإقبال على نشر التراث المخطوط والعناية بدرسـه، بالإضافة إلى نشر الكتب التي ترجمها المبعـوثون العائدون للمدارس التي افتتحها محمد علي في مصر، من أبرز العوامل الفاعلة في هذه النهضة. وقد أدت الترجمة على وجه الخصوص دورا عظيما في تفتح الوعي على آخـر ما توصل إليه الغرب الأوربي من تطور في شتى الميـادين، فكانت الجسر الذي تعبر عليـه العلوم والآداب وعموم الأفكـار والمؤثرات إلى المجتمع العربي الناهض. ويحدثنـا بعض البـاحثين عن السيـاسة التي اتبعهـا محمـد علي في مجال الترجمة مع الموفدين العـائدين إلى مصر من الدول الغـربية التي تخرجـوا فيها فيقول: «وضعـوا في القلعة، وسلم كل منهم كتـابا بالفرنسيـة ليترجمه في مادة تخصصه، على ألا يبرح القلعة إلا بعـد أن يتم ترجمته. ولما ترجمت الكتب دفع بها إلى المطبعة الأميرية [٢] ببولاق، ثم وزعت على المدارس..

(١) أنظر: Colin (G.S.), L'arabe vulgaire, in: 150e de l'École des Langues Orientales, Paris, 1948, p. 106.

(٢) وقد أنشئت هذه المطبعة على غرار المطبعة الملكية في باريس.

وقد رؤي إنشاء مدرسة الألسن[١] ، بناء على اقتراح من رفاعة الطهطاوي، لتدرس فيها اللغات الفرنسية والتركية والإيطالية والإنكليزية»[٢] ولا نظن محمد علي كان مخطئا في اتباع هذه السياسة مع المبعوثين الذين تلقوا العلم، كل في اختصاص ما، من ينابيعه في دول الغرب الأوربي، بل كان سياسيا حكيما ومحنكا في هذه السياسة القسرية للترجمة لأنه كان مدركا أبعادها الاستراتيجية في تحديث المجتمع وتطوير نهضته من سباته العميق والإسهام في تقدمه وتفتحه على أسس نيرة راسخة. ولو اتبعت هذه السياسة في مختلف الأقطار العربية اليوم، مع المبعوثين العائدين من جامعات العالم ومعاهد في شتى الاختصاصات، لاتت أكلها على أحسن وجه[٣] ولعل التجربة اليابانية في هذا المجال برهان ساطع لا يقبل الجدل على أهميتها ونجاحها، علما أن هذه التجربة قد تكون بشكل أو بآخر مستمدة من التجربة المصرية نفسها التي لم يقيض لها الاستمرار طويلا في هذا النهج السديد.

وكانت المطبعة الأميرية ببولاق، خلال هذه الفترة وماتلاها، من أهم المطابع ودور النشر، وقد أسهمت في نشر كثير من أمهات كتب التراث المخطوطة، وخصوصا تلك الكتب التي كانت مقررة على طلبة العلم في الأزهر، مما يتناول اللغة والأدب والفقه والسير والتفسير والبلاغة والحديث، وكلها كتب أساسية في ثقافتنا العربية القديمة التي لابد من الاستناد إليها في انطلاقتنا الجديدة نحو ثقافة عربية معاصرة.

وكان المستعربون الغربيون في أوربا قد نشروا أمهات الكتب العربية من التراث القديم محققة تحقيقا علميا دقيقا، وكانت هذه الكتب المطبوعة تشتري من أوربا

---

(١) وقد تم إنشاؤها على غرار (مدرسة اللغات الشرقية الحية) في باريس، وهي المدرسة التي تعلم لغات الشرق المختلفة، وقد تحدث عنها الطهطاوي وعن أساتذتها في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) بإعجاب كبير.

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي المعاصر للدكتور إبراهيم أبو الخشب، ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) إذ من الملحوظ عموما أن الغالبية المطلقة من الموفدين العائدين من البلدان الأجنبية شرقا وغربا، لايترجمون طوال حياتهم العلمية، في الجامعة، أي كتاب جاد ذي أهمية جوهرية في اختصاصاتهم بل إنهم يتقاعسون حتى عن ترجمة اطروحاتهم العلمية الأكاديمية التي نالوا بها الدرجات العلمية التي يحملون ألقابها.

وتدخل إلى مصر والشام على أيدي العلماء والمثقفين في فترة النهضة الأولى وما تلاها، فكان عمل المستعربين هذا، في إحياء التراث ودفعه إلى النور، دعما كبيرا لنهضتنا الفكرية عموما، وهذا فضل يسجل لهم، وإن لم يكن القصد منه أساسا إفادتنا نحن العرب، إذ «لم يكن علماء المشرقيات أو جمعياتهم ومجامعهم يقصدون خدمتنا بل خدمة العلم والأفكار التي يريدون بثها، ليتخذ بعضهم من كتب أسلافنا مادة تنفعهم في موضوع قد يرون غير رأينا فيه أو غير ذلك من المقاصد. ولكن مهما كانت النيات فقد استفاد العرب والعربية من هذه الهمة التي انبعثت من ديار الغرب»[1].

٨ ـ أغراض الاستعراب الفرنسي :

كانت الصلات بين الشرق العربي والغرب الأوربي تتخذ أشكالا شتى بحسب الظروف السائدة في كلا الطرفين، عبر الفترات التاريخية المختلفة، وأهم مايمكن ذكره من أشكال هذه الاتصال :

١ ـ الشكل الصدامي الحربي الذي يَتَلَبَّس أثوابا دينية تارة واقتصادية تارة أخرى، ويتمثل هذا الشكل في التوسع اليوناني ثم الروماني، وفي الفتوح العربية الإسلامية، وفي الحروب الصليبية طويلة الأمد، ثم في حركة الاستعمار وردود الفعل القومية والوطنية عليها، ثم في قيام الكيان الصهيوني الاستيطاني بدعم عام من الغرب على حساب الحقوق الشرعية والطبيعية للعرب في فلسطين عبر التاريخ.

٢ ـ الشكل التجاري، وهو دائم متصل في مختلف الأدوار التاريخية.

٣ ـ الشكل السياسي المتمثل في السفارات المتبادلة قديما وحديثا بين دول الشرق ودول الغرب.

٤ ـ الشكل العلمي الثقافي المتمثل في حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية في القديم، ثم في الترجمة من العربية إلى اللاتينية أولا، ثم إلى سائر اللغات القومية في أوربا بعد ذلك، ثم أخيرا في الترجمة من اللغات الغربية الحية اليوم إلى العربية أو من

---

(١) انظر مقالة : أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في مجلة المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية اليوم) بدمشق، مج ٧، ١٩٢٧، ص ٤٤٠.

اللغة العربية اليوم إليها. كما يظهر لنا هذا الشكل من الاتصال في حركة انتقال المخطوطات العربية في العصور المختلفة التي تلت تنبه الغرب على أهمية العرب وحضارتهم وتأثيرهم فيهم حاضرا ومستقبلا، كما كان لهم من تأثير في القديم. ويظهر أيضا في حركة انتقال الكتب المطبوعة اليوم بين الطرفين. . ولهذا الاحتكاك الثقافي أهمية بالغة في نقل التأثيرات وتعميقها. ولا يغيب عنا إدخال البعثات الدراسية الموفدة إلى الغرب أو البعثات التي كان الغرب يرسلها إلى البلدان العربية في نطاق هذا الشكل من الاتصال العلمي والثقافي الفعال.

ولعلي أجد، بعد كل هذا مسوغا للقول إن الصلات لم تقتصر على شكل واحد من هذه الأشكال في فترة تاريخية واحدة، بل كانت هذه الأشكال جميعا تمتزج امتزاجا كليا، وتتعاون في تشكيل نسيج متداخل من العلاقات بين الشرق العربي والغرب الأوربي على وجه العموم.

وإذا قصرنا الحديث هنا على الصلات التي قامت بين العرب والفرنسيين منذ دخول العرب إلى الأندلس ومحاولتهم من ثم فتح فرنسا التي كانت تعرف آنذاك ببلاد (الغال)، ثم تلك الصلات التي قامت بين العرب وفرنسا الصليبية، ثم فرنسا عصر النهضة، ثم فرنسا الثورة، ثم فرنسا الاستعمارية، ثم فرنسا المعاصرة، فإننا نجد هذه الصلات داخلة تحت شكل من هذه الأشكال المذكورة آنفا أو تحتها جميعا.

في الميدان الحربي قام العرب بغزو فرنسا (بلاد الغال)، وتوغلوا فيها توغلا كبيرا، ثم توقفوا، وانحسروا إلى ماوراء جبال البيرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا اليوم، إذ تصدى شارل مارتل[1] Charles Martel بالجيوش التي تمكن من حشدها في وقعة بواتييه، التي سماها العرب بلاط الشهداء، سنة ١١٤هـ، بقيادة عبدالرحمن

---

(١) شارل مارتل: أمير فرنجي، عاش بين سنتي ٦٨٥ و٧٤١م، وهو ابن بيبان ديرستال Pépin D'Herstal، وقد أصبح سيدا لأوسترازيا A ustrasie ونوستريا Neustrie، وقام بحملات واسعة على جرمانيا وفريزا Frisa للغزو والتبشير، وهو الذي أوقف في بواتييه Poitiers، سنة ٧٣٢م، حركة الفتح الإسلامي، وضمن لنفسه تبعية مقاطعات أكيتين Aquitaine وبورغونيا Pépin Le Bref والبروفانس La Provence، ونظم قبل موته أمر خلافته بين ابنيه كارلومان Car-loman وبيبان القصير Pépin le Bref

الغافقي الذي استشهد يومها في تلك الوقعة. وكانت بعدها مناوشات خفيفة دائمة بين العرب والغاليين، إلى أن نشبت الحروب الصليبية التي كان لفرنسا ضلع كبير في إشعال فتيلها والدعوة إليها وقيادتها وتجهيز جيوشها بالمال والعتاد والسلاح. ثم تلاشت هذه الحروب، إلى أن تجدد الاتصال الحربي الفرنسي بعد الثورة بالعرب في حملة نابليون على مصر مع أفول شمس القرن الثامن عشر وبزوغ شمس القرن التاسع عشر. ثم استفحل هذا الاتصال الحربي بالتوسع الاستعماري الفرنسي في البلدان العربية الذي امتد من احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ إلى نيل هذا القطر العربي استقلاله التام عن فرنسا سنة ١٩٦٢.

وفي الميدان التجاري، نجد الصلات متينة إجمالا وعلى امتداد العصور بعد الفتوح العربية الإسلامية بين فرنسا والبلدان العربية.

وفي الميدان السياسي، حدث اتصال بين فرنسا والمنطقة العربية تمثل في انتشار القنصليات والسفارات، ولايزال مثل هذا الاتصال قائما إلى يومنا هذا.

وفي الميدان العلمي الثقافي، حدث اتصال مبكر بين فرنسا والأندلس، إبان حكم العرب لها وازدهار حضارتهم فيها، ثم ازداد هذا الاتصال بعد تفكك أوصال دولة الخلافة فيها إلى دويلات الطوائف والإمارات الصغيرة ذات الصبغة الاقطاعية، إذ تراجعت هذه الدويلات واضمحلت شيئا فشيئا تحت ضربات الأسبان المدعمين من قبل فرنسا ضمن إطار الحروب الصليبية في المشرق العربي وامتدادا لها. ولما سقطت طليطلة بيد الملك الفونس السادس، سنة ١٠٨٥ م، أصبحت كنوز الحضارة العربية، المتمثلة بالمكتبات الضخمة المتخمة بالمخطوطات العربية، في متناول الغزاة، وسرعان ما تشكلت لجان لترجمة هذه الكنوز ونقلها إلى اللغة اللاتينية، فكان لذلك مركز منظم على شكل معهد، وكان القيِّم على تنظيم العمل فيه ريمون، مطران المدينة الذي كان من أصل فرنسي، مما جعل طليطلة في غضون بضعة عقود من الزمان كعبة طلاب العلم والمعرفة من كل أنحاء أوربا، ومن فرنسا على وجه الخصوص. وكانت فرنسا تفيد مما كان أبناؤها يقومون به من أعمال ترجمة

عن العـربية إلى الـلاتينيـة . كما كـانت تفيد أيضـا من الأعمال التي كـان جيرانها من الإيطاليين والألمان والإسبان والإنكليز يترجمونها عن العربية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد إلى اللغة اللاتينية، قبل أن يفطنوا إلى ضرورة ترجمتها إلى لغاتهم القومية الحية التي يفهمها عامة الناس يومذاك .

وكانت الفترة التي تلت انحسار الحروب الصليبية عن المنطقة العربية ثم شهدت ضربات المغـول المفجعة وقيـام دولة المماليـك ، بدايـة عصر الركـود العقلي والسبات الفكري والخمـود الاقتصادي عـامة ، وراحت المجتمعـات العربية تنغلـق عن العالم الخارجي المحيط بها ، وتفشت الأمية في جماهير النـاس ، وعم ظلام الجهل والتخلف من الآفاق . ورافق كل هذا الهبوط خروج العرب نهائيا من الأندلس سنة ١٤٩٢ ، ثم تعرضت المنطقة العربية في نهايـة المطاف لغزو العثمانيين الذين لم يكن همهم غير جمع الضرائب وبناء الجيش الانكشـاري وتدعيم سلطانهم في الآستانـة ، من غير نظر إلى مصالح الرعيـة الحقيقية وحقها في التقدم والازدهـار والتفتح العقلي المستمر. وهكذا حافظ العثمانيـون ، ومن حيث يشعرون أو لا يشعـرون ، على حالة الـركود والتخلف والتقـوقع على الذات واجترار ألـوان من الثقـافات والأفكـار والعقائد السقيمـة التي ترعرعت في ظلام الجهل والأمية وضيف الأفق . ونحن نـرى إن الدولة العثمانية كانت تفتقر إلى النظرة الاستراتيجية للأمور في إدارتها الـولايات العربية الخاضعة لسلطانها ، مما جعل منها دولـة قـوة وحرب في المقـام الأول لا دولـة حضارة وعقل . ولهذا كـان نظامها عاجـزا عن تطوير الحياة العامة في الدولة والمجتمع لتـلائم التطور الذي كان يجرى في أوربـا بسرعة مـذهلة على الطـرف المقـابل من البحر المتـوسط ، بسبب روح النهضـة التي دبت في أوصـال أوربا تلك ، ونتيجـة الإقبـال على العلوم والكشـوف واعتماد العقل حكما على الأمور ، هذا بدوره أدى إلى الكشوف الجغرافية والعلمية وإلى جملـة المخترعات الآليـة . وأسهم حب المغـامرة والتحـرر من كل سيطـرة ، والميل إلى الفردية والتمـرد والاستقلال ، في دخول عالم جديـد من الحرية . وأدى تغير النظرة إلى الأشيـاء عند الأوربيين بـاحياء الآداب والفنـون القديمـة ، وتعلم الفلسفات ، وقيـام حـركـات الإصلاح الـديني ، وتطـور وسـائل الإنتـاج وتغير العلاقـة بين الطبقـات

الاجتماعية، إلى نشاط عظيم وواسع في المجتمعات الأوربية كان يحركها بقوة لتستيقظ وتنهض من سباتها العميق والطويل الذي كانت تغط فيه من قبل، لتفتح أعينها على نور الحياة. وفي المقابل كان كل شيء، على الطرف العربي، يدعو إلى الكسل والخمول والانغماس في الأوضاع العامة المتردية والانسجام معها من غير التفكير في تغييرها والخلاص منها.

وانقلبت بهذا موازين القوى رأسا على عقب، ففقدت المنطقة العربية، التي كانت تحتمي في بداية الأمر من الحركة الاستعمارية بقوة الدولة العثمانية الحاكمة، كل مقومات التواصل الحضاري، ولو في حده الأدنى، فكانت المواجهة بينها وبين الدول الاستعمارية العربية التي احتلتها بعد ضعف الدولة العثمانية المركزية ثم انحسارها عن المنطقة العربية، أمرا في غاية الصعوبة، نظرا لعدم توفر قوة ذاتية تعتمد عليها.

وبعد أن كانت أوربا قاطبة ترهب الدولة العثمانية، صرنا نسمع الحديث عما يسمى (المسألة الشرقية) التي تعني السياسة الأوربية العدوانية ضد الدولة العثمانية والولايات الخاضعة لها، لإضعافها واقتسام ممتلكاتها. واتبعت فرنسا، على وجه الإجمال، سياسة عدوانية مع هذه الدولة، بعد أن كانت تتبع في فترة من الفترات سياسة ودية حسنة معها، وأصبح مصطلح (الرجل المريض) في عالم السياسة الغربية علما على الدولة العثمانية في طورها الأخير طور الضعف والانحلال.

ولما كانت المصالح الفرنسية متزايدة في المنطقة العربية، فقد كان من المتوقع أن توجه فرنسا اهتمامها المعرفي لكشف أسرار الحضارة العربية الإسلامية التي استطاعت أن تنتشر وتثبت أقدامها في هذه الرقعة الجغرافية الواسعة المطلة على البحر المتوسط من الشرق والجنوب.

والمدخل المؤدي إلى عالم هذه الحضارة العربية هو بلا ريب اللغة العربية وكل ما كتب بها من آثار عبر التاريخ منذ ظهور الإسلام. ولذا اهتم الفرنسيون بتعليم بعض أبنائهم هذه اللغة، من أجل الاطلاع على مخطوطاتها وآثارها القديمة والحديثة المكتوبة بها، والمعروف أن الناس يلجؤون إلى تعليم أبنائهم لغة قوم من الأقوام لسبب

من ثلاثة: للافادة من ثقافتهم وعلومهم ومعارفهم وآدابهم وفنونهم على وجه العموم، أو للتسلط عليهم والاستفادة المادية منهم واستغلالهم، أو للتعاون معهم وإقامة علاقات متوازنة على قدم المساواة معهم. ولعل دوافع بعض الفرنسيين إلى تعلم العربية كانت عمليا مزيجا من هذه الأسباب جميعا.

كانت العربية تقف في المرتبة الثانية، بعد اللغة التركية، في عهد لويس الرابع عشر. وفي عهد الثورة الفرنسية، أسست مدرسة اللغات الشرقية، وكان على رأس هذه اللغات على الإطلاق اللغة العربية الفصحى والعامية من أجل خدمة المصالح التجارية والسياسية مع العرب والمنطقة العربية، وتلتها في هذه المدرسة من حيث الأهمية اللغة التركية، ثم اللغة الفارسية.

وكانت لنا، بالمقابل، اهتمامات باللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الأوربية في عصر النهضة العربية، لما لها من أهمية في نقل العلوم والثقافة إلى لغتنا. وكانت البعثات الموفدة إلى الغرب الأوربي، منذ عهد محمد علي، مؤشرا إلى حاجتنا الماسة إلى علوم الغرب ومعارفه المتقدمة، لتتفتح عقولنا وتزدهر مجتمعاتنا في مختلف الميادين، بعد طول سبات وتخلف.

وقد أطلق الغربيون على من يدرس اللغات الشرقية وحضاراتها وكل ما يمت إليها في الماضي والحاضر بصلة اسم (مستشرق)[١] Orientaliste، وأسموا حركتهم في هذا المجال (الاستشراق)[٢] Orientalisme. إلا أن هذا الاستشراق لم يكن مسرحه واحدا، ولم تكن لغته واحدة، لأنه كان يمتد من أقصى الشرق (اليابان، وكوريا، والصين، وفييتنام، والفيليبين، وأندونيسيا) إلى المغرب العربي وجميع أرجاء أفريقيا. ولذا فقد كانت في حركة الاستشراق هذه تخصصات باللغات أو الحضارات الكثيرة في هذا الشرق، وكان هنالك تسمية خاصة بكل حضارة أو لغة. وهكذا عُرف المختص بالدراسات العربية باسم (مستعرب)[٣] Arabisant.

---

(١) انظر هذا المصطلح في: .Larousse du XXe siècle
(٢) انظر هذا المصطلح في: .Ibid
(٣) انظر هذا المصطلح في: .Ibid

ومع ازدياد اتصالات الفرنسيين بالشعوب الشرقية في آسيا وأفريقيا، وحتى في أوربا الشرقية، أخذت دائرة الاهتمام اللغات الشرقية تتوسع، وكان الهدف من ذلك خدمة المصالح الفرنسية في مجال انتشار تلك اللغات.

وفيما يلي ثبت باللغات التي أدرجت في برامج التدريس في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، وهي إحدى المؤسسات التعليمية البارزة في هذا الميدان. ونلاحظ في هذا الثبت تاريخ إدخال كل لغة منها حتى سنة ١٩٤٧، ولابد لهذا التاريخ من أن يعطينا فكرة عن المصالح الكامنة وراء إدخالها[١]:

١ ـ العربية (١٧٩٥).

٢ ـ التركية(١٧٩٥).

٣ ـ الفارسية (١٧٩٥).

٤ ـ الأرمنية (١٨١٢).

٥ ـ اليونانية العامية أو الحديثة الحية (١٨١٩).

٦ ـ العربية العامية المشرقية (١٨٢١).

٧ ـ الهندستانية (١٨٣٠).

٨ ـ الصينية (١٨٤٣).

٩ ـ المالبزية (١٨٤٤).

١٠ ـ اليابانية (١٨٦٨)

١١ ـ الأنامية (الفييتنامية ١٨٦٩).

---

(١) انظر كتاب الذكرى المئة والخمسين لتلك المدرسة: Cent cinquantenaire de l'École des Langues Orientales, Paris 1948.

وكذلك مقالة ميراميل A. Mirambel

L'orientalisme d'hier et d'aujourd'hui, in: Revue de l'E.L.O., t.I,1964 p.8

١٢ ـ الروسية (١٨٧٦).

١٣ ـ الرومانية (١٨٨٨).

١٤ ـ السيامية (١٨٩٩).

١٥ ـ البربرية (١٩١٣).

١٦ ـ الصربوكرواتية (١٩٢٠).

١٧ ـ البولونية (١٩٢١).

١٨ ـ التشيكية (١٩٢١).

١٩ ـ اللغات السودانية (١٩٢١).

٢٠ ـ الأمهرية (١٩٢٦).

٢١ ـ الملغاشية (١٩٢٦).

٢٢ ـ الفنلندية ـ الأوغرية[١] finnois - ougrien (١٩٣١).

٢٣ ـ البلغارية (١٩٣٢).

٢٤ ـ الكمبودية (١٩٤٧).

وقد ازداد عدد هـذه اللغات زيادة كبيرة منذ سنـة ١٩٤٧ إلى اليوم تبلغ الضعف تقريبا، ويبلغ عدد سكان العالم الذين يتكلمون بهذه اللغات أكثر من نصف سكان الأرض، وليس هناك لغة هامة في العالم ألا وهي ممثلة في مدرسة اللغات الشرقية الحية هذه[٢].

---

(١) اسم يطلق على أسرة من اللغات مرتبطـة بالمجموعة الأورالية ـ الألطائيـة (نسبة إلى الطاي، وهي هضبـة جبليـة في آسيـا الـوسطى في الاتحاد السـوفييتي) التي تشمل الفنلـنـديـة، والمنغـاريـة، والأستونية ولغـات شتى في الأتحاد السوفييتي، والألطائية تطلق على مجموعـة من اللغات التركية والمغولية تكون أسرة لغات.

(٢) انظـــــــر: Mirambel (A), L'Ecole des Langues Orientales de Paris et Les études d'orientalisme, in Revue de L'ensignement suérieur, 1957, n2,p.116.

وهكذا نجد حركة الاستشراق في فرنسا مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالحها المنتشرة بين شعوب الشرق المختلفة وبلدانها. وقد ازداد اهتمام الفرنسيين باللغة العربية مع ازدياد اهتمامهم بالعلاقات والمصالح المتبادلة بينهم وبين البلدان العربية المختلفة على امتداد الوطن العربي الكبير.

ولم يقف الاهتمام بالعربية عند الفرنسيين وحدهم وإنما نجد اهتماما عالميا بها حتى كانت اللغة الخامسة المعترف بها دوليا بين لغات الأمم المتحدة، كما أن حرب ٦ تشرين الأول ١٩٧٣ مع إسرائيل لفتت انتباه العالم إلى وزن العرب الدولي وأظهرت أن ترتيبهم معا، إذا توحدت كلمتهم في إطار كإطار التضامن العربي، يمكن أن يكون في المرتبة السادسة بين القوى الكبرى في العالم، ولذا نشهد إقبالا شديدا على تعلم لغتنا بين دول الشرق والغرب على حد سواء وذلك لخدمة مصالحهم الثقافية والمادية في المنطقة العربية ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية المتميزة في العالم الحديث.



الفصل الثاني

المخطوطات العربية في فرنسا

«إننــا لنعجـب حين نــرى غــزارة التأليـف في الحضــارة الإســلاميــة، بحيـث إن عــدد الكتـب فــاق عــدد كتـب أيـــة حضــارة قـــديمــــة غيرهــــا»

آدم ميتز

لم يعـرف الشرق العـربي فن الطباعـة إلا في وقت متأخـر، اذ دخلت المطبعـة إلى الـدولة العثمانيـة في أواخر القـرن السـابع عشر للميلاد، ودخلت إلى مصر مع حملـة نابليون، ولم تـدخل إلى الشام إلا في أواسط القرن التاسع عشر وأواخـره. ولذا كانت الكتب المخطوطة والمنسوخة في دكاكين الـوراقين بأيدي النساخين هي وحدها وسيلة الناس إلى الثقافـة والعلم والقراءة، وهي الوعاء الذي كانت تسجل فيـه الأفكار منذ بداية حركة التدوين عند العرب بعد الإسلام، تلك الحركة التي بدأت عمليا بتدوين الوحي الإلهي، وظل الأمر كذلك إلى أن دخلت المطابع إلى البلاد العربية تباعا، على استحيـاء في مطلع الأمـر ثـم تـزايـدت وكثـرت إلى مـا نشــاهـده اليـوم على مختلف الصعد..

وبدخول فن الطباعة بآلاتها الحديثة والمتطـورة باستمرار، بدأ البـاحثون والناشرون بطبـاعـة الكتب المخطـوطـة على هــذه الآلات وبأعـداد كبيرة من النسخ وبسرعـة عظيمـة، وبأسعار أقل بكثير من أسعـار المخطوطـات، وبكتابـة أبقى من الكتابـة اليدوية وأسهل للعين عند القراءة وأيسر تناولا.

كما أن هذه المطابع أخذت تنشر ثمرات الجهود الجديدة في التأليـف والترجمة وغير ذلك. ولما كانـت المخطوطات بحـالتها الأوليـة مادة سـاذجة لا يمكن الإفـادة منها بيسر وسهـولة، فقـد اضطر النـاس إلى تحقيق نصوص هـذه المخطوطـات القديمـة والتثبت من صحتها مع شرحها وفهرستها قبل طبعهـا للإفادة من محتوياتها على خير وجـه ممكن، وهـذا كلـه أدى إلى انتشـار عادة القـراءة وبنـاء المكتبـات الخاصـة في البيوت.

وكان رجوع المستشرقين إلى هذه المخطوطات أمرا لازما من أجل فهم ما جاء فيها من معارف مختلفة تتعلق بحضارة العرب، ولذا كان عليهم أن يجمعوها من مختلف الأماكن والمواضع التي تتوفر فيها، وبشتى السبل التي تتاح لهم سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة. وفيما يلي حديث عن الجوانب الهامة التي تربط بين هذه المخطوطات والمستعربين الفرنسيين حصرا:

١ ـ بدايات الاهتمام بالمخطوطات العربية في فرنسا وأسبابه:

ارتكب الصليبيون خطأ كبيرا عندما سيروا جيوشهم إلى المشرق العربي لمحاربة العرب والإسلام فيه، وهم يجهلون كل شيء تقريبا عن الأخلاق الإسلامية، وقد عبر بعض الباحثين الغربيين عن ذلك بقوله: «قامت الشعوب بالحرب، ولكن ـ كما هو الأمر دائما ـ من غير البحث عن فهم لحياة الخصم الروحية والاجتماعية والمادية، وهكذا لم يكن لدى الغربيين عن الشرق غير صورة مبهمة جدا كانت غارقة غالبا في ضباب الجهل»(١)

وقد تلقن الفرنسيون هذا الدرس القاسي باشتراكهم مع الأوربيين الآخرين في هذه الحروب، وخلاصة هذا الدرس أن «الحملات المسيحية الأولى إلى الأرض المقدسة وإلى مصر جاءت من غير خطة مدروسة جيدا، ومن غير معرفة شيء عن أخلاق الشعوب التي ذهبوا لقتالها أو عن تسليحها»(٢)، و«قد برهنت النكبات المتوالية التي صبت فوق الصليبيين أنه لا يمكنهم الانتصار على هؤلاء المسلمين إلا إذا قلدوا تكتيكهم العلمي واستراتيجيتهم الماهرة»(٣)

وبعد أن كان المحاربون يعتقدون، تحت تأثير الخرافات والأساطير المنتشرة بينهم عن الشرق وأهله، أن أحدهم قادر أن يهزم منفردا فرقا أو جيوشا من المسلمين، ثبت لهم الواقع المر البعيد عن الدونكيشوتية الغبية(٤).

---

(١) انظر: Élisséeff (N.), Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits, Beyrouth, 1949, p.6.

(٢) انظر: Blochet (E.), Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris, 1901, p.160.

(٣) انظر: Op.cit., p.161

(٤) انظر: Ibid.

وقد ذكر المستشرق الفرنسي بلوشيه إقبال الغرب الأوربي على معرفة الشرق العربي معرفة واقعية من خلال السبل الحقيقية المؤدية إليها، بعد قرابة قرن من انتهاء الحروب الصليبية، فقال: «مما لا يقبل الجدل أن إندفاعة شديدة إلى الدراسات الشرقية قد تمت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وكانت شبيهة بالحركة التي جرت في نهاية القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر، على أثر اكتشاف كتب الهند وفارس الدينية، وعلى أثر نفض الغبار عن الحضارتين الكبيرتين للفراعنة وملوك بابل على وجه الخصوص..»[1] ويضيف إلى ذلك قوله عن تلك الاندفاعة المبكرة في الغرب إلى دراسة الشرق: «انطفأت تلك الحركة أو تحولت بعد القرن الرابع عشر، لأن العصر لم يكن يتعاطى العلم النظري الخالص، ولأن عصر النهضة الاغريقية ــ اللاتينية أبعدت دراسة الاستشراق إلى الدرجة الثانية من الاهتمام»[2]

وهكذا حاول الفرنسيون أن يتعرفوا أخلاق العرب والشرقيين وعاداتهم وتقاليدهم وماهم من معارف وثقافات، وكان المفتاح لمعرفة العرب وحضارتهم هو بالدرجة الأولى اللغة العربية التي يمكنهم بها أن يتعرفوا الآثار المكتوبة، ولهذا اتجه الغربيون عامة، والفرنسيون خاصة، إلى جمع أعداد من المخطوطات التي تتفاوت في قيمتها وموضوعاتها من فترة إلى أخرى، من المشرق العربي إلى أقصى المغرب العربي، ومن مختلف البلاد الإسلامية الأخرى التي تتوفر فيها مكتبات كبرى ومخطوطات عربية، وكانوا يرسلونها إلى بلدانهم دفعة إثر أخرى. وقد جند لهذا الغرض رهبان مبشرون، وتجار، وجواسيس، ودبلوماسيون، وسفراء في العالم العربي والإسلامي، ورحالة، وسواح، ومستعربون كلفوا خصيصا بهذا العمل.

وإن نحن ألقينا نظرة متفحصة على فهارس المخطوطات العربية التي أحصاها المستعرب الألماني المشهور كارل بروكلمان[3] C. Brockelmann، في مطلع الجزء الأول من كتابه الضخم الهام: (تاريخ الأدب العربي)، فإننا سنقف مدهوشين إزاء

(١) انظر: op.cit., p.162.

(٢) انظر: op.cit., p.163-164

(٣) كارل بروكلمان: من كبار المستعربين الألمان وأغزرهم إنتاجا وأوسعهم اطلاعا وعلما، عاش بين سنتي ١٨٦٨ و١٩٥٦.

اتساع دائرة انتشـار المخطوطـات العربية في الغـالبية العظمى من كبريـات المكتبات المعروفة في العالم المتحضر، بـالإضافة إلى غزارتها الملحوظة لـدى المتتبعين، ويدل هذا العدد الكبير من الفهارس في ثبت بـروكلمان ـ وقد أصبح اليوم قديما نوعـا ما بالنسبة إلى ما استجد من فهـارس لمكتبات أو لمخطوطات لم يدركهـا بروكلمان نفسه ولم يطلع عليها ـ على ضخامة التراث العربي المخطوط الذي يقف وراءها.

وفي فرنسا كـان الوزير الشهير كولبير يكلف بعض المعتمـدين في الشرق بالبحث عن المخطوطات العربية لتزويـد مكتبة الملك لويس الرابع عشر بها، فكانت تشتري من العـاصمـة العثمانيـة إستنبـول، التي كـانت مكتبـاتها العـامـة والخاصـة تعج بالمخطـوطات العربيـة المجلوبة إليهـا من الولايـات العربية المختلفـة، وكانت تجمع أيضـاً من بعض المدن العـربية الكبيرة. ومن ذلـك تلك البعثة التي أرسلهـا كـولبير بـرئاسة فـانسليبن Wansleben أو فـانسليب G.B.Vansleb إلى المشرق العــربي، فطافت في المدن الرئيسية في البلدان العربية مابين سنتي ١٦٧١ و١٦٧٥، ثم عادت إلى فرنسا حاملة معها ثروة طيبة من هذه المخطوطات العربية[١].

وقـام بتي دولا كـروا Petis de la Croix بجمع عـدد من المخطوطـات خلال رحلاته وجولاته في آسيا. وقام بمثل ذلك أيضا بول لوكا P. Lukas أثناء رحلاته إلى الشرق العربي. وقد أُرسِل، سنة ١٧٣٠، قسان فرنسيان، كل على حدة، إلى الشرق للبحث عن المخطوطـات والتحف، وهما: سفان Sevin وفورمـون Fourmont. وكان بعض هؤلاء الـرحالة والزائرين للشرق يعقدون علاقـات صداقة مع بعض أهل البلاد التي يمرون بها، أو يقيمـون فيها، فكانت هذه الصـداقات تعينهم على طلب بعض المخطوطات العربية والشرقية بعد عودتهم من هذه البلاد.

وكان كـولبير يزود أيضاً مكتبتـه الخاصة بـالمخطوطات العـربية، وربما خضعت عملية شراء المخطوطات من الشرق لأهواء المشرفين على مكتبة الملك ورغباتهم، فنرى

(١) انظـر افتتاحيـة زوتنبرغ H. Zotenberg لفهرس المخطوطات العربيـة في المكتبة الوطنية بباريس الذي كان قد وضعه المستعرب دوسلان من قبل.

مثلا على ذلك لتوليبيه Le Tellier، مطران ريمس Reims، والأمين العام لمكتبة الملك، الذي كان يكن مقتا شديدا للمخطوطات الشرقية، ولم يكن يحمل للآداب الشرقية عموما ذلك الاهتمام الذي كان عند سلفه في هذه الوظيفة، ولذا يشعر المرء في عهده بضعف الرغبة في اقتناء هذه المخطوطات الشرقية[1]

وكان غالان[2] Galland قد ذهب إلى الشرق، وأقام فيه، وتنقل في أرجاء المنطقة العربية حين كان مرافقا لدونوانتل de Nointel سفير فرنسا إلى الباب العالي سنة ١٦٨٠، ثم أرسله كل من الوزيرين كولبير ولوفوا Louvois إلى الشرق في مهمة محددة هي البحث عن المخطوطات الشرقية القيمة، ومنها العربية، بغية جمعها وشرائها لصالح مكتبة الملك أو لمكتبتيها الخاصتين بها، ففعل ذلك، وجمع لنفسه أيضا عددا من المخطوطات العربية، كان من أبرزها مخطوطات لقصص ألف ليلة وليلة التي قام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية لأول مرة تلك الترجمة الشهيرة التي كانت لها تأثيرات كبيرة في آداب الغرب وفنونه وأخلاقه العامة.

وكوّن ثيفنو Thévenot لنفسه مجموعة من المخطوطات العربية عن طريق الشراء سنة ١٧١٢. وحمل بنوا دومايبه B. de Maillet معه من الشرق عددا من المخطوطات سنة ١٧٣٨، حين كان يشغل وظيفة قنصل عام ووظيفة مفتش على المؤسسات الفرنسية في الشرق العربي.

وطرأ بعد قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ تطور جديد على جمع المخطوطات الشرقية والعربية وتنظيمها، ذلك لأن أول ما قامت به الثورة دمج مكتبات الأديرة، وجمع ما فيها من كنوز المخطوطات المختلفة في باريس. وحصلت فرنسا على مجموعة قيمة من المخطوطات العربية أثناء حملة نابليون على مصر.

---

(١) انظر Zotenberg (H.), op.cit., P.I. حيث يصرح غالان بهذا الاتجاه.

(٢) أنطوان غالان: أحد مشاهير المستعربين الفرنسيين، عاش بين سنتي ١٦٤٦ و١٧١٥، تعلم العربية في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس)، رافق سفير فرنسا في تركيا، وقام برحلة خاصة إلى الشرق العربي على نفقته، وكان أول من ترجم قصص (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية، لتذيع عن ترجمته تلك جملة من الترجمات إلى اللغات الغربية الرئيسية، فطارت شهرته لذلك في الآفاق.

ثم ازدادت حركة جلب المخطوطات العربية إلى فرنسا نشاطا في القرن التاسع عشر على أيدي العسكريين، كوزير الحربية الفرنسي الذي نقل مخطوطات عربية متنوعة من الجزائر سنة ١٨٣٢ بعد احتلالها. وعلى أيدي أطباء كالدكتور كلوت بك الذي كان يدرس الطب في المدارس التي أحدثها محمد علي باشا في مصر.

وفي سنة ١٨٣٣، حصلت فرنسا على قرابة ألف وخمسمائة مخطوط، كان أسلان دو شرفيل A. de Cherville المعتمد القنصلي بمصر قد جمعها.

وما بين سنتي ١٨٤٧ و١٨٥٧، شغل شارل شيفر Ch. Schefer عددا من الوظائف في العالم الإسلامي، إذ عين أولا في وظيفة مترجم أول في سفارة فرنسا باستنبول. وكان لذلك أهميته في تمكن هذا المستشرق، الذي يتقن العربية والتركية والفارسية، من جمع عدد كبير من المخطوطات بهذه اللغات الثلاث الرئيسية في منطقة الشرق الأوسط، ودخلت إلى المكتبة الوطنية بباريس بعد وفاته باسم (مجموعة شيفر)[١]. وفي هذه المجموعة يقول باربييه دو مينار B. de Meynard، رئيس الجمعية الآسيوية بباريس، إنها كانت ثمرة بحث متواصل بلا انقطاع طيلة ما يقرب من نصف قرن في مصر والشام و في الإمبراطورية العثمانية وفارس والهند الإسلامية[٢]. وقد عمل شيفر بعد عودته إلى باريس من الشرق مديرا لمدرسة اللغات الشرقية الحية.

٢ ـ ازدياد المخطوطات العربية مع ازدهار عملية الجمع:

يمكننا، من خلال حديثنا السابق، أن نضع علامات تاريخية فاصلة تميز مراحل الاهتمام الفرنسي بالمخطوطات العربية وبجمعها الذي أخذ يزداد باطراد الحاجة إلى الاتصال بالمنطقة التي تتكلم باللغة العربية، من أجل فهم حضارتها بالاطلاع على آثارها التي خلفتها عبر العصور المختلفة من تاريخها. وسنحاول فيما يلي إحصاء عدد

---

(١) انظر افتتاحية بلوشيه للفهرس الذي صنعه لهذه المجموعة: Catalogue de la collection de manuscrits orientaux arabes, persans et turcs, par Schefer.

(٢) من نص رسالة موجهة إلى مدير المكتبة الوطنية بباريس سنة ١٨٩٨ ورد في: op.cit., P.III.

المخطوطات العربية في فرنسا إبان كل مرحلة منها بحسب ما ورد في افتتاحية زوتنبرغ Zotenberg التي كتبها لفهرس دوسلان de Slane لهذه المخطوطات في المكتبة الوطنية بباريس:

المرحلة الأولى:

وتمتد من بداية القرن الثامن الميلادي، الذي شهد دخول العرب إلى الأندلس، إلى نهاية القرن الحادي عشر للميلاد: ولا نجد في هذه الفترة أي اهتمام جدي من الغرب الأوربي عموما، من الناحية الفكرية، بالشرق أو باللغة العربية.

المرحلة الثانية:

وتشمل القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين: وفيها كان الفرنسيون يفيدون من التراث العلمي العربي في ترجماته اللاتينية التي أنجزها علماء فرنسيون أو غربيون من مختلف بلدان أوربا الغربية والوسطى. وفي هذه الفترة تركز نشاط حركة الترجمة في مدينة طليطلة Tolide بأسبانيا، وفي بعض مدن إيطاليا. وهذا يعني أن المخطوطات العربية لم تكن تقرأ بعد من قبل الفرنسيين. وقد شهد هذان القرنان الحملات الصليبية على قلب العالم الإسلامي: مصر والشام. وكان لهذه الحملات أثر كبير في تعريف الغربيين على المنطقة العربية وحضارتها المزدهرة بالقياس على حالتهم الحضارية المتخلفة آنذاك.

المرحلة الثالثة:

وتمتد من بداية القرن الرابع عشر الميلادي إلى نهاية الربع الثالث من القرن السابع عشر: ونشهد خلال هذه الفترة تقدما ملحوظا في جمع المخطوطات العربية، فقد ذُكِر وجود ست مخطوطات عربية في مكتبة قصر بلوا Blois على نهر اللوار. وأما مكتبة قصر فونتينبلو Fontainebleux على نهر السين، فقد كانت تحتوي على أربعين مجلدا شرقيا من بينها بعض المجلدات العربية المخطوطة. وكانت مكتبة الملكة كاترين

دوميديتشي[1] Catherine de Médicis تحتوي، بحسب ما ذكر الجرد الذي أجري لها سنة ١٥٨٩، على خمس مخطوطات عربية فقط. ولم يزد هذا العدد من المخطوطات حتى سنة ١٦٦٨، بل إن قسما منه تعرض للتلف أو الضياع والفقدان. وصنع فهرس لمكتبة الملك، سنة ١٦٤٥، لم يذكر أكثر من تسع مخطوطات عربية.

وهكذا يتبين لنا أنه لم تكن في فرنسا، حتى نهاية النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، غير قرابة عشرين مخطوطة فقط. وهذا يدل دلالة قاطعة على عدم الاهتمام الجدي بالآثار العربية المخطوطة من قبل الفرنسيين. ونجد فوكيه Foucquet بعد ذلك بقليل يشتري عبر تجارة الكتب خمس مخطوطات عربية تضاف إلى العدد السابق ذكره.

المرحلة الرابعة:

وتمتد من بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي إلى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩: ومنذ هذه الفترة بدىء بتلقي مخطوطات مشتراة من بلدان المشرق العربي. إذ كان كولبير يرسل المبعوثين ـ كما رأينا ـ أو يكلف بعض المعتمدين في القنصليات الفرنسية في المشرق، وخصوصا في إستنبول والمنطقة العربية، لجمع المخطوطات العربية والشرقية، والمعروف أن هذا الوزير كان وراء مشروع إقامة مدرسة فتيات اللغات التي تعلم اللغات العربية والتركية والفارسية لعدد من الطلاب الفرنسيين، لأنه كان يخطط بذلك لخدمة مطامع بلاده التجارية والسياسية او الاستعمارية على وجه التحديد.

وقد تمكنت بعثة فانسليبن، المار ذكرها من قبل، من أن تجمع لمكتبة الملك قرابة

---

(١) كاترين دو ميديتشي: ملكة فرنسا، من أصل إيطالي، عاشت بين سنتي ١٥١٩ و١٥٨٩، تزوجت سنة ١٥٣٣ من ملك فرنسا المقبل هنري الثاني الذي حكم من سنة ١٥٤٧ إلى سنة ١٥٥٩، وأنجبت له عشرة أولاد، وقد أصبحت، بعد وفاة زوجها، وصية على العرش إلى إن تولى ابنها هنري الثالث السلطة سنة ١٥٧٤. وكانت قد أظهرت، خلال عهد وصايتها، أنها ذات مزايا سياسية عظيمة.

ستمئة وثلاثين مخطوطـة شرقية كان عدد العربية منهـا اربعمئة وثلاثين. وقد أحصي بطرس ديـاب (أوبيير ديبي P. Dipy كما عرف في فرنسا) في الجرد الـذي أجراه سنة ١٦٧٧ قرابة ثمانمئة وسبع وتسعين مخطوطة عربية.

وفي سنة ١٦٦٨ تم نقل مئة وأربع وتسعين مخطـوطة عربية من مكتبـة الكردينال مـازاران Mazarin[1] إلى مكتبة الملك، كما نقل إليهـا أيضا مئتـان وسبع وأربعون مخطوطة عربية أخرى من مكتبة جلبيرغولمن G. Gaulmin.

ثم تـوقفت عملية الحصـول على المخطوطـات منذ سنـة ١٦٨٢ إلى نهاية القـرن السـابع عشر، إذ لم تسجـل ـ خـلال هـذه الفترة ـ زيـادة هـامـة في عـدد هـذه المخطوطات.

وفي سنة ١٧٠٠، تم الحصـول على ثماني مخطوطـات تقريبـا، وأضافت مجمـوعة ثيفنو إلى هذا العـدد قرابة ست وتسعين مخطوطـة سنة ١٧١٢ ثم أضافت إليهـا تركة غالان سنـة ١٧١٥ قرابة خمس عشرة مخطوطـة أخرى. ثم زاد عدد المخطوطـات سنة ١٧١٩ قرابة ثماني مخطوطات من مكتبة فيليبير دولامار Ph. de La Marre. وكانت حصيلة رحلـة بول لـوكا إلى الشرق ثلاثـا وعشرين مخطوطـة. وحصل القس سفان، المبعوث إلى الشرق في سنتي ١٧٢٩ و١٧٣٠، على مئتي مخطوطة عربية من إستنبول، ثم تلقى بعد عودته إلى فرنسا عددا آخر منها كان معارفه في تركيا يرسلونهاإليه.

وحصلت مكتبة الملك سنـة ١٧٣٢ على تركة كـولبير من المخطوطات العـربية، وكان عددها مئة وثماني وثمانين مخطوطة. وحمل دومايية، القنصل الفرنسي في الشرق،

(١) الكـردينـال مازاران: رجـل دولة فـرنسي، عـاش بين سنتي ١٦٠٢ و١٦٦١، ينحـدر من أسرة صقلية متـواضعة، دخل في خـدمة فـرنسا سنـة ١٦٣٩ بعد حصـوله على الجنسيـة، وعين سنة ١٦٤٢ كردينـالا، وحل بعد قليل محل الكردينـال ريشليو Richelieu، ثم تـوفي الملك لـويس الثالث عشر بدوره سنة ١٦٤٣، فنصبته آن النمسوية Anne d'Autriche، التي أصبحت وصية على العرش وكانت تحبه، وزيرا أول عندها، فأثار ذلك حسد النخبة المهمة من الحاشية، إلا أنه قـام بمجمـوعـة من الأعمال في الـداخل والخارج أرسـى بها أسس عظمـة عصر لـويس الـرابع عشر.

قرابة أربع وأربعين مخطوطة عربية .

وأصبح العدد الاجمالي للمخطوطات العربية سنة ١٧٣٨ ، بحسب الفهرس الذي وضع لها ونشر في العام التالي ، ألفا وستمئة وثلاثا وثمانين مخطوطة .

ومن سنة ١٧٣٩ إلى سنة ١٧٨٩ ، أي طيلة نصف قرن من الزمان ، لم نلحظ غير زيادة طفيفة على العدد الاجمالي الآنف ذكره .

ولا يفوتنا ، هنا أن نذكر أنه منذ نهاية الحروب الصليبية في حدود سنة ١٢٩٠ حتى الثورة الفرنسية ، لم ينقطع اهتمام رجال الدين المسيحي في الأديرة عن جلب المخطوطات العربية لتحقيق غايات دينية أو علمية أو لغوية ما ، وسوف نرى أن كثيرا من الأديرة ، التي وضعت الثورة يدها على مكتباتها ، كانت تضم بين كتبها أعدادا من المخطوطات العربية ، التي ربما تعلق أكثرها بالشؤون الدينية المتعلقة بمسيحيي المشرق العربي ، إلا أن عدد هذه المخطوطات لم يحدد بدقة في المصادر التي عدنا إليها بشأنها . وهي على أي حال تزيد عدد المخطوطات العربية في مكتبات فرنسا عامة .

المرحلة الخامسة :

وتمتد من الثورة الفرنسية ١٧٨٩ إلى السنة التي بدأ فيها نشر فهرس دوسلان للمخطوطات العربية في المكتبة الوطنية La Bibliothéque Nationale بباريس ، أي إلى سنة ١٨٨٣ : وأول ما نلاحظ ، في مجال جمع المخطوطات العربية في فرنسا خلال هذه الفترة ، قيام حكومة الثورة بجمع كل ما تضمه أديرة فرنسا وكنائسها من هذه المخطوطات ، في إطار عملية واسعة النطاق لجمع المخطوطات عموما في تلك المكتبة الوطنية المركزية في فرنسا . وقد دمج الحاصل من هذا الجمع بما استولى عليه الثوار من مكتبات ملوك فرنسا ووزرائهم على اختلاف ثقافاتهم ومشاربهم ، وكانت هذه المكتبات تنمو منذ زمن بعيد وتزدهر بما يتوفر لها من إمكانات مادية وفيرة وقدرة على استجلاب المخطوطات من كل مكان . ولم يلبث اسم هذه المكتبة المركزية أن أصبح في زمن إمبراطورية نابليون (المكتبة الامبراطورية Impériale) ، ثم أصبح اسمها مع عودة الملكية (المكتبة الملكية Royale) ، إلى أن عاد اسمها الأول ، أي

المكتبة الوطنية، بعد قيام النظام الجمهوري (الجمهورية الثانية بين سنتي ١٨٤٨ و١٨٥٢، ثم الجمهورية الثالثة منذ سنة ١٨٧٠ التي قامت على أثر الحرب مع ألمانيا وعرفت بحرب السبعين، ولا تزال المكتبة تحمل هذه التسمية إلى يومنا هذا).

كان عدد المخطوطات التي جمعت من مكتبات الأديرة بفرنسا ثلاثمئة وخمسين مخطوطة، منها ثلاثمائة من مكتبة دير سان جرمان دي بري St-Germain des Prés وحدها، مما يؤكد لنا عدم دقة هذا الإحصاء على وجه العموم، إذ لا يعقل أن يشتمل دير واحد منها على هذا العدد الكبير في حين أن سائر الأديرة لا تحتوي على غير خمسين مخطوطة منها.

وأما نزول الحملة الفرنسية في مصر وامتدادها إلى بلاد الشام فقد كانت حصيلته أكثر من ثلاثمئة وعشرين مخطوطة كان معظمها عربيا، وقد جمعت بعناية فائقة من قبل علماء المشرقيات الذين كانوا يرافقون نابليون، ومنهم: بارادي دو فنتور Paradis de Ventoure الذي توفي هناك بعد فك الحصار عن عكا[1]، وآميدي جوبير Amédée Jaubert، ومارسيل Marcel.

وجاء احتلال الجزائر - منذ سنة ١٨٣٠ - ليدفع عجلة الدراسات العربية في فرنسا أشواطا بعيدة إلى الأمام، لأن الجزائر أصبحت مصدرا ثرا للحصول على المخطوطات العربية خاصة. ونجد وزير الحربية الفرنسية نفسه قد افتتح عمليات الحصول على هذه المخطوطات وإرسالها إلى بلاده سنة ١٨٣٢، فكانت الدفعة التي نقلها إلى المكتبة الوطنية (الملكية) بباريس تبلغ ثماني عشرة مخطوطة.

وكانت مجموعة دو شرفيل التي جمعت من مصر تشتمل على قرابة ألف وخمسمئة مخطوطة، ومعظمها مخطوطات عربية، وقد أرسلت إلى فرنسا سنة ١٨٣٣، وكان لهذه الدفعة الكبيرة أهميتها الخاصة في تنمية مقتنيات فرنسا من هذه المخطوطات، ودلالة هذا العدد الكبير منها هي أن الاهتمام بالدراسات العربية قد اتخذ اتجاها جادا

(١) وقد أشار اليه الجبرتي في يومياته: مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس، ١/ ١٧٣ باسم (منتورة) وذكر أنه كان ترجمان بونابرت ويعرف التركية والعربية.

وجديدا في فرنسا، ولعل أهم ما شجع على هذه النقلة الواسعة (معهد فرنسا) الذي أنشأه نابليون في القاهرة إبان الحملة، بالإضافة إلى العلاقات الحسنة التي قامت بين فرنسا ومحمد علي باشا في تلك الفترة التي أعقبت تمكن محمد علي من وضع يده على مقاليد الأمور في مصر بقوة.

وكان الطبيب الفرنسي كلوت بك قد نقل إلى فرنسا سنة ١٨٦٦ قرابة ثماني عشرة مخطوطة، وكان سنة ١٨٢٥ رئيسا لجراحي الجيش المصري ومدرسا في مدرسة الطب التي أنشأها محمد علي[١]. وأضاف أوجين بوجاد Eug. Boujade إلى ذلك سبع عشرة مخطوطة أخرى في سنة ١٨٦٧.

ولا تأتي سنة ١٨٨٣ حتى يبلغ عدد المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية وحدها، بحسب فهرس دوسلان الذي طبعه زوتنبرغ، قرابة ثلاثة آلاف مجلد وأربعة مجلدات، ويحتمل أن يكون كثير من هذه المجلدات قد احتوى كل منها على أكثر من مخطوطة في الوقت نفسه. يضاف إلى هذا العدد قرابة أربعمائة وتسع وأربعين مخطوطة جلبت إلى المكتبة الوطنية بعد توقف العمل في الفهرس المذكور آنفا وقبيل نشره.

ولم تكن المكتبة الوطنية الوحيدة التي تضم مخطوطات عربية في باريس أو فرنسا، إذ يمكننا أن نضيف إليها المكتبة التابعة للمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية على سبيل المثال. وكانت هذه المدرسة قد أنشئت أولا في نطاق المكتبة الوطنية بباريس سنة ١٧٩٥، ولكن التوسع الذي فرض عليها هناك بزيادة عدد اللغات من جهة، وعدد الطلاب من جهة أخرى، أدى إلى نقلها إلى مكان آخر في المدينة بعيد عن المكتبة الوطنية التي كانت محتوياتها من المخطوطات والمطبوعات موضوعة تحت تصرف أساتذة اللغات الشرقية وطلابهم في المدرسة، فدفع هذا البعد إلى إنشاء مكتبة خاصة بهذه المدرسة تضم كتبا مطبوعة ومخطوطة بمختلف اللغات الشرقية

---

(١) انظر: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص ١٣ ويروي أن الطبيب كلوت بك هذا هو الذي أقنع محمد علي بتحويل البعثات المصرية إلى فرنسا.

التي تـدرس فيهـا، ومن بينهـا اللغـة العـربيـة، وكـان الحصـول على هـذه الكتب المخطـوطة يتم إمـا بـالشراء أو بتلقي الهبات التي كـانت تقـدم لها من داخل فرنسـا وخارجها[١].

ونضيف إلى هـذه المكتبـة تلك المكتبـات الخاصة بكبـار المستعـربين وهـواة جمع الكتب والأديرة، فقد كـانت هذه المكتبات تغص أحيانا بالمخطـوطات، ومن جملتها المخطوطـات العربيـة. فالمستعربـون، مثلا، في القرن التـاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين كان بإمكانهم الحصول على ما شاؤوا من مخطوطات عربية من مختلف البقـاع وبأي وسيلة من أجل خـدمـة دراساتهم وبحـوثهم، أو للقيام بتحقيق هـذه المخطوطـات ونشرها، أو مـن أجل ترجمتهـا إلى اللغة الفرنسيـة. وكان بعـض هؤلاء المستعربين يوصي بمكتبته الخاصة التي جمعها طوال حيـاته إما لمكتبة مدرسة اللغات الشرقية، وإمـا للمكتبة الـوطنية. ونجـد مثالا على ذلك مـا فعلته زوجـة المستعرب هرتويـغ ديرنبورغ H. Derenbourg من تقديم مكتبة عمل زوجهـا، بعد وفاته، إلى مدرسـة اللغات الشرقية التي كـان أستاذا فيهـا إلى أن مات سنة ١٩٠٩، وكـان هذا التصرف بناء على وصية منه بذلك[٢].

ولنقرأ السطـور التالية التي نقتبسهـا من رسالة بعث بها دومينـار، رئيس الجمعية الأسيـوية ببـاريس في ٢١ تموز من سنة ١٨٩٨، بعـد وفاة شـارل شيفر بشهـور، إلى رئيس المكتبة الوطنية بباريس عن مجموعة مخطوطات شيفر:

«إذا كانت المصادفـة المأسوف لها قد خطفت منا قبل أربعين سنـة مجموعة ايتيين كاترمير Et. Quatremére الجميلة، لصالح المكتبة الملكية في ميونيخ، فإن لدينا ثقة تامـة اليوم في التحرر المستنير للبرلمان، ونحن نرجـو بشدة ألا يسمح بتبعثر مجمـوعة كوّنها عـالم فرنسي. . . لتذهب وتنمـي المكتبات الأجنبية أو رفـوف الهواة غير المبالين بالفوائد الحقيقية للعلم والفن. وبكم يتعلق الدفاع عن هذه القضية التي هي أيضا

---

(١) انظـر Carrière (A.) Notice historique sur l'École Spéciale des Langues Orientales Vivantes, in: Mélanges orientaux, Paris, 1883, P.XLV.

(٢) انظـــر: Meuvret (C.), La Bibliothèque, in: 150e de l'E.L.O., Paris, 1948, p.404.

قضية المكتبة الوطنية، أضعها بين يديكم مع يقيني أنكم ترغبون في دعمها بقوة لدى السيد وزير التعليم العام والفنون الجميلة»[1]

وقد وضع ورثة شيفر، بالفعل، مجمل المخطوطات الشرقية التي جمعها طيلة حياته تحت تصرف المكتبة الوطنية في سنة ١٨٩٩[2]. وكانت هذه المجموعة تحتوي على زهاء سبعمئة وواحد وتسعين مجلدا عربيا وتركيا وفارسيا، منها أربعمئة وست مخطوطات عربية تقع في مئتين وستة وسبعين مجلدا، وهي منتقاة انتقاء متقنا، والمعروف أن شيفر كان مدرسا للفارسية في المدرسة، ثم عمل مديرا لها من سنة ١٨٦٧ إلى سنة ١٨٩٨ التي توفي فيها.

ونضيف إلى ذلك المكتبة التي تمتلكها الجمعية الآسيوية، وهي تشتمل على كتب ومخطوطات عربية أيضا. وهناك مكتبة جامعة ستراسبورغ التي تحتوي على مخطوطات عربية كذلك. إضافة إلى احتمال وجود مخطوطات قليلة أو كثيرة في مكتبات الجامعات الفرنسية المختلفة أو في مكتبات خاصة بأساتذة هذه الجامعات أو في مؤسسات علمية لم يحصر بعد ما تملك من هذه المخطوطات العربية.

المرحلة السادسة:

وتمتد من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٧٥: وفيها أضافت فرنسا مجموعات جديدة من المخطوطات العربية، وخاصة بعد احتلالها تونس سنة ١٨٨٢ ثم مراكش (المملكة المغربية) سنة ١٩١٤، ثم سورية سنة ١٩٢٠.

ولا شك في أن النهضة العربية قدأظهرت للمثقفين ورجال العلم والمسؤولين في بلادنا تلك الأهمية التي تتمتع بها المخطوطات المتوفرة في مختلف المكتبات الخاصة والعامة في أقطارنا مدناً وقرى. وهذا الوعي لقيمة المخطوطات أدى إلى الدعوة إلى حفظها وعدم التفريط بها في بيع أو إهداء أو غيرهما من أساليب فقد المخطوطات

---

(١) انظر الافتتاحية التي كتبها بلوشيه للفهرس الذي صنعه لمجموعة شيفر هذه: Catalogue de la collection de manuscrits orientaux arabes, persans et turcs, par Schefer, p.IV-V.

(٢) انظر: op.cit., P.V.

وهدرها، وكان من أبرز هؤلاء الدعاة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي الذي كان يرى أن «من المصائب التي أصيبت بها الكتب أن بعض دول أوربا ومنها فرنسا وحكومات جرمانيا وبريطانيا العظمى وهولنده وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتبا تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين. وكان القوم، ولاسيما بعض من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع، بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل أن يفضلوا درهما على أنفس كتاب... حدثني الثقة أن أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم في دمشق ويختلف إلى متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة.. وبقي هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام.. رحل بها إلى بلاده، فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها»(١)

ولذا صارت مهمة الفرنسيين صعبة في الحصول على المخطوطات العربية من بلدان المشرق العربي، إذ أخذت دار الكتب الوطنية بمصر تحرص على ما لديها منها، وكذا صارت تفعل دار الكتب الظاهرية بدمشق التي قام إلى جانبها الغربي المجمع العلمي العربي سنة ١٩١٩، أيام الاستقلال الأول في ظل الحكم الفيصلي، وسلمت رئاسته لمنشئه الأول والساعي في تأسيسه الأستاذ الرئيس محمد كرد علي.

وقد أحسنت جامعة الدول العربية صنعا عندما قامت هيئاتها الثقافية بالاهتمام بفهرسة المخطوطات العربية في البلدان العربية، وبمحاولتها استرداد ما لدى الدول الأجنبية من هذه المخطوطات في مكتباتها، ولما كان من العسير جدا الحصول على أصولها المخطوطة نفسها في تلك الدول الأجنبية، الحريصة بدورها على مقتنياتها منها، لإعادتها إلى الوطن الأم، فقد اتجهت جامعة الدول العربية إلى الحصول على هذه المخطوطات ولكن بطريقة التصوير الوثائق (المكروفلم) لأهم ما تصل إليه أيدي الخبراء العرب في هذا الميدان من مخطوطات، بل إن هذه الطريقة امتدت إلى المكتبات.

---

(١) انظر كتابه: خطط الشام، ٦/ ١٩٨ ـ ١٩٩.

العربية نفسها لتجميع صور لمخطوطاتها تجميعا مركزيا في موضع واحد يوضع تحت تصرف الباحثين مباشرة وترسل منه نسخ لها لمن يرغب فيها من الباحثين العرب على مستوى الوطن العربي. وقد صنعت لهذه المخطوطات المصورة فهارس تساعد الباحث في الرجوع إليها عند الحاجة.

وهكذا حدث تحول في إمكانيات الحصول على المخطوطات العربية من قبل الدول الأجنبية، ومن بينها فرنسا، وصارت مؤسساتها العلمية والثقافية تعتاض عن الأصل المخطوط بالحصول على صور مكروفلمية لها، وتعمل الجهات المسؤولة في مكتباتها على طلب مقابل أو بديل لما يصور عندها من مخطوطات في بعض الأحيان من أجل إغناء مقتنياتها من المخطوطات العربية.

ونستطيع القول بهذا أن المخطوطات الأصلية لم تعد موضوعا للاقتناء المباشر والتداول والتبادل، لأنها صارت ملكا تاريخيا للمؤسسات الثقافية الوطنية التي لا تفرط بها، لما لها من قيمة فنية وأثرية إلى جانب قيمتها العلمية والادبية.

ومما يسهل العمل على الباحثين تطور وسائل النسخ والتصوير ودقتها الفنية في هذا المجال إلى حد إظهار أنعم التفاصيل وأصغرها إذا تم هذا التصوير بفلم ملون مثلا، وقد خففت هذه الحقيقة من الاندفاع وراء الحصول على المخطوطات الأصلية، وأسهم في هذا التخفيف أيضا أن عددا لا يستهان به منها قد رأى النور عن طريق النشر والتوزيع على أوسع نطاق ممكن.

ويزيد عدد المخطوطات العربية اليوم في المكتبات الفرنسية المختلفة، والتي جمعت عبر المراحل التاريخية المختلفة التي مر بنا عرضها، على سبعة آلاف مخطوطة يعود تاريخ نسخها إلى عصور تاريخية مختلفة، فمنها ما يعود إلى القرن العاشر الميلادي (أي الرابع الهجري)، ومنها ما يعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي (أي الثاني عشر الهجري) قبل انتشار الطباعة والمطابع في البلدان العربية على وجه العموم.

وقد اهتم فهرس دوسلان بذكر تاريخ نسخ كل مخطوطة، وتاريخ مولد مؤلفها

أو وفاتـه، ولهذا قيمته في تـوثيق المخطوطـة وبيان العصر الـذي ألفت فيـه أو الذي نسخت فيه.

٣ ـ موضوعات المخطوطات العربية في فرنسا :

إذا استثنينا المخطـوطات العربيـة التي تتناول بـالذكر الأنـاجيل وسير القديسين وتاريخ العقيدة والـلاهوت وغير ذلك من الشؤون الدينيـة المسيحية، وهي التي يبدأ دوسلان بإحصائها في فهرسه تحت رمز A، فإننا نجد دوسلان هذا يحصي في فهرسه هذا المخطـوطات العربيـة الإسلاميـة تحت رمز B. وهـذه هـي تقسيمات دوسـلان لموضوعات المخطوطات العربية تحت الرمز B، أذكرها كما وردت في مطلع الفهرس لما فيهـا من فائدة كبيرة في تبيـان موضـوعات واحـدة من أهم مجموعـات المخطوطـات العربية في المكتبة الوطنية بباريس خاصة وفي فرنسا عامة :

١ ـ القرآن .
٢ ـ تفاسير القرآن .
٣ ـ الأحاديث .
٤ ـ الفقه .
٥ ـ علم الكلام .
٦ ـ التاريخ .
٧ ـ السيرة .
٨ ـ علم الكون والجغرافيا .
٩ ـ الموسوعات .
١٠ ـ الفلسفة .
١١ ـ الأخلاق العامة .
١٢ ـ الإدارة .
١٣ ـ الرياضيات .
١٤ ـ الميكانيك .
١٥ ـ الموسيقى .

١٦ ـ الفلك .
١٧ ـ التقويم .
١٨ ـ النجوم .
١٩ ـ العلوم الخفية (السحر والكيمياء السحرية . .) .
٢٠ ـ التاريخ الطبيعي .
٢١ ـ الزراعة .
٢٢ ـ البيطرة وعلم الخيل .
٢٣ ـ الفروسية والطرد وفن الحرب .
٢٤ ـ الطب .
٢٥ ـ كتب في المجون والجنس .
٢٦ ـ الشعر :
أ) الدواوين والقصائد .
ب) المجموعات والمختارات .
٢٧ ـ القصص الخيالية :
أ) الحكايات والخرافات الحكمية والقصص المختلفة .
ب) القصص والروايات .
جـ) قصص الفروسية .
د) المقامات .
٢٨ ـ الأمثال والحكم .
٢٩ ـ فقه اللغة :
أ) بشكل عام .
ب) النحو .
جـ) المعاجم .
٣٠ ـ البلاغة .
٣١ ـ الانشاء .
٣٢ ـ العروض .

٣٣ ـ كتب المصادر (البيبليوغرافيا).

ولا شك في أن قراءة متأنيـة لهذا الجدول المذكور أعـلاه تبين لنا جملة الموضـوعات التي تـدور عليها المخطـوطات العربيـة في فرنسـا على وجه الإجمال، وهـي تصور في الـوقت نفسه تلك الاهتمامـات التي كانت تشغل بـال علماء الاستعراب والمسـؤولين السيـاسيين معـا خـلال المراحل التـاريخيـة المختلفـة التـي شهـدت جمع هــذه المخطوطات.

فـالمخطوطـات العـربية الإسـلاميـة ذات الطابـع الديني دليل على رغبـة العلماء والسياسيين في معرفة الإسلام الذي ظهر دينـا في جزيرة العرب، ثم حمل العرب لواءه بعد أن آمنـوا به وخرجـوا ينشرونه بالدعـوة شرقا وشمالا وغربـا، وعلى أساسه أقـاموا دولة قـوية واسعـة نشأت في ظلالها حضـارة إنسانية راقيـة امتدت آثـارها إلى العصر الحديث، وكـان لها دور في تغيير تاريخ العالم ورسـم خريطته، ودفعـت إلى النهضة الأوربية.

وكـانت الرغبـة في هـذه المعـرفة وراء البحث عن سر هـذه القـوة التي يتمتع بها الإسلام حتى اليوم. وكانت بوادر هذه المحاولـة لتعرف الإسلام وحضارته قد ظهرت مع الحروب الصليبية وحملاتها على الديار المقدسة خـاصة والشام ومصر عامة، وكان كثيرمن قادة الصليبيين ورعايـاهم يعرفون شيئا أو أشيـاء عن العرب والإسلام، ومن ذلك أن الصليبي الفـرنسي رينو دو شـاتيون Renaud de Chatillon سيـد الكـرك «كان يعـرف العربية وقواعـدها، وكان يقرأ كتب التـاريخ الإسلامي وكتب الحديث النبوي»(١)

وكان لسقوط القسطنطينية بيد العثمانيين المسلمين سنة ١٤٥٣ وتهديدهـم المباشر لأوربا من الشرق دور هام في التوجه إلى دراسـة الإسلام وفهمه. وزاد رغبة الفرنسيين في معرفـة الشرق العربي كـذلك استيلاء العثمانيين على البلـدان العربيـة في النصف

(١) انظـر Blochet (E.), Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris, 1901, p.157.

الأول من القرن السادس عشر الميلادي، وحاجة فرنسا الماسة إلى خدمة مصالحها التجارية عن طريق معرفة لغات الشرق الأوسط والأدنى الرئيسية، وهي: العربية والتركية والفارسية.

وأما المخطوطات ذات الموضوعات التاريخية فلعلها كانت تمثل رغبة الفرنسيين في معرفة تاريخ العرب كما كتبوه بأيديهم. والمعرفة التاريخية بلا شك ضرورة هامة لكل دراسة تتعلق بدين أو مذهب أو مجتمع أو أمة أو أدب، لأن التاريخ هو الذي يضع كل شيء في سياقه العام من التاريخ أو الزمان الذي حدث فيه. وبذا تعرف نسبة الظواهر والوقائع بعضها إلى بعض.

وتعد المعرفة الجغرافية متممة أيضا للمعرفة التاريخية، لأن الجغرافيا تدرس المجال الحيوي للأمة والبيئة الطبيعية التي شهدت تطورها فيها، كما أن الشخصيات التي صنعت أحداث التاريخ إنما كانت تتحرك ضمن ذلك المجال وتحيا في تلك البيئة، ولذا لم يفت الفرنسيين أن يهتموا بالكتب العربية المخطوطة ذات الموضوعات الجغرافية لما تقدم لهم في أثنائها من معلومات طيبة عن جغرافية البلدان العربية والعالم الإسلامي، أو حتى العالم القديم كما رآه ووصفه أو تصوره الجغرافيون العرب والمسلمون. أضف إلى ذلك أن هذه الكتب كانت تتناول أيضا كثيرا من الجوانب الاجتماعية التي لها صلة بالأخلاق والعادات والتقاليد والأزياء والأطعمة ولأشربة، كما تتناول بالوصف أحيانا بعض الآثار والأوابد القديمة أو بعض القضايا الدينية والتاريخية، وربما تطرقت كذلك إلى شيء من اللغات واللهجات. وهذا كله أدى إلى نشأة دراسات خاصة عند المستعربين الفرنسيين وغيرهم عرفت باسم (الأدب الجغرافي العربي).

وكانت المخطوطات العربية اللغوية التي دارت حول النحو والبلاغة والعروض والمعاجم تمثل رغبة الفرنسيين في معرفة الأداة الحضارية الأولى التي انسكبت فيها أو منها الأفكار في مختلف نواحي المعرفة الإنسانية، وأعني بها اللغة العربية، لأنها لسان الإسلام التي استعملها العرب والموالي (وهم المسلمون من غير العرب) في مؤلفاتهم

فكانت أداة التعبير عن آدابهم وعلومهم وفنونهم المختلفة.

وجاءت المخطوطات المتعلقة بموضوعات أدبية مختلفة، كالشعر ودواوينه ومجموعاته ومختاراته، أو النثر الفني كالقصص والمقامات والأمثال والحكم، تعبيرا عن رغبة هؤلاء الفرنسيين في معرفة روح الأمة التي تتمثل أكثر ما تتمثل في مطلق الأحوال في آثارها الأدبية شعرا ونثرا فنيا على حد سواء.

ووقعت المخطوطات المتعلقة بالفلسفة في دائرة اهتمام المستعربين الفرنسيين للإلمام بما لدى المسلمين من فلسفة خاصة بهم، أو للاطلاع على ما نقلوا إلى لغتهم من الفلسفة اليونانية القديمة عن طريق الترجمة مع ما أضافوا إليها من بنات أفكارهم على أيدي فلاسفتهم الذين تعمقوا في دراسة تلك الفلسفة. والهدف من وراء ذلك، كما هو ظاهر، رصد حركة الأفكار في المجتمعات الإسلامية. ومثل ذلك يقال في المخطوطات المتعلقة بعلم الكلام عند العرب.

ونرى المخطوطات العربية ذات الموضوعات العلمية والعقلية: كالرياضيات، والطب، والطبيعيات، والكيمياء، والفلك، والزراعة، والحيوان، والبيطرة، تحتل حيزا كبيرا بين المخطوطات عامة، وهذا يشكل دليلا على رغبة الفرنسيين في الاطلاع على الحياة العلمية والعقلية في إطار الحضارة العربية، وهي جانب مهم من جوانب تلك الحضارة، وللإفادة من محتوياتها قدر الإمكان كما كان أسلافهم من قبل يفعلون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد مع أخذ الفارق بين العصرين بعين التقدير.

يضاف إلى ذلك اهتمام الفرنسيين بموضوعات فنية واجتماعية أخرى تتمثل في المخطوطات ذات الموضوعات التالية: الموسيقى، وفن الحرب، والفروسية، والطرد، وما أشبه ذلك، لما فيها من فوائد عملية مباشرة، إلى جانب الفائدة النظرية.

وكان للمخطوطات المتعلقة بالإدارة وشؤونها أهمية خاصة في فهم شؤون الادارة في الدول العربية ومجتمعاتها، وفي الإفادة منها قليلا أو كثيرا في تطوير الإدارة الفرنسية ونظمها إن كان ذلك ملائما للعصر.

٤ ـ أنشطة المستعربين الفرنسيين وجهودهم حول المخطوطات العربية :

يمكننا أن نلخص جهود المستعربين التي بذلت حول المخطوطات العربية وخدماتها في الجوانب التالية :

١ ـ البحث عن هذه المخطوطات وجمعها ونقلها إلى فرنسا .
٢ ـ حفظ هذه المخطوطات .
٣ ـ وضع فهارس تنظم الإفادة منها .
٤ ـ تحقيق بعضها ونشره .
٥ ـ نشر اقتباسات من بعض هذه المخطوطات أو خلاصات لها بغية تعريفها .
٦ ـ ترجمة بعض هذه المخطوطات إلى الفرنسية .
٧ ـ نسخ بعض هذه المخطوطات أو تصويرها .

وقد مر بنا، فيما سلف، ما كان المستعربون يقومون به في مجال النقطة الأولى من هذه الأنشطة، كما يمكن أن نلمس اهتمامهم بتنفيذ النقطة الثانية وهي حفظ هذه المخطوطات وصونها من التلف بكل الوسائل المتاحة لهم من خلال إقبالهم على اقتنائها والحرص على عدم التفريط بها .

وكان المستعربون قد فطنوا إلى أهمية النقطة الثالثة، وهي فهرسة المخطوطات العربية في مكتباتهم الخاصة والعامة، للإفادة منها والرجوع إليها بأيسر كلفة، مع تعرف أوصافها من خلال نبذة قصيرة عن كل مخطوطة في مثل هذه الفهارس التي يضعونها لها . وكان أول فهرس للمخطوطات العربية في فرنسا هو ذاك الذي وضعه بطرس دياب الحلبي، سنة ١٦٦٧، لمكتبة الملك . ويروى أنه قام بوصف المخطوطات العربية التي كانت تحتوي عليها مكتبة الوزير كولبير، ويقال إنه لم يكن وحده في هذا العمل، وإنما شاركه في إنجازه آخرون، إلا أن هذا الفهرس لم يكن تاما .

وأنجز المستشرق دربلو d'Herbelot والقس رينودو Renaudot، سنة ١٦٩٠، ملخصات مجموعة ومنسقة كوّنت المجلد الأول من الفهرس العام لمخطوطات مكتبة

الملك، وكان موضوعها المخطوطات العربية في تلك المكتبة(١).

وقام باروت الشامي Barout، الذي كان مترجما في مكتبة الملك، سنة ١٧١٥، بجرد فهرس جديد للمكتبة يشمل المخطوطات العربية والتركية والفارسية، ولكنه لم يتمه.

ولما صار بالإمكان طبع الفهرس الذي يوضع للمخطوطات، شرع الماروني يوسف الأشقر، الذي كان يعرف بالـ Achcar والـ Ascary عند الفرنسيين، في وضع وصف للمخطوطات المجتلبة حديثا، وللمخطوطات العربية والسريانية السابقة، وذلك سنة ١٧٣٥. وتم نشر فهرس للمخطوطات الشرقية سنة ١٧٣٩ شمل فيما شمل عمل كل من دربلو والقس رينودو معا.

وصنع إلزيار دو سنكسيAlzéar de Sanxay، مبشر الأخوية الكبوشية، فهرسا لمخطوطات مكتبة سيغييه Séguier مستشار الملك لويس الثالث عشر ثم الرابع عشر.

وقام سلفستر دو ساسي S. de Sacy، بعد حريق مكتبة دير سان جرمان أثناء أعمال العنف الثوري سنة ١٧٩٤، بوضع جرد للمخطوطات الشرقية فيها ومن جملتها المخطوطات العربية.

وقد صنع فهرس لمجموعة دو شرفيل في القاهرة سنة ١٨٢٥، وعندما دخلت هذه المجموعة في المكتبة الوطنية صنع لها دو سلان فهرسا آخر.

ولما كثرت المخطوطات العربية، وحدث ما يشبه الارتباك في العودة إليها في المكتبة الوطنية، عمد المسؤولون فيها إلى وضع فهرس جديد شامل ومطبوع ليكون أداة عمل بين أيدي العلماء والباحثين من المستعربين أساتذة وطلابا على حد سواء. وكلف هؤلاء المسؤولون المستعرب الايطالي المعروف ميشيل أماري(٢) M. Amari

---

(١) انظر ما كتبه زوتنبرغ في افتتاحيته لفهرس المخطوطات العربية الذي وضعه دوسلان.

(٢) عاش بين سنتي ١٨٠٦ و١٨٨٩، وتعلم العربية على يد المستعرب الفرنسي رينو، وقد تقلب في عدد كبير من المناصب السياسية والأكاديمية في إيطاليا.

بوضع مثل هـذا الفهرس، فأخضع التراث العربي في المكتبة لمراجعـات دقيقة ووضع عددا كبيرا من الملخصات والنبذ خلال عدد من السنين، ولكن الموت لم يمهله حتى ينجز ما كان قد بدأ به، إذ اختطفه سنة ١٨٥٩، فتوقف العمل، إلى أن تابعه بالهمة نفسهـا المستعرب هـرتـويغ ديرنبـورغ سنـة ١٨٦٧، ولكنه تـوقف عن متـابعته سنـة ١٨٧٠، فقامت إدارة المكتبة الوطنية بتكليف المستعرب الفرنسي ماك غوكان دوسلان Mac Guckin de Slane، وهو من أصل إيـرلندي، بمهمـة متابعـة العمل في هذا الفهرس سنـة ١٨٧٢، فتمم العمل به بوضع الملخصـات التي تصف كل ما يتعلق بالمخطـوطة، وذلـك بإعطاء المعلـومات التـالية: قياس قطـع ورق المخطوطـة طولا وعرضـا بالسنتيمتر، وعدد الأسطـر في الصفحة الـواحدة وسطيا، وتـاريخ نسخها، واسم الناسخ إن كـانت منسوخة عن مخطـوطة سابقـة، واسـم المؤلف إن كانت تلك المخطوطـة مكتوبة بخطـه، مع تاريخ وفاته، وعـدد ورقات المخطوطـة، مع إثبات الأسطـر الأولى من هذه المخطـوطة وشيء من خـاتمتها، مع إعطـاء وصف مقتضب لمضمونها أو موضوعها، والإشارة إلى حالتهـا العامة إن كانت سليمة أو أصابها شيء من العطب أو الخرم أو النقص، إلى غير ذلك من المعلـومـات الـدقيقـة التي كـانت تتطلب صبرا ودقة ومنهجية فائقة في العمل. وكـانت حصيلة جهد دو سلان جاهزة للطبع حين تخطفه الموت أيضا سنة ١٨٧٨. وقـد أعطى هذا العمل الجديد المتكامل تسلسلا جديدا لأرقام المخطوطات التي كانت قد أعطيت لكل منها من قبل. وكان وصفه للمخطـوطات العـربية دقيقا مفيـدا كل الفائدة بحسب مـاذكرنـا. وظل هذا الفهرس الفريـد مخطوطا إلى أن كلف المستعرب زوتنبرغ بإخراجه للنـور مطبوعا لتعم فائدته، فتم نشره فعلا مابين سنتي ١٨٨٣ و١٨٩٥.

نلحظ من خـلال هـذا الاستعـراض المتسلسل زمنيـا أن الفهـارس والجرود التي وضعت للمخطوطات العربية كانت تزداد دقة وشمولا وكمالا مع تقدم الزمان وتطور البحث، ولم تقتصر الفهـرسة على مخطوطـات مكتبات ملـوك فرنسـا التي تحولت إلى المكتبة الـوطنية، وإنما كـانت تشمل أيضـا مكتبات خـاصة أو مكتبـات لمؤسسات علمية أخرى.

وقد نشر في فرنسا سنة ١٩٠٠ فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية التي تضمها مجموعة شيفر، وكان بلوشيه قد وضعه لها، ثم أدخلت هذه المجموعة في المكتبة الوطنية سنة ١٨٩٩ بعد وفاة صاحبها كما ذكرنا من قبل.

ووضع بلوشيه نفسه فهرسا آخر للمخطوطات العربية التي اقتنتها المكتبة الوطنية مابين سنتي ١٨٨٤ و١٩٢٤، أي خلال أربعين سنة، وقد شمل هذا الفهرس وصف زهاء ألفين وثمان وثمانين مخطوطة عربية، وتم نشره في باريس سنة ١٩٢٥، فجاء متمما لفهرس دوسلان المذكور آنفا، وهو مفيد جدا للباحثين.

ونشر غريفو R. Griveau، في مجلة (الشرق المسيحي) La revue de I'Orient Chrétien، ما بن سنتي ١٩٠٩ و١٩١٢، فهرسا للمخطوطات العربية المسيحية التي اقتنتها المكتبة الوطنية بعد وضع فهرس دوسلان.

وقام جورج فايدا G. Vajda بوضع فهرس للمخطوطات العربية التي أدرجت سهوا في المكتبة الوطنية بباريس بين المخطوطات التركية والفارسية والعبرية، فكان متمما كذلك لعمل دو سلان، ونشره سنة ١٩٥٣.

ووضع الأب أبانيس Abbanés، في مرسيليا، فهرسا عاما للمخطوطات الشرقية، ومنها العربية، وتم نشره في باريس سنة ١٨٩٢.

وصنع غوليوس أوتنغ G. Otting، سنة ١٨٧٧، فهرسا للمخطوطات العربية في جامعة ستراسبورغ.

وصنع لامبريشت Lambrecht، سنة ١٨٩٧، فهرسا للمخطوطات العربية في مكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية.

ووضع فايد أيضا فهرسا للمخطوطات العربية في المكتبة التابعة للجمعية الآسيوية بباريس، ونشره في مجلة هذه الجمعية المعروفة باسم (المجلة الآسيوية) le Journal Asiatique سنة ١٩٥٠.

ونلحظ فيما سلف أن عددا ممن قاموا بوضع فهارس للمخطوطات العربية في

المكتبات الفرنسية المختلفة لم يكونوا فرنسيين صلبية وإنما كانوا دخلاء على الجنسية الفرنسية، من مثل: الشاميين بطرس دياب وباروت الأشقر، والإيطالي أماري، والايرلندي دو سلان.

ولم يكن مجال الفهرسة محصورا، عند المستعربين الفرنسيين، على فهرسة المخطوطات العربية المتوفرة في المكتبات الفرنسية المختلفة التي رأيناها حتى الآن، وإنما امتد نشاطهم الفهرسي ليشمل وضع فهارس للمخطوطات العربية في مكتبات خارج فرنسا: سواء أكانت هذه المكتبات في بعض البلدان العربية أم بعض البلدان الأجنبية الأخرى.

ومن ذلك أن المستعرب الفرنسي ديرنبورغ ذهب إلى مكتبة قصر الإسكوريال Es-curial قرب مدريد بإسبانيا، في مهمة رسمية، لفهرسة ما فيها من مخطوطات عربية، فصنع لها فهرسا من جزءين نشر الأول منهما سنة ١٨٨٤، وكان يتناول موضوعات النحو والبلاغة والشعر والآداب والمعاجم والفلسفة. ونشر الثاني سنة ١٩٠٣، وكان يتناول موضوعات الأخلاق والسياسة. وقد أكمل ليفي - بروفنسال Lévi -Provencal فهرسة هذه المخطوطات في المكتبة نفسها سنة ١٩٢٨، وكانت حصيلة ذلك جزءا ثالثا متمما للجزءين الأولين. ثم نشر رينو Renaud، في سنتي ١٩٣٩ و١٩٤١، فهرسا مكملا لهذه الفهارس استنادا إلى بعض المذكرات التي خلفها ديرنبورغ نفسه.

وأما في البلدان العربية، فقد قام المستعرب رنيه باسيه R. Basset في الجزائر، بوضع فهرس لمخطوطات جلفا، نشره سنة ١٨٨٤ في نشرة (المراسلات الأفريقية) Le Bulletin de la Correspondance Africaine.

ووضع فانيان E. Fagnan فهرسا للمخطوطات العربية والتركية والفارسية في المكتبة الوطنية بمدينة الجزائر، ذيّله بعناوين الكتب وأسماء المؤلفين والنساخ، ونشره في سلسلة الفهرس العام لمخطوطات المكتبات العامة في فرنسا سنة ١٨٩٣ في المجلد الثامن منها.

ثم وضع أوغست كــور A. Cour فهرسـا للمخطوطـات العربيـة في المكتبات الجزائرية الرئيسية، ونشره في الجزائر سنة ١٩٠٧ .

كما قام رنيه بـاسيه كذلك بوضع فهرس لمخطوطـات مكتبة آل عظوم في القيروان بتونس، ونشره في نشرة (المراسلات الأفريقية) سنة ١٨٨٤ أيضا .

وقام روا B. Roy بنشر فهرس للمخطوطات التاريخية المحفوظة في مكتبتي جامع الزيتونة (العبـدلية والأحمدية)، كما وضع كذلك فهرس المخطـوطات والمطبوعات في مكتبة الجامع الكبير بتونس، ونشره في تونس سنة ١٩٠٠ .

ووضع بـاسيه كذلـك، في مراكش، فهـرسا للمخطـوطات العربيـة في مكتبتي فاس، ونشره في الجزائر سنة ١٨٨٣ .

ونشر جورج سالمون G. Salmon فهرسا لمخطوطات إحدى المكتبات الخاصة في مدينة طنجة، في مجلـة (المحفوظات المراكشية) Archives Marocaines وذلـك في سنة ١٩٠٥ .

ووضع ميـار Mayard فهرسا للمصنفـات المغربية في مدينـة طنجة نشر في مجلة (العالم الإسلامي) La Revue du Monde Musulman في سنتي ١٩١٧ و١٩١٨ .

ووضع ديستان Destaing فهرسا للمخطوطات العربية في غربي أفريقيا، ونشره في (المجلــة الأفـريقيــة) La Revue Africaine في السنـــــوات ١٩١١ و١٩١٢ و١٩١٣ .

ونشر ليفي ـ بروفنسال أيضا، في باريس سنة ١٩٢١ ثم في الرباط سنة ١٩٢٢، فهرسا للمخطوطات العربية في مدينة الرباط .

ووضع بـلاشير R.Blachére ورينو فهرسا للمخطوطـات العربية المستجدة في المكتبة العامة للمحمية الفـرنسية بمراكش، ونشراه في سنتي ١٩٢٩ و١٩٣٠ في مجلة (هسبيرس) Hespéris .

ونشر رينو كذلك فهرسا للمخطوطات العربية المتعلقة بالطب في مكتبة الرباط أيضا، ونشره في نشرة الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب سنة ١٩٢٣ .

كان هذا حديثا وافيا تقريبا عن نشاط الفهرسة الذي قام المستعربون في فرنسا بتغطيته، وأما عن النقطتين الرابعة والسادسة من الجهود التي بذلها هؤلاء المستعربون، وأعني بهما: تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها، فقد كان لهم فيهما باع طويل، ويمكننا أن نقول بحق أنهم كانوا يتفوقون في ميدان تحقيق هذه المخطوطات حتى وقت متأخر على كثير من محققينا العرب الذين تتلمذوا عليهم في العصر الحديث ولكن هؤلاء التلاميذ سرعان ما لحقوا بأساتذتهم في هذا الميدان وضارعوهم فيه ثم سبقوهم وانتزعوا راية التحقيق من أيديهم نهائيا تقريبا بعد أن توفرت للعرب المحدثين كل الوسائل والإمكانات المطلوبة في نطاق هذا النشاط العلمي: من جامعات تخرج أجيالا من الباحثين والدارسين المحققين المختصين، ومن توفر المطابع العربية ذوات الحروف الجيدة والإخراج الجميل، ومن حاجة ماسة إلى إحياء التراث العربي المخطوط حرصا عليه من الاندثار، ومن ازدهار الثقافة العربية والإقبال على المطالعة والقراءة بشغف بانتشار التعليم المستمر والدائب على مختلف الصعد بين أبناء العربية ونشوء أجيال جديدة متعطشة لكل فروع المعرفة القديمة والحديثة.

وأما الأمر الذي يسر للمستعربين القيام بمثل هذا النشاط فهو وجود هذه المخطوطات العربية تحت أنظارهم وفي متناول أيديهم في مكتبات بلدانهم أو مكتبات المستعمرات التي يسيطرون عليها أيام الاستعمار الفرنسي لبعض البلدان العربية، إضافة إلى وجود الرغبة الملحة لكشف العالم العربي وتوثيق الصلة به خدمة للمصالح السياسية والاقتصادية والثقافية في آن واحد.

وكانت كنوز المخطوطات العربية قد لفتت الانتباه، منذ زمن بعيد، وأثارت الاهتمام بمعرفة محتوياتها والإفادة منها. ففي سنة ١٧٨٥ كان الملك لويس السادس عشر يفكر في تنفيذ مشروع هام يقوم على ترجمة كل مافي المكتبة الملكية من مخطوطات

شرقية، ومن بينها العربية، للاطلاع على ما فيها من معرفة يمكن أن تثري الثقافة الفرنسية وتدفعها إلى الامام[1]. غير أن الزمن لم يمهله لتحقيق هذا المشروع الطموح، فطوي إلى أن جاء بعد ذلك مستشرقون ومستعربون كثيرون قدموا جهودهم منفردين أو متعاونين جزئيا في السبيل نفسه.

ويمكننا القول إن طباعة المخطوطات العربية قد سارت ببطء شديد مابين سنتي ١٦٩٦ و١٧٧٩، أي طوال مايقرب من تسعين سنة، حتى أنه لم ينشرخلالها سطر واحد باللغة العربية[2]. غير أن الأمور انقلبت رأسا على عقب بعد ظهور المستعرب سلفستر دو ساسي الذي فتح بابا واسعا بها نشر من مخطوطات عربية لمن يريد سلوك هذا السبيل. فقد نشر في سنة ١٨٢٢ مقامات الحريري بمقدمة عربية، ونشر معها شرحا مختارا من مختلف الشروح القديمة لها. وكان قد نشر من قبل، سنة ١٨٠٦، كتاب (مختارات عربية) تتكون من ثلاثة أجزاء، متنا وترجمة، أطلق عليها عنوانا عربيا نصه: (الأنيس المفيد للطالب المستفيد)، مع بعض التعليقات. كما نشر نص (ألفية ابن مالك)، ومعلقة لبيد، وكتاب (كليلة ودمنة). فجاءت هذه الأعمال فاتحة عهد جديد مهم للمخطوطات العربية في فرنسا. إذ أخذت عمليات نشر المخطوطات العربية بعد ذلك تتوالى باطراد، ونشرت مختارات منها على نطاق واسع وفي شتى الموضوعات حتى بلغ عددها من الكثرة حدا يحتاج إلى دراسة خاصة به وحده مع ترجمات لأغلب مانشر منها.

ويبدو لنا، في المقابل أن المستعمرين، على وجه العموم، قد اتجهوا في السنوات الأخيرة إلى ترجمة المخطوطات العربية واعتنوا بها أكثر من عنايتهم بتحقيق نصوصها، تاركين للمحققين العرب أن يصولوا ويجولوا في ميدانهم الأصيل[3]، إذ أن ميدان المستعربين الأكثر أصالة هو الترجمة بلا شك، وهم أقدر عليها بطبيعة الحال من أي مترجم عربي لها إلى لغتهم مهما أوتي من مقدرة على إتقانها.

(١) انظر: Dugat (G.), Histoire des orientalistes de l'Europe, Paris, 1868, I,p.XXVI.

(٢) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.III

(٣) استقينا هذه المعلومة من نص رسالة كان قد بعث بها إليّ المستعرب الفرنسي المشهور شارل بيلا بتاريخ ١٠/٢/١٩٧٦.

ولم تكن عملية نشر المخطوطات العربية او ترجمتها تجرى عشوائيا بلا ضابط لها أو ناظم، بل كانت هنالك ضوابط وقواعد نشأت منذ أن بدىء بنشر هذه المخطوطات أو ترجمتها، ثم تطورت مع الزمن وترسخت وشاعت بين المستعربين، حتى أثبتها جميعا المستعربان الفرنسيان ريجيس بلاشير وجان سوفاجيه J. Sauvaget في كتيِّب نشر في باريس سنة ١٩٥٣، ليكون دليل عمل يهتدي به المستعربون عامة والناشئون منهم خاصة، ومن أجل توحيد المنهج المتبع والمصطلح المستعمل فيما بينهم. فجاء هذا الكتيب على صغره ذروة تدل على نضج هذين النشاطين عند هؤلاء المستعربين، وعنوانه: (قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها)(١) Régles pour éditions et traductions de textes arabes.

ولم يكن المستعربون، في الواقع، يكتفون بنشر النص المخطوط أو ترجمته، وإنما كانوا يكتبون له مقدمات يحاولون فيها دراسة مضمون المخطوطة التي ينشرونها أو يعرِّفون بها وبمؤلفها وبمنهج تأليفها، وكانوا يضيفون على النص هوامش توضيحية لما فيه من إشارات تحتاج إلى توضيح، وكانوا يصنعون لهذا النص فهارس متنوعة تسهم في كشف محتوياته والإفادة من مادته قدر المستطاع، وتسهل عمل الباحثين فيه، وكانت هذه الفهارس تثبت في آخر النص عادة.

وإذا ما استثنينا، هنا، ذكر المخطوطات العربية ذوات الطابع الأدبي واللغوي، التي نشرها المستعربون الفرنسيون، نظرا لأننا سنتطرق إليها في فصل لاحق، فإننا سنحاول فيما يلي أن نلم بشيء من أبرز ما نشر المستعربون الفرنسيون من مخطوطات عربية أو ترجموا في مختلف الموضوعات البارزة التالية على سبيل التمثيل لها لا الحصر.

أ ـ في الإسلام

اعتنى المستعربون بنص القرآن الكريم، فترجموه مرارا إلى اللغة الفرنسية، ومن أبرز ترجماته إليها:

---

(١) وقد ترجمناه إلى العربية بالعنوان المذكور أعلاه مع إضافة عنوان فرعي توضيحي تحته هو (وجهة نظر الاستعراب الفرنسي) وتم نشره في دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت سنة ١٩٨٨ .

١ ـ ترجمة دورييه du Ryer (باريس، ١٦٣٤).

٢ ـ ترجمة سفاري Savary (باريس، ١٧٨٣).

٣ ـ ترجمة كازيميرسكي Kasimirsky (باريس، ١٨٤٥).

٤ ـ ترجمة ماردروس Mardrus (باريس، ١٩٢٦).

٥ ـ ترجمة مونتيه Montet (باريس، ١٩٢٩).

٦ ـ ترجمة بلاشير (باريس، ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠).

وكانت كل ترجمة من ترجمات القرآن هذه تعاد طباعتها مرارا.

وفي مجال سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، قام ديفرجيه Desvergers باستخلاص ما ذكره منها أبوالفداء في تاريخه، ونشره متنا وترجمة في باريس سنة ١٨٣٧.

وترجم برون Perron (قصة المعراج) ونشرها سنة ١٨٥٤، كما نشر هو نفسه كتاب (المختصر في الفقه) لخليل بن إسحاق مع ترجمته في سبعة أجزاء بين سنتي ١٨٤٨ و١٨٥٤.

ونشر وليم مارسيه W. Marçais كتاب (التقريب والتيسير) للإمام النووي متنا وترجمة مع الشرح، سنة ١٩٠٠. وترجم كذلك (جامع الأحاديث) للامام البخاري في أربعة مجلدات، وقد عاونه في الجزءين الأول والثاني هوداس Houdas، وتم النشر بين سنتي ١٩٠٢ و١٩١٤.

ب ـ في التاريخ:

١ ـ كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي: وقد نشره كاترمير متنا وترجمة مع تعليقات غنية متنوعة، في أربعة مجلدات، بين سنتي ١٨٣٧ و١٨٤٥.

٢ ـ مقدمة ابن خلدون: وقد نشرها كاترمير أيضا متنا وترجمة، ثم أعاد دوسلان

نشرها وترجمتها في ثلاثة مجلدات سنة ١٨٧٢ .

٣ ـ مقـدمة تـاريخ بغداد للخطيب البغـدادي : وقد نشرهـا جورج سـالمون متنا وترجمة في باريس سنة ١٩٠٤ .

٤ ـ تاريخ فتح الإندلس لابن القوطية : وقد نشره هوداس ، ثم قام بنشر مختارات منه مع ترجمتها في باريس سنة ١٨٨٩ .

٥ ـ كتـاب (الخطط) للمقـريزي : وقـد نشره ثلاثـة مستعربين فـرنسيين في سبعة أجزاء على التـوالي ضمن منشورات المعهـد الفرنسي في القـاهرة ، فنشر بـوريان الجزء الأول سنـة ١٨٩٥ والثاني سنـة ١٩٠٠ . ونشر كـازانـوفا الجزء الثـالث سنة ١٩٠٦ والـرابع سنـة ١٩٢٠ . ونشر فييت الأجـزاء الخامـس والسـادس والسـابع بين سنتي ١٩١١ و١٩٢٧ متنا وترجمة .

٦ ـ كتاب (البدء والتاريخ) لابن مطهر المقدسي : وقد نشره هوار Cl. Huart متنا وترجمة في ستة أجزاء بباريس بين سنتي ١٨٩٩ و١٩١٩ .

٧ ـ مروج الذهب للمسعودي : وقـد نشره دومينار متنا وترجمة في تسعة مجلدات ، وعاونه في الثلاثة الأولى منها دو كورتي de Courteille ، في باريس بين سنتي ١٨٦١ و١٨٧٧ .

٨ ـ كتاب (الـروضتين) لأبي شامـة : وقد نشره دو مينـار أيضا متنـا وترجمة سنـة ١٨٨٨ .

٩ ـ الفخري لابن الطقطقي : وقد نشره ديـرنبورغ بالتعاون مع أمار Amare متنـا وترجمة .

١٠ ـ تاريخ حلب لابن العديم : ترجمه بلوشيه سنة ١٩٠٠ .

١١ ـ فتـوح شمالي أفريقيـا والأندلس لابن عبدالحكم القـرشي : وقـد نشره غـاتـو Gateauمتنا وتـرجمة في (كراسـات تونس) Cahiers de Tunis بين سنتـي ١٩٣١

و١٩٣٩ . ثم أعاد تحقيقه ونشره مع الترجمة منقحا وفي مجلد واحد سنة ١٩٤٨ .

١٢ ـ مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك غرناطة : وقد نشرها ليفي ـ بروفنسال متنا وترجمة بين سنتي ١٩٣٦ و١٩٤٠ .

جـ ـ في الجغرافيا :

١ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي : وقد نشره بخرائطه جوبير Jau-bert متنا وترجمة في جزءين بباريس بين سنتي ١٨٣٦ و١٨٤٠ .

٢ ـ تقويم البلدان لأبي الفداء : وقد نشره كاترمير بالتعاون مع ديرنبورغ ودو سلان سنة ١٩٤٠ .

٣ ـ المسالك والممالك للبكري : وقد نشره دو سلان متنا وترجمة في باريس سنة ١٨٥٧ .

٤ ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار لابن بطوطة : وقد نشره سانغيتي San-guinetti على نفقة الجمعية الآسيوية بباريس في أربعة أجزاء متنا وترجمة، مع جزء إضافي للفهارس (الطبعة الأولى بين سنتي ١٨٥٣ و١٨٥٨ ، والطبعة الثانية بين سنتي ١٨٦٩ و١٨٧٩ ، والطبعة الثالثة بين سنتي ١٨٩٣ و١٨٩٥).

٥ ـ المسالك والممالك لابن خرداذبة : وقد نشره دومينار متنا وترجمة سنة ١٨٦٥ .

٦ ـ رحلة ابن جبير: وقد ترجمها غودفروا ـ ديمومبين Gaudefroy Démombynes ونشرها بين سنتي ١٩٥٣ و١٩٥٦ .

٧ ـ كتاب (البلدان) لليعقوبي : ترجمه فييت ونشره في منشورات المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٣٧ .

د ـ في الفلسفة :

١ ـ قصة حي بن يقظان : وقد نشرها ليون غوتييه L.Gauthier متنا وترجمة في الجزائر سنة ١٩٩٠ ، وفي بيروت سنة ١٩٣٦ ، وفي باريس سنة ١٩٣٧ .

٢ ـ الكشف في مناهج الأدلة لابن رشد : وقد ترجمه غوتييه أيضا ونشره في باريس سنة ١٩٠٥ .

هـ ـ في الفلك :

١ ـ جامع المبادىء والغايات في علم الميقات لأبي علي المراكشي : وقد نشره لوي سيديو L.Sédillot متنا وترجمه في جزءين في سنتي ١٨٣٤ و١٨٣٥ .

٢ ـ مقدمة كتاب (الكواكب الثابتة) لأبي الحسين الرازي : وقد نشرها متنا وترجمة كوسان دوبرسفال Caussin de Perceval سنة ١٨٣١ .

و ـ في الرياضيات :

١ ـ كتاب (خلاصة الحساب) لبهاء الدين العاملي : وقد نشر ترجمته مار Marre في باريس سنة ١٨٦٤ .

ز ـ في الزراعة والطبيعية والحيوان والنبات :

١ ـ كتاب (الفلاحة الأندلسية) لابن العوام : وقد نشره موليه Mullet في ثلاثة أجزاء بين سنتي ١٨٦٤ و١٨٦٧ .

٢ ـ ملخص في الطبيعيات عن القزويني : وقد نشره موليه أيضا سنة ١٨٥٤ .

٣ ـ كتاب (الصناعتين في تربية الخيل) لأبي بكر البيطار : وقد ترجمه برون في ثلاثة أجزاء بين سنتي ١٨٥٢ و١٨٦١ .

٤ ـ كتاب (كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار) لابن غانم القمدسي : وقد نشره دو تاسي de Tassy متنا وترجمة في باريس سنة ١٨٢١ .

٥ ـ قسم الحيوان من (رسائل إخوان الصفاء) : وقد ترجمه دو تاسي أيضا سنة ١٨٦٤ .

ح ـ في الطب :

١ ـ كتاب (الطب النبوي) لجلال الدين أبي سليمان داود : وقد نشر ترجمته برون سنة ١٨٦٠ .

٢ ـ أقسام من كتاب (التصريف) للزهراوي: وقد ترجمها ليكليرك سنة ١٨٦١

٣ ـ كتاب (الجدري والحصبة) للرازي: وقد ترجمه ليكليرك أيضا بالتعاون مع لينوار سنة ١٨٦٦ .

٤ ـ كتاب (الحاوي في علم التداوي) لنجم الدين الشيرازي: وقد نشره غيغ Guigue متنا وترجمة في بيروت سنة ١٩٠٣ .

وما ذكرناه آنفا من مخطوطات عربية حققت أو ترجمت ليس سوى غيض من فيض مما نشره المستعربون الفرنسيون أو ترجموه من تراثنا العربي الغني والواسع في مختلف ميادين المعرفة النظرية والعملية .

وقد كان لنشر أمهات المخطوطات العربية في فرنسا خاصة وأوربا عامة نشرا محققا، أثر عميق في إحياء تراثنا وإظهاره للنور على أوسع نطاق ممكن للإفادة منه، وقد أدى ذلك إلى تطوير نهضتنا الحديثة ودفعها إلى الأمام أشواطا بعيدة. ويرى الأستاذ الرئيس محمد كردعلي أنه «لولا عناية المستعربين بإحياء آثارنا لما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة، وطبقات الحفاظ، ومعجم ما استعجم، وفتوح البلدان، وفهرست ابن النديم، ومفاتيح العلوم، وطبقات الأطباء، وأخبار الحكماء، والمقدسي، والاصطخري، وابن حوقل، والهمذاني، وشيخ الربوة، وابن جبير، وابن بطوطة، إلى عشرات من كتب الجغرافية والرحلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي، وبها وقفنا على درجة حضارتها. ولولا احياؤهم تاريخ ابن جرير وابن الأثير وأبي الفداء واليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن أبي شامة وابن الطقطقي وحمزة الأصفهاني وأمثالهم، لجهلنا تاريخنا الصحيح، وأصبحنا في عماية من أمرنا، ولو جئنا نعدد حسنات دواوين الشعر أو كتب الأدب والعلم التي أحيوها لطال بنا المطال»(١)

وقام المستعربون الفرنسيون بأنشطة أخرى أيضا حول المخطوطات العربية

---

(١) انظر مقالة ؛ أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج، ٧، ١٩٢٧، ص ٤٥٥.

وخدمتها، كنسخ مخطوطات معينة منها لأهميتها أو لتعذر الحصول عليها مباشرة، وهذا النشاط داخل في النقطة السابعة التي رأيناها آنفا. وقد كانوا يكلفون بهذه المهمة أحيانا بعض العرب من أمثال ميشيل صباغ المصري الذي ارتبط اسمه بمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس منذ سنة ١٨١٠ إلى سنة وفاته ١٨١٦ بصفة (ناسخ للمخطوطات العربية المستعارة من المكتبات الأخرى من خارج فرنسا).

وكان دوساسي قد كتب إلى وزير الداخلية في ٣ أيلول من سنة ١٨٠٧ رسالة يقول فيها: «منذ زمن طويل وأنا أرغب في أن تضع الحكومة في خدمتها ناسخا للغات الشرقية، ولاسيما العربية..»، ويشهد في الرسالة نفسها بجمال خط ميشيل صباغ ويثني على معارفه الأدبية الجيدة، ويذكر أن زميله لانغليس Langlés يشاطره الرغبة في استخدامه في هذا المجال، ويبدو أن الوزير استجاب لهذا المطلب، ولذا يجد المرء مجموعة من المخطوطات العربية المنسوخة بخط ميشيل هذا، وهي لا تزال محفوظة إلى اليوم في المكتبة الوطنية بباريس(١).

ويمكننا، مع ذلك، أن نعترف هنا بندرة قيام المستعربين الفرنسيين أنفسهم بمثل هذه المهمة. غير أن ذلك لا يعني أن القيام بها كان معدوماً، ويعود سبب ذلك إلى صعوبة النسخ على كاتب غير عربي، كما يعود إلى إمكانية الحصول على المخطوطة المطلوبة بمختلف السبل من غير معاناة مشقة نسخها. حتى إذا تعذر أمر الحصول عليها، لكونها محفوظة وفي نسخة وحيدة، كان بالإمكان تكليف واحد من النساخ العرب بهذه المهمة للحصول على نسخة منها مقابل أجر معين، ويشترط في مثل هذه الحالة أن يكون خط الناسخ جميلا وواضحا كما رأينا آنفا. إلا أن هذه الطريقة في تحصيل المخطوطات واقتنائها قد أهملت بعد تطور وسائل التصوير المختلفة هذا التطور السريع والهائل، إذ أصبح من الممكن الحصول على صورة كاملة وواضحة تماما في وقت قصير وبتكاليف زهيدة نسبيا، وقد أصبح في مقدور الباحث أن يحصل على نسخة مصورة بأي طريقة يريد من أي مخطوطة في المكتبات العربية

---

(١) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.XXI.

والعالمية . وكانت هذه الطريقة ناجعـة في محاولة جامعة الدول العربية لاستعادة نسخ المخطوطـات العربيـة من مختلف المكتبات الأجنبية في العـالم لتوضع في النهـاية تحت تصرف البـاحثين العرب في كل مكان كما رأينا من قبل .

وأمـا ما يتعلق بمـراجعـة المخطوطـات العـربية ووضع خـلاصـات موجـزة عن موضوعاتها وما تتضمنه من أفكار رئيسية ـ وهذا مضمون النقطة الخامسة من الجهود التي يقوم بها المستعربون الفرنسيون لخدمة المخطوطـات العربية كما ذكرناها آنفا ـ فقد كان واضعو الفهـارس يهتمون به على وجه الخصوص ، لأنهم كـانوا يهدفون إلى وضع هذه المخطوطات تحت أنظار الباحثين كما هي وبأكبر قدر من الدقة والوضوح ، بغية عثورهـم بسرعة على مبتغاهـم منها أو على الموضوع الـذي يريـد كل منهم العمل في نطاقه .

وكان بعض المستعربين الفرنسيين ينشرون في بعـض الصحف الاستشراقية العامة أو الاستعرابية الخاصة ، نبذا واقتباسات من بعض المخطوطات تعطي فكرة عن هذه المخطوطـات التي يتناولـونها بالتعـريف ، لتشجيع بعض البـاحثين على خوض غمار تحقيقها ونشرهـا أو ترجمتهـا ، لشعورهم بفـائدة ما تحتـوي عليه ، ومن ذلك مـا كان دوساسي يقدم من نبذ واقتباسات مختلفة ، منها على سبيل المثال ما يدور حول :

١ ـ كتاب (الكواكب السايرة في أخبار مصر والقاهرة) .

٢ ـ كتاب (البرق اليماني في الفتح العثماني) .

٣ ـ كتاب (بلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام) .

٤ ـ كتاب (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام) .

وكثير من هذه النبـذ والاقتباسات كان يتنـاول المخطوطات العربيـة التي تحتوي عليها المكتبة الوطنية بباريس ، في سلسلة هامة تدعى (نبذا واقتباسات) Notices et extraits .

وبهذا نكون قد ألممنـا إلمامة شاملة بما يتعلق بـالمخطوطات العربيـة في فرنسا عبر العصور المختلفـة إلى اليوم ، ولعلنا بحـديثنا هـذا قد وضحنا الصـورة الحقيقية التي

رسمتها العصور المتوالية للمخطوطات العربية وحركة تنقلاتها من مواطنها إلى مختلف أنحاء العالم، ونأمل أن نكون قد وفقنا إلى بيان المصير الذي آلت إليه هذه المخطوطات على أيدي العرب والمستعربين، ليكون هذا كله حافزا لنا يدفعنا باستمرار إلى العناية بتراثنا المخطوط وإحيائه بالتحقيق والنشر، بكل ما نملك من وسائل وقدرات علمية وفنية ومادية، لخدمة هذه الأمة ولغتها خدمة جليلة خالدة.



الفصل الثالث
تعليم العربية في فرنسا

كان إقبـال بعض الفـرنسيين على تعلـم اللغة العـربية أو تعليمهـا استجابـة لظروف الاحتكاك بين فرنسـا والمنطقة العربية، خـلال فترة طويلة من الزمـان تمتد من مطلع القـرن الثامن الميـلادى إلى اليـوم، وكان كـذلك تلبية للحـاجـة والمصالح والمطـامع المختلفة. وقد أسهم كل ذلك ـ مع مرور الوقت ـ في ترسيخ تعليم العربية وفي تعزيز المؤسسات الأهلية والحكومية القائمة على هذا التعليم في فرنسا.

وكان نصيب العلماء الفرنسيين، خـلال مرحلة الترجمة من العربيـة إلى اللاتينية، كبيرا في ميدان تعلم العربية وتعليمها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وقد مر بنا أن المحـرض الأول على الترجمة هـو الفـرنسي ريمون، مطـران طليطلـة، الـذى أنشأ معهـدا للمترجمين فيها لنقـل علوم العـرب إلى لغـة العلم والثقـافة والآداب آنـذاك: اللاتينية.

وتطـور الاهتمام بتعليم العربيـة بعـد ذلك في عصر النهضـة الأوربية، إذ قـامت اللغـات القوميـة واستقلت بنفسها للتعبير عن المعـارف والعلوم والآداب المختلفـة، ومن هذه اللغـات الفرنسيـة المتفرعـة أصلا من الـلاتينية، فصرنـا نرى بعض العلماء الفرنسيين يسعون إلى تعلم العـربية، أو نرى الدولة تتوجه إلى تحريض بعـض رعاياها على تعلمها وتعليمها، ليكونوا واسطة اتصال وتفاهـم مع العرب في مختلف الميادين، وليعملوا تراجمة في مكتبـة الملك ومراسلاته وسفـاراته وقنصلياته في المنطقـة العربية، وليشرفوا كذلك على مصالح فرنسا التجارية في الشرق العربي.

وكان من أسباب الاندفاع إلى تعلـم العربيـة أيضا سقوط القسطنطينية، عاصمة الإمبراطوريـة البيزنطية، وتهديـد العثمانيين المسلمين لأوربا المسيحية في أواخـر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القـرن السـادس عشر للميلاد. ولهذا نجـد اللغـة التركية تـواكـب اللغة العـربية في أهميتها لـدى الفرنسيين حتى أواخـر القرن الماضي. ونضيف إلى هاتين اللغتين لغـة إسلامية ثالثـــة، أن صح التعبير، هي الفارسيـــة التي كانت موضع اهتمام الفرنسيين كذلـك. وكان الاهتمام بكل لغة من هذه اللغات

مرتبطا بحـاجة معينة تختلف قليلا أو كثيرا عن اللغتين الأخـريين: فنرى، مثلا، أن تعليم العربيـة كان بهدف الاطـلاع على الحضارة العـربية، ونقل علـومها، ومعـرفة الإسلام وأسرار قوته عن كثب. وكان تعليم التركية لأنها لغـة الدولة الإسلامية القوية التي تقف في مواجهـة الغرب وتهدد مصـالحه في حوض البحـر الأبيض المتوسط على الأقل، واللغـة التركيـة تيسر سبل الاتصـال بأصحاب هـذه القـوة، وتجعل دراسـة أحوالهم الاجتماعية والسياسية في متناول اليـد. وكان تعليم الفارسية تعبيرا عن الرغبة في الاطلاع والكشف من جهـة، وبناء العلاقات وتبادل المصـالح واستغلال الصراع الـدائر بين الدولـة العثمانيـة والـدولة الفـارسيـة من جهـة أخرى، بغيـة لفت انتبـاه العثمانيين إلى الوراء وشغلهم وإضعـافهم وتعميق الشرخ بين المسلمين ليكون بأسهم بينهم شديدا، وهذا كفيل طبعا بإضعاف هيبة الإسلام وتشويه صورته في نظر الغرب آنذاك. وكـان العامل المشترك بين هـذه اللغات الثلاث ــ كما نرى ــ أنها تشكل أبرز اللغات الفـاعلة في تـاريخ الحضارة الإسـلامية، وتمثل في الـوقت نفسه لغـات أكثر الشعـوب الإسلاميـة حيويـة وتأثيرا في تاريخ العـالم، كما أن هذه اللغـات تمثل خط المواجهة الأول لأوربا مع العـالم الإسلامي الذى تنتمي إليه. وكان تعليمهـا في بداية الأمر لخدمـة المصالح التجاريـة والعلاقات الدبلـوماسية والأطماع الاستعماريـة عند الفرنسيين، ثـم حُمِّل هذا التعليم أهدافا أخرى كخـدمة المعرفة الخالصة وإشباع حب الاطلاع وإغناء الثقافة الفرنسية بما لدى هذه الشعوب من آداب وفنون مختلفة.

وسنركز جهودنا، في الصفحات التالية في هذا الفصل، على دراسة تعليم العربية في فـرنسـا، مع الإشـارة من بعيـد أحيـانـا، وعنـد الضرورة، إلى تعليم اللغتين الأخريين، إذ أن المجـال لا يسمح بـالتوسع في ذلك. والجديـر بالـذكر هنـا أن أكثر المستشرقين الفرنسيين الأوائل، وحتى بعض المتأخـرين، كانوا يلمون بأكثـر من لغة من هذه اللغات، بل قد يتقنون اللغات الثلاث معا، ذلك لأن شعوبها كانت ـ عبر التاريخ الإسلامي ـ متداخلة ومتمازجة في الجوار والمصالح والتزاوج.

وسأحـاول أن أسلط الأنـوار على أهم المدارس والمعـاهـد التي أسهمت في تعليم العربية بقسط كبير أو صغير، وذلك من خـلال التوسع في دراسة مؤسسـات فرنسية

ثلاث كبيرة كـان لها القدح المعلى والفضل الأكبر في نشر العربيـة وتعزيز الـدراسات العربيـة داخل فرنسـا وخارجها على حـد سواء ، وهي بحسب تسلسل ظهـورها على مسرح التاريخ :

١ ـ معهد فرنسا (أو الكوليج دو فرانس) :

وهو بالفرنسية Le Collège de France ، وأصله هو تلك المؤسسة التي أوجدها الملك فرانسوا الأول(١)، سنة ١٥٣٠ ، باسم (القراء الملكيين) Les Lecteurs Roy-aux ، وكان قيامها بنصيحة من غيوم بوديه(٢) G.Budé ، المشرف على مكتبة الملك : فخُصِّص قارئان للغة اليونانية ، وثلاثـة للغة العبرية التي كان الاهتمام بها دينيا محضا لدراسة العهد القديم ، وواحد للرياضيات .

ثم أضيف إلى هؤلاء القراء ، سنة ١٥١٤ ، قارىء للبـلاغة اللاتينية . ثم أدخلت اللغـات الشرقية الأخـرى ، غير العبريـة ، في الفترة الممتـدة من سنة ١٥٣٨ إلى سنـة ١٥٤٣ ، على يـد غيـوم بـوستل G.Postel ، الـذي يعـد أول المستشرقين الفـرنسيين بالمعنى الغلمي المصطلح عليه للكلمة . وقد علم الملك فرانسوا الأول بمعرفته الجيدة للغتين العربية والتركية ، وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من العمر «فألحقه بسفارته في تـركيـا لـدى السلطان سليمان ، وأمـره أن يحضر معـه إلى بـاريس كل مـا يستطيع الحصول عليه مـن المخطوطات الشرقية النفيسة . . ولما رجع إلى فـرنسا ، جعل العلماء والأشراف ورجال الدين يترددون عليه ويحيطون به إحاطة السوار بالمعصم . وقد عينه الملك سنة ١٥٣٨ مـدرسا للغات اليـونانية والعربيـة والعبرانية ، ووهبه منـزلا ومزارع

---

(١) فرانسوا الأول : عـاش بين سنتي ١٤٩٤ و١٥٤٧ ، وكان ملكا على فرنسـا من سنة ١٥١٥ . وقد شجع في عهده الفنون وأسهم في انتصار النهضة الفـرنسية . وسجل عهده بدايات الحكم المطلق Absolutisme في فرنسا .

(٢) غيوم بوديه : عـاش بين سنتي ١٤٦٧ و١٥٤٠ ، وهو «انسانياتي» فرنسي (أردنـا كلمة «انسانياتي» هنا ترجمة لكلمة Humaniste التي تعني : المرء الذي يستغرق جهوده في معرفة اللغات والآداب القـديمة عنـد الشعوب المختلفـة بلا تمييـز، وهي نسبـة إلى «الانسانيـات» وهي الأمور المتصلـة بالإنسان والإنسانية عموما .

وخيـلا»[1] . غير أن غضب الملك عليـه لبعض الشأن لم يُمَكِّنه من الاستمرار في تدريس العربية .

ثم دخلت العربية ثانية إلى هذا المعهد على يد أرنول دوليسل A.de L'Isle، سنة ١٥٨٧ ، واستمرت كذلك إلى سنة ١٦١٣[2] .

وكان هدف الملك فرانسوا من إنشاء مؤسسة القراء الملكيين هـذه مقاومة العقلية الجامدة المسيطرة على جامعة باريس آنذاك ، لأنها كانت تحتكر التعليم وتقتصر على أربع كليات هـي : كلية اللاهـوت ، وكلية الحقـوق ، وكلية الطب ، وكليـة الفنون . وكـانت ترفض كل تجديـد أو تطور. وكـانت تـرى في اختصاصـات هذه الكليات أجـدى الدراسـات وأنفع العلوم . كما كـانت تتخذ من اللغـة اللاتينيـة لغة وحيـدة للدرس والتـدريس والكلام. وكانت النـزعة المدرسية (السكـولاستية)[3] Sco-lastique الجمودية مسيطرة على دراساتها . وباختصار، كانت هذه الجامعة تحول دون أي محاولة لإصلاحها ، وترفض في الوقت نفسه أن تصلح نفسها بنفسها . ولذا اضطر الملك إلى إيجاد منافس لها حر النزعة ، لا يقيده شيء سوى الحاجة والضرورة والتقدم ، ولا يحول بينه وبين التطور شيء مسبق[4] .

وقد ازدادت حـاجة الناس ، مع الانتشـار التدريجي لروح النهضـة في أوربا ، إلى تعرف روائع الآداب القـديمة باللغـات المختلفة عن طريق الترجمة . ولما كـان موقف الجامعة الباريسية معارضا لكل ذلك ، فقد نشأت مؤسسات تعليمية خارجها لتلبي هـذه الحاجـة الجديـدة وتستجيب لها ، ومن جملـة هـذه المؤسسـات معهـد (القـراء الملكيين) هذا الذي كـان يؤمن بأن دراسة اللغات تعيـد المرء دائما إلى الينابيع الأولى

(١) انظـــر Dugat (G.), op.cit., I,p.XVII. وانظـر أيضا : تـاريخ دراسة اللغـة العـربية بأوربـا للمستعرب النمسوي يوسف جيرا ، ص ١٥ ـ ١٦ .

(٢) انظر: Annuaire du Collège de France, 1975, p.6.

(٣) النزعة المدرسية : تطلق على التعليم الفلسفي واللاهوتي الخاص بالعصر الوسيط الأوربي ، وكان قائما على التراث الأرسطوطاليسي الذي ترجمه علماء اللاهوت الغربيـون . وتطلق كذلك على كل نزعة أصـولية متحجرة أو جامدة لاتأخـذ بالحسبان التطورات والمتغيرات ولاتـراعي المستحدثات المعاصرة ولا الظروف الجديدة المختلفة .

(٤) انظر: op.cit., p.5.

للثقافات المختلفة، وكان لوقوف الملك وراء هذا المعهد أهمية كبيرة في نجاحه ونجاح اتجاهه الجديد، وقد أثبت هؤلاء القراء الملكيون فعلا طوال القرن السادس عشر أنهم خير من يمثل العلم الفرنسي في بلادهم. ومع أن هذا المعهد لم يكن يملك مقرا خاصا به، فقد كان أساتذته هم الذين ينون له كيانه المستقل وشخصيته المتميزة وتوجهه إلى الحرية، وسعيه إلى التجديد والتقدم، وهذه صفات ستظل ملازمة هذا المعهد طوال القرون التالية، وهي ذاتها التي لا يزال هذا المعهد يعتز بها إلى أيامنا هذه، مما يدل على حيوية الأسس التي قام عليها منذ نشأته الأولى.

وقد تكامل معهد فرنسا ونضجت تنظيماته في القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد بازدياد عدد كراسيه باستمرار، وقد ظهر اسم المعهد آنذاك على إعلانات دروسه باللاتينية كالتالي: (Collegiun regium gallarium)، وأصبح لهذا المعهد، في زمن لويس الثالث عشر (١٦١٠ ـ ١٦٤٣)، مقر خاص به في باريس[١].

والمعروف عن هذا المعهد أنه كان يهتم بدراسة اللغات القديمة المختلفة شرقية كانت أم غربية، حية أم ميتة: كاللاتينية، واليونانية، والعربية، والعبرية، والتركية، والفارسية، والسريانية، والآشورية، والسنسكريتية، وغيرها، من غير أن يتخصص بنوع منها دون الآخر.

وتميز المعهد كذلك بأنه كان يسهم إسهاما فعالا في جميع الأنشطة العلمية المعروفة في عصره. ولم يكن يكتفى بذلك، وإنما أراد لنفسه أن يأخذ دورا طليعيا ورائدا في دفع عجلة جميع فروع المعرفة إلى الأمام وتطويرها، منذ قيام الثورة الفرنسية على وجه الخصوص. وكان يسهم أيضا في فتح سبل جديدة للمعرفة، وفي ترسيخ سبل أخرى لها[٢].

والفعاليات العلمية والعقلية والروحية والأدبية والفنية التي تدرس في هذا المعهد اليوم تتمثل في الاختصاصات التالية: الفلسفة، والاقتصاد، والسياسة، والدين،

(١) انظر: op.cit., p.6.
(٢) انظر: op.cit., p.8.

والفن، وعلم اللغة العام، والرياضيات، وما يتعلق بفرنسا من تاريخ وأدب وفن، والقديم الكلاسيكي اليوناني والروماني، والفيزياء، والكيمياء، والتاريخ الطبيعي، والعلوم البيولوجية، والطب، بالإضافة إلى مجال الاستشراق الواسع، ومن ضمنه دراسة اللغة العربية وآدابها، وتاريخ العرب وحضارتهم، والإسلام ونظمه ومجتمعاته وتراثه، وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بحركة الاستعراب في فرنسا[١].

وأقدم اللغات الشرقية التي دخلت إلى المعهد، كما رأينا آنفا، اللغة العبرية، في حين أن تعليم العربية فيه كان متقطعا حتى نهاية القرن الثامن عشر، إذ ظهر في أواخره المستعرب الفرنسي المشهور سلفستر دوساسى، الذي يعد أبا الدراسات العربية في أوربا قاطبة بالمعنى المصطلح عليه، فرسخ تعليم العربية جيدا في فرنسا، وكانت نتيجة ذلك استمرار هذا التعليم على أيدى مستعربين بارزين من تلاميذه وتلاميذهم إلى يومنا الراهن.

ولا يمنح معهد فرنسا هذا درجات جامعية، ولا يجرى لطلابه امتحانات، كما أن دروسه ميسرة لكل راغب في متابعتها، وليس هنالك تسجيل ولا رسوم، وحرية الوصول إلى قاعات التدريس فيه مكفولة للاستماع إلى ما يلقى فيها من محاضرات في مختلف صنوف المعرفة والعلوم والاختصاصات. وليس المعهد عضوا في جامعات باريس.

ويتم اختيار أساتذة المعهد إما من ذوي الشهادات والدرجات والألقاب العلمية العالية والرفيعة التي تؤهلهم للتدريس في كرسي من الكراسي المتخصصة فيه، أي من الذين يكونون مختصين بمادة أحد هذه الكراسي. وإما أن يختاروا من ذوى النبوغ والاختراعات والاكتشافات والنظريات العلمية والأدبية المشهود بها، أو من البارزين في ميدان البحوث، ويشترط في هؤلاء الأساتذة أن يكونوا أصحاب مؤلفات لها قيمتها في مجال الاختصاص، أو أن يكونوا قد أضافوا شيئا جديدا ومتميزا إلى مسيرة العلم وتقدمه أو فتحوا بابا لم يكن مطروقا من قبل أو لم يكن معروفا، وفي هذه الأحوال لا

---

(١) انظر: .op.cit., p.8-15

يطلب المعهد منهم شهادات علمية أو جامعية، وإنما يكتفي بما لهم من رصيد علمي وسمعة في الأوساط العلمية والثقافية، أو لما لهم من تأثير في الجيل المعاصر لهم، وأهم ما في هذا الاختيار أنه يتم بالتنافس بين مرشحين، وبانتخابهم من قبل هيئة الأعضاء القائمين في المعهد عند الاختيار.

وعدد الكراسي المختصة في المعهد غير ثابت، لأنه يزيد وقد ينقص بحسب توفر المدرس الكفء أو المختص لشغل هذا الكرسي منها أو ذاك، إذ ربما أحدث كرسي خصيصا لأستاذ، وربما أدت وفاة أحد الأساتذة ـ بالمقابل ـ إلى إلغاء الكرسي الذي كان يشغله، نظرا لفقدان البديل أو الخلف المختص القادر على ملء الفراغ أو شغل هذا الكرسي الشاغر. وربما كان المخرج من هذا المأزق يتم بتحوير تسمية هذا الكرسي الشاغر ليتلاءم مع اختصاص أستاذ قريب من مادة اختصاص الأستاذ السابق إلا أنه لا يطابقه تماما. ومن هذا نستنتج أيضا أن تسميات الكراسي المختصة غير ثابتة كذلك لأنها خاضعة للظروف. وللأستاذ ذي الكرسي سلطان مطلق في تقرير المنهج الذي يتبعه، وفي اختيار الكتب أو الموضوعات التي يدرسها، وفي الأخذ بالطريقة الخاصة به التي يرتئيها للتدريس(١).

وقد خصت هذه المؤسسة العلمية الفرنسية الهامة الاستعراب بمكانة لائقة به بين الدراسات الاستشراقية الأخرى الكثيرة فيها، فأدت بذلك خدمات جلى للثقافة الفرنسية، ووصلتها بشكل أو بآخر بآثار الثقافة العربية في كثير من المجالات.

ولا بد لنا من أن نوضح هنا أن أساتذة العربية في هذا المعهد كانوا يتكونون، قبل القرن التاسع عشر، بأشكال مختلفة: فبعضهم كان يكون نفسه بنفسه مستعربا، وخاصة قبل سنة ١٦٦٩ التي شهدت ظهور المدرسة الثانية تاريخيا لتكوين المستشرقين والمستعربين، وهي مدرسة (فتيان اللغات)، ومنذ ذلك الحين صار أساتذة العربية في المعهد يأتون من هذه المدرسة. وفي القرن التاسع عشر، صار المستعربون يأتون للتدريس في هذا المعهد من عدة جهات: من بين الذين

---

(١) انظر: op.cit., p.19-21.

يكونون أنفسهم بأنفسهم، ومن مدرسة فتيان اللغات، ومن بين المتخرجين في المعهد نفسه، ثم من بين خريجي مدرسة اللغات الشرقية الحية، وهي ثالث المؤسسات الاستشراقية المهمة في فرنسا وكانت قد أنشئت سنة ١٧٩٥، وأخيرا من الأساتذة الذين تكونوا مستعربين في مدارس الجزائر وتونس والمغرب أو في معهدي القاهرة ودمشق.

وكان المستعربون قد أدوا دورا كبيرا في تعليم العربية في هذا المعهد. ولذا فإنني سأتناول بالذكر، هنا، طائفة منهم، سواء أكانوا ينتمون إلى الفترة المنقطعة لتعليم اللغة العربية قبل سنة ١٧٩٥، أم إلى الفترة المتصلة بعدها:

وأول هؤلاء المستعربين، أو لأقل المستشرقين على وجه الدقة، هو غيوم بوستل الذي كان يلم بالعربية وبعدد كبير من اللغات الشرقية والغربية أيضا، وقد قام بدور هام في ميدان الدراسات العربية في عصر النهضة. ويرى فيه غوستاف دوغا G.Dugat الذى أرخ لمستشرقي أوربا عموما أنه أول مستشرقي فرنسا على الإطلاق وفاتحة عهد جديد بما حاز من معرفة باللغات الشرقية لم تكن لعالم باحث قبله[١]. وكان بالفعل فريد عصره ووحيد دهره في الإلمام باللغات الشرقية، ومن أهمها: العربية، والعبرية، والتركية، والحبشية، والسريانية، والكلدانية أو الآشورية، والأرمنية. وباللغات الغربية القديمة والحديثة، ومن أهمها: اللاتينية، واليونانية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية. ويتفق مع دوغا في هذا الرأى المستعرب النمسوى يوسف جيرا[٢]، ويذكر خلاصة لحياة بوستل الحافلة بالعجائب والمغامرات والآراء الغريبة، ويذكر ميله إلى الإسلام، ووقوفه على جسر ريالتو Ri-alto بالبندقية (فينيتسيا) واعظا الناس، وهو يقول: «ينبغي لكل إنسان أن يكون تابعا لدين صالح، ومعنى ذلك أن يكون له دين مؤلف من مميزات الأديان الأخرى، (لا)[٣] سيما من الدين الإسلامي، ففيه من أجود الآراء وأحسنها»[٤].

(١) انظر: Dugat (G.), op.cit., I,p.XVII

(٢) انظر كتابه: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا، ص ١٥.

(٣) زدنا (لا) النافية للجنس لضرورتها في السياق ولارتباطها بـ(سيما) دوما، وهذا خطأ شائع في أحاديث الناس وكتاباتهم ينبغي التنبيه عليه والرجوع عنه.

(٤) انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ليوسف جيرا، ص١٧.

ومـــن آرائه التي أحدثت ضجة أن المسيح عليه السلام سيظهر بشخص امرأة، وأنه لن يذوق الموت. وكـان يدعـو إلى لغة عامـة جديـدة تفهمها كل الشعـوب الأوربية للحيلولة دون الحرب فيا بينها(!).

وكان بوستل هذا قد رحل إلى المشرق العـربي، وتعمق بالعربية، وجمع مخطوطات شرقية، ثم عاد إلى فرنسا سنة ١٥٣٨، واقفـا نفسه على دراسة العربية، ولما لم يستقر به المقـام في فرنسا بسبب آرائه الجريئـة، فقد انتقل إلى إيطاليـا، ثم إلى النمسا حيث عين سنة ١٥٥٢ مـدرسا للعـربية واليـونانيـة في جامعـة فيينا، ولم يطـل عهده بهذه الجامعة، إذ تـركها بعـد ثلاثة شهـور فقط، وولى هاربا بسبـب آرائه أيضا من بطش رجال الـدين، وعاد إلى فرنسـا، فاتهم فيهـا بالعصيان الـديني سنة ١٥٦٢، فقبض عليه ونفي إلى دير سان مارتان St-Martin إلى سنة وفاته ١٥٨١. ويقال أنه ارتجع إلى ربه وصلح أمره في هذا الدير، وكانت سنه عند الوفاة في حدود إحدى وسبعين سنة، نظرا لأن ولادته كانت سنة ١٥١٠.

ترك بـوستل آثارا عديـدة ذات أهمية، وخاصـة في مجال الدراسات العـربية، إلى جـانب تعليمه العـربية في المعهـد من سنة ١٥٣٨ إلى سنـة ١٥٤٣. ومن أبرز هـذه الآثار: كتـابه (النحـو العربي) Grammatica arabica الـذي نشره في باريس سنـة ١٥٤٣. وكان قد نشر من قبل في باريس سنة ١٥٣٨ كتابا جمع فيه الحروف الهجائية للغات كثيرة منها العربية بعنوان [1]: Linguarum duodecim characteribus differentium alphabetum.

ومن أشهر الذين تولوا كرسي العـربية في المعهد أيضا: أنطوان غالان الذي تلقى العربية فيـه، واصطحب دو نوانتل، سفير فرنسا إلى الباب العـالي سنة ١٦٨٠. وقد سافـر بعد ذلك ثـانية إلى المشرق بأمر من الـوزيرين كولبير ولـوفوا لجمع مخطـوطات شرقية، ومن بينها مخطوطات عربية. وقد عين مدرسا للعربية في المعهد سنة ١٧٠٩،

---

(١) للتوسع في دراسة حياة بوستل وآثاره راجع:
Secret (F.), Guillaume Postel et les études arabes à la Rennaissance, in: Arabica, t. IX, 1962, p.21-36.
وراجع أيضا: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ليوسف جيرا، ص ١٥ ـ ٢٠ وكذلك Fuck (J.) Diearbischen stadien in Europa, Leizig, 1955,p.36 - 43.

واستمر في التعليم إلى وفاته سنة ١٧١٥ . وكان قبل ذلك قد نشر ترجمته الشهيرة لمجموعة القصص العربية (ألف ليلة وليلة) من سنة ١٧٠٤ إلى سنة ١٧٠٨ ، فلقيت هذه الترجمة نجاحا كبيرا ورواجا واسعا وقبولا حسنا داخل فرنسا وخارجها على حد سواء، وكان لها تأثيرات عميقة، وسرعان ما أصبحت مصدر وحي وإلهام للأدباء والمفكرين والشعراء والفنانين في فرنسا خاصة وفي أوربا عامة[١] .

وعمل المستشرق فرانسوا بتي دولاكروا في تعليم العربية في المعهد من سنة ١٦٩٢ إلى سنة ١٧١٣[٢] .

وتولى كوسال دوبرسفال، سنة ١٧٨٤ ، كرسي العربية في المعهد، وظل يشغله قرابة نصف قرن من الزمان إلى سنة ١٨٣٣ . ثم خلفه في هذا المنصب ابنه أرمان Armand من سنة ١٨٣٣ إلى سنة ١٨٧١ .

ثم توالى على كرسي العربية في هذا المعهد، بانتظام، كل من المستعربين التالية أسماؤهم[٣] :

١ ـ شارل فرانسوا دفريمرى Ch.F.Défrémery من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٨٣ .

٢ ـ ستانسلاس غيار S.Guyard سنة ١٨٨٤ فقط .

٣ باربييه دو مينار من سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٩٠٨ .

٤ ـ بول كازانوفا P.Casanova من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩٢٦ .

٥ ـ وليم مارسيه W.Marçais من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٤٣ .

٦ ـ وعندما أسند هذا الكرسي إلى مستعرب متخصص بالتاريخ العربي، هو جان سوفاجيه، تحولت تسميته إلى (كرسي تاريخ العالم العربي)، وشغله من سنة ١٩٤٦ إلى سنة ١٩٥٠ .

٧ ـ ثم عاد فتحول بعد وفاة سوفاجيه إلى (كرسي اللغة العربية وأدبها) بإسناده إلى

---

(١) انظر : Ahnuaire du Collége de France,1975,p.7.

(٢) انظر مقالة : الدروس العربية في فرنسا لكليان هوار، ترجمة : عبدالله رعد في : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج ٥ ، ١٩٢٥ ، ص ١٥٨ .

(٣) انظر: Annuaire du Collège de France, 1975, P.11.

المستعرب غاستون فييت G.Wiet من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٩ .

وقد أحدث سنة ١٩٠٢ (كرسي للمجتمع الإسلامي) وأسند إلى الفرد لوغاتلييه A.Le Gatelier حتى سنة ١٩٢٦ . ثم خلفه فيه المستعرب المشهور لوي ماسينيون L.Massignon من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٥٤ . ثم تحولت تسمية هذا الكرسي إلى (كرسي علم الاجتماع الإسلامي) حين أسند إلى المستعرب هنري لاوست H.Laoust سنة ١٩٥٦ وشغله إلى سنة ١٩٧٥ . وبدءا من سنة ١٩٧٦ ، أسند إلى المستعرب المشهور أندريه ميكيل A.Miquel، بعد أن تحولت تسميته إلى (كرسي اللغة العربية وأدبها) ، ولا يزال يشغله إلى اليوم .

وأحدث سنة ١٩٤١ (كرسي لتاريخ فنون الشرق الإسلامي)، وأسند إلى البير غابرييل A.Gabriel، فشغله إلى سنة ١٩٥٣ .

ومن استعراض قائمة أسماء المستعربين الذين شغلوا كراسي تتعلق بالعرب وحضارتهم ، يمكننا أن نلخص اتجاهات الدراسات العربية في معهد فرنسا بما يلي :

١ ـ الاتجاه اللغوي المهتم بدراسة العربية .

٢ ـ الاتجاه الأدبي .

٣ ـ الاتجاه التاريخي المهتم بتاريخ العرب والحضارة الإسلامية .

٤ ـ الاتجاه الاجتماعي .

٥ ـ الاتجاه الفني المهتم بدراسة الفنون العربية الإسلامية المختلفة (كالعمارة ، والنحت ، والتصوير، والرقوش ، والخط ، الخ) .

٢ ـ مدرسة فتيان اللغات :

وهي بالفرنسية L'École des Jeunes de Langues، وكانت أسباب نشأتها أو الظروف التي دعت إلى ظهورها ، بحسب ما يذكر مؤرخوها[1]، تلك السياسة الإسلامية التي أخذت فرنسا تتبعها ، خدمة لمصالحها التجارية والسياسية ، منذ الحروب الصليبية إلى العصر الراهن ، وهي السياسة الفرنسية المتبعة مع المنطقة العربية

(١) انظر على سبيل المثال : Dupont-Ferrier (G.), Les Jeunes de Langues ou "Arméniens" à Louis-Le-Grand, in: Revue d'études arméniennes, t.II, 1922, p.189.

والقوى البشرية التي تعيش فيها، إضافة إلى ما يجاورها من شعوب إسلامية أخرى. ويذكر هؤلاء المؤرخون دافعا مهما لإنشاء هذه المدرسة يتلخص في قولهم إن العرب والأتراك والفرس كانوا يترفعون، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، عن تعلم اللغات الغربية والتكلم بها، بتأثير من تقاليدهم الدينية، وعدم مبالاتهم، وغرورهم، واستخفافهم بأصحابها، فاستتبع ذلك ضرورة أن يلم هؤلاء الغربيون هم أنفسهم بتلك اللغات الشرقية التي تتكلم بها هذه الشعوب الإسلامية الرئيسية الثلاثة في منطقة الشرق الأدنى، بغية خدمة مصالحهم التجارية والسياسية وحمايتها عند هذه الشعوب. وهذا، كما نرى، رأى غريب، إذ ليس في تقاليد الإسلام ولا تعاليمه ما يمنع من تعلم اللغات الأجنبية المختلفة ولا التكلم بها، بل إن في أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) ما يستشف منه الحث على تعلم لغات الأقوام الذين يكون بين العرب وبينهم صلات جوار أو مصالح، ولو كانوا أعداء، أمنا لمكرهم ودفعا لشرهم وخدمة للمصالح معهم حماية لها. كما أن نظرة الإسلام إلى اللغات الأخرى نظرة احترام وتقدير، لقوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنَّ في ذلك لآيات للعالمين﴾(١).

ومن الأسباب المباشرة لإنشاء هذه المدرسة تلك التقارير التي كان التجار الفرنسيون يرسلونها من المشرق العربى إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر، أو إلى وزيره كولبير الذى عرف عنه طموحه العظيم إلى توسيع الأسطول البحرى الحربي والتجارى من أجل خدمة تجارة فرنسا الخارجية ومد نفوذها الاستعمارى إلى مناطق جديدة باستمرار، ولمنافسة الأسطول الإنكليزى في أعالي البحار في مثل هذه الميادين جميعا. وكانت هذه التقارير تشكو خيانة المترجمين الوسطاء من أهل البلدان الشرقية لمصالح فرنسا التجارية، وبينت عدم القدرة على الركون إليهم ولا الثقة فيهم، لا في المحاكم، ولا في العلاقات الدبلوماسية أو الاقتصادية مع الباب العالي، مما يعرض تجارة فرنسا وسياستها لخطر جسيم إذا استمر كذلك في منطقة المشرق العربي وتركيا. والجدير بالذكر، هنا، أن أغلبية هؤلاء المترجمين الوسطاء، الذين ذكرتهم التقارير،

---

(١) انظر: القرآن، سورة الروم ٣٠/ ٢٢.

كانـوا من أبناء الطـوائف المسيحية في المنطقة . وقـد دفع هذا كلـه الوزيـر كولبير إلى التفكير في حل هـذه المشكلـة إلى أن اهتــدى، في سنـة ١٦٦٩ ، إلى مشروع إنشـاء مدرسـة يكون هدفها تخريج مترجمين فـرنسيين مخلصين في ولائهم لوطنهم ومليكهم، تملأ بهم الوظائف الحيوية في الشرق، ويكونون وسطاء بين التجار والسفراء الفرنسيين من جهة، وأهل البلاد الناطقة بالعربية والتركية والفارسية من جهة أخرى(١) .

وكانت فكرة هذه المدرسة تتلخص في إرسال فتيان فرنسيين من الناشئة إلى منطقة المشرق، ليتعلمـوا اللغتين العربيـة والتركيـة بين أهليهما مبـاشرة، وفي أخذ عـدد من الفتية المشرقيين ليتعلمـوا الفرنسية في بـاريس، وينغرس في نفـوسهم، نتيجة ذلك، حب فرنسـا والإخلاص لها، ويكون هؤلاء الأخيرون ملمين بإحـدى اللغات الشرقية المرغوب فيها .

ونذكـر هنا أن النيـة كانت متجهـة في المرتبة الأولى، إلى تلقين الفتيـان الفرنسيين اللغة التركيـة، لكونها لغـة الحكم في هـذه الإمبراطوريـة الكبيرة المسيطرة في المشرق : الدولة العثمانية . ثم جاءت العربية بعد ذلك لتحل في مكانتها البارزة جنبا إلى جنب مع التركية . وفي وقت لاحق دخلت الفارسية لغة ثالثة في اهتمامات هذه المدرسة .

وكان البرنامج الموضوع لتلاميذ المدرسة مثقلا جدا بالمواد المختلفة والمتنوعة، التى زُعَم أنها الزاد الذي يحتاج إليه تكوينهم العقلى، لكي يصبحوا مؤهلين لشغل منصب تـرجمان في المستقبل . إذ كـان هـذا البرنـامج الكثيف يشمل، بـالإضـافـة إلى اللغـة التركية، على لغات أخرى : كاليونانية الحديثـة، والإيطالية، والإسبانية، واللاتينية، والعبرية . كما أنـه كان يشتمل كذلك على دراسة للقـانون التجارى، ودراسة مقـارنة لأخـلاق أهل الشرق والغرب، وعلى دراسـات تـاريخية وجغـرافية للشرق، ودراسـة للعلوم الطبية، والطبيعية، والرياضية، وللرسم(٢) .

وإذا كـان هذا البرنـامج مثقلا، نظـريا، إلى هـذا الحد، فإننا نلحظ أنـه لم يكن

(١) انظر: Dupont-Ferrier (G.), op.cit.t.II,p.189.
(٢) انظر: op.cit., t.II,190.

يطبق بحذافيره، وإنما كان، على الأغلب، مرنا يتـلاءم مع طبيعة التلاميذ والأساتذة والفترة التي كانوا يمرون بها من حياة المدرسة.

وقد كان تلاميذ هذه المدرسة يُختـارون من بين الأطفال، ليكونوا أقدر على التقاط اللغـة وتشربها عن طـريق السماع والممارسـة معـا، لأن ألسنتهم تكـون أطـوع لتلقي الألفاظ ونطقها بـاللغة التى يتعلمونها بدقة، كما أنها سريعـة الانطباع في أذهانهم إلى حد إتقانها إتقان أهلها لها بلا أى فارق.

وقد فُتح أمام هؤلاء الأطفال، في المستقبل، باب الطموح على مصراعيه، إذ كان بإمكان أحدهم أن يحصل ـــ بعد استكمال معارفه ونضجـه ـ على منصب مستشار في إحـدى القنصليـات الفـرنسيـة المنتشرة في مـدن المشرق، وأن يصبح قنصـلا لبـلاده فيها.

وكان ملك فرنسـا يتحمل تكاليف هؤلاء التلاميذ ونفقـاتهم، على أمل تعويضها في المستقبل لدولته بما يؤدون لها من خدمات نافعة في ميدان الترجمة(١).

وقـد أطلق على هــذه المدرسـة اسم مـدرسـة (أطفـــال اللغــات) Enfants de Langues، إلى جـانب الاسم الذى مـر بنا آنفـا، وهذا الاسم الأخير تـرجمة فرنسيـة لاسمها بالتركية، وهو: dil oglan(٢).

وكانت هذه المدرسة قد مرت، منـذ تأسيسها سنة ١٦٦٩ إلى أن اندمجت نهائيا، سنـة ١٨٧٣، بمـدرسـة أحـدث ظهـورا منهـا هي مـدرسـة اللغـات الشرقيـة التى سنتحدث عنهـا لاحقا في هــذا الفصل، بست مراحل مختلفـة، أدخلت في كل منها تعديـلات وإصلاحـات وتطويـرات جديـدة تستهدف جميعا تحقيـق المسار الأفضل للمدرسة، من أجل الحصـول على نتائج جدية وجيدة، وعلى مـردودات تخدم الغاية التي أحـدثت لها. وفيما يلي عـرض لهذه المراحل الســت ولما تميـزت بـه كل منهـا من سمات:

(١) انظر: op.cit., t.II; p.190-191

(٢) انظر مادة (Jeunes de Langues). في Grand Larousse encyclopédique

المرحلة الأولي:

وتمتد من تأسيس هـذه المدرسة سنـة ١٦٦٩ إلى سنة ١٧٠٠ : وقد عهـد فيها إلى الآباء الكبـوشيين في كل من دير بيرا قرب استنبـول، ودير أزمير[١]، بأن يحتضنـوا التلاميـذ الذين حـدد قرار سنـة ١٦٦٩ عددهم بثمانيـة عشر تلميذا يختـارون ما بين التاسعـة والعاشرة من العمـر، غير أن هذا التحـديد في السن والعدد لم يكـن يراعى دوما.

وكان تـلاميذ هـذه الفترة من أبناء الفـرنسيين المقيمين في المشرق بسبب أعمالهم. وكـان حظ العربيـة من التعليم في هـذه الفترة معدومـا، لأن التركية هي اللغـة التي كانت تلقن لهم مع شيء من الفرنسية واللاتينية واليونانية العامية والإيطالية.

وبعد وفاة كولبير بسنتين فقط، أي في ١٦٨٥، لم يجد المعتمد الفرنسي فى استنبول مترجما نافعـا حتى في التركية، وهـذا يعني أن المدرسة لم تثمـر خلال هـذه المرحلة في حياة مؤسسها كولبير.

وطرحت، سنة ١٦٩٨، فكرة إنشاء معهد في مدينة حلب لتعليم العربية لفتيان اللغات هؤلاء، ولكن الاعتقاد السائد آنذاك بأن اللغة التركية أسهل تعلما من العربية بكثير وأكثر انتشارا في منطقة المشرق، أدى إلى تغلب تعليم التركية[٢].

المرحلة الثانية:

وتمتد من سنة ١٧٠٠ إلى سنة ١٧٢٠ : وقد أحدثـت فيها مدرسة لفتيان اللغات هـؤلاء بباريس ضمـن معهد لـويس الكبير، تحت إشراف الآبـاء اليسوعيين، وكـان طلابها من الكـاثوليك الشرقيين (اليـونان، والأرمن، والسريان)، ولما كـان الطلاب الأرمن هـم الغـالبية فيهـا خلال هـذه المرحلة، فقـد عرفت المدرسـة بهم، فقيل لها: (مدرسة الأرمن). غير أن النتيجـة كانت، كذلك، مخيبة لـلآمال المعقودة على مثل

---

(١) كـانت مدرسـة (بيرا) أهم من مدرسـة (أزمير) لقـربها من العاصمـة العثمانية والسفـارة الفرنسيـة فيها.

(٢) انظر: Dupont-Ferrier (G.), op.cit.t.II,p.193-196.

هؤلاء الأرمن، لأنهم لم يخلصوا لمصالح فرنسا في قلـوبهم ولم يصونوها، وكان سلوكهم يخالف سلـوك المبشرين. وظلت المدرسة القـائمة في بيرا بتركيـا مستمرة خـلال هذه المرحلة[١].

المرحلة الثالثة:

وتمتـد من سنــة ١٧٢١ إلى سنـة ١٧٦١: وتمثل هــذه الفترة العصر الــذهبي للمدرسـة. إذ صدر فيهـا قرار بجعل التعليم في مـدرستي باريس وبيرا مقتصرا على أبنـاء الفرنسيين وأبنـاء التجار الفـرنسيين المقيمين في المشرق، وحـدد عدد الطـلاب بعشرة في سن الثامنة يـدرسون في باريس على يد الآباء اليســوعيين، ويتلقون مبادىء العربيـة والتركية، وينقلـون من ثم إلى مدرسـة بيرا، الواقعـة في دير قـرب إستنبول، ليتعمقوا أكثر في هاتين اللغتين. وهكذا حدث تواصل وتعاون بين المدرستين في هذه الفترة، بعد أن كانت إحـداهما معزولة عن الأخرى تمامـا من قبل، وتجلت فائدة هذا التواصل في أن أبنـاء الفرنسيين في المشرق يتلقون اللغات الشرقيـة منذ ولادتهم بحكم النشأة والاختلاط بأهلها، ولـذا كان بإمكانهم مساعدة أبناء فرنسيـي فرنسا القادمين إليهم في تعلم هـذه اللغـات، في حين أن هـؤلاء القـادمين يقـدمـون، في المقـابل، المساعدة إليهم في ترسيخ معرفتهم بلغتهم الفرنسية، فالمنفعة من هذا النظام مزدوجة ومتبادلة كما يظهر لنا[٢].

وقـد اقتصر الأطفـال، في هـذه المرحلـة، على تعلم المبـادىء الأوليـة للعـربيـة والتركية، وقراءة النصوص بهما[٣]. وتخرج فيها أيضا عدد من أكابر المترجمين الملمين باللغتين العربية والتركية، ممن سنجد لهم آثارا عظيمة في تعليم العربية والتركية في كل من مدرسة اللغـات الشرقية ومعهد فرنسا، وممن سيرافقون نـابليون في حملته على بلاد مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر[٤].

---

(١) انظر: op.cit., t.II, p.197-204

(٢) انظر: op.cit., t.II, p.204-219

(٣) انظر: op.cit., t.II, p.217

(٤) انظر: op.cit., t.II, p.218

المرحلة الرابعة :

وتمتد من سنة ١٧٦٢ إلى سنة ١٧٩٦ : وقد شهدت هذه الفترة انحطاط مدرسة فتيان اللغات وحدوث الانتفاضة الثورية في فرنسا . ووجد في هذه المرحلة جملة من أساتذة العربية والتركية المشهورين، منهم: دوفيين de Fiennes، وكاردون Cardonne، وفنتور دو بارادي Ventoure de Paradis، الذين كانوا من قبل طلابا في المدرسة . وقد تولى بعضهم التدريس في المعهد الملكي (معهد فرنسا). وكان هؤلاء الأساتذة يعملون أيضا في مجال الترجمة المباشرة والوثائقية .

ولم يكن عدد الطلاب، في هذه المرحلة، يزيد في باريس على العشرة إلا نادرا[١] . وقد انهار هذا العدد، سنة ١٧٩٢، إلى طالب واحد فقط هو لوى ديغرانج[٢] L.Desgranges، وثلاثة طلاب في السنة الدراسية ١٧٩٣ ـ ١٧٩٤، وطالبين اثنين في السنة الدراسية ١٧٩٥ ـ ١٧٩٦ . وكان هؤلاء الفتية يقضون في المدرسة ما بين ثماني سنوات وإحدى عشرة سنة حتى يصبحوا صالحين للعمل الذى كان في انتظارهم[٣] .

وكان المرء يشعر، منذ عهد لويس السادس عشر بل قبيل ذلك أيضا، أن أهمية التراجمة كانت تزداد سنة بعد سنة . وكان لاخيار الترجمان الأول في استنبول، في بعض الأحيان، نتائج أكبر وأهم من اختيار السفير نفسه فيها .

وقد أضيفت اللغة الفارسية، سنة ١٧٦٤، إلى جانب العربية والتركية اللتين كانت تدرسان وحدهما حتى هذا التاريخ، في معهد لويس الكبير.

وأعلن في سنة ١٧٩٤ أن التعليم في مدرسة فتيان اللغات أصبح حرا كأى تعليم آخر، بعد أن كانت المدرسة وقفا على بعض المختارين بالوساطة أو بالوراثة، لا بالكفاءة والاستعداد غالبا . وكانت حكومة الثورة قد أغلقت معهد لويس الكبير

(١) انظر: op.cit., t.II, p.220-221

(٢) انظر : op.cit., t.III, 1923, p.9

(٣) انظر : op.cit., t.II, p.222

ومدرسة بيرا. وعلى الرغم من تأسيس المدرسة الوطنيـة الخاصة باللغات الشرقية الحية بباريس سنة ١٧٩٥ ، فقد استمرت مدرسة فتيان اللغات على قيد الحياة[١].

المرحلة الخامسة :

وتمتد من سنة ١٧٩٧ إلى سنة ١٨٢٦ : ويطلق على هذه الفترة (فترة الانبعاث)، لأن المدرسة نشطت ودبت فيها الحياة بعد فترة الهمود والركود التي مرت بها في المرحلة السابقة. وكانت مدرسة فتيان اللغـات تابعة لوزارة العلاقات الخارجية، في حين أن مدرسـة اللغات الشرقية كـانت تابعة لـوزارة الداخليـة. وكانت هاتـان المدرستان في باريس للاطلاع، وكانت مدرسة بيرا التي أعيد افتتـاحها ثانية، بالإضافة إلى مدرسة طهـران التي كان نـابليـون قد أمـر بتأسيسها سنـة ١٨٠٧ لتعليـم اللغـة الفارسيـة، مدرستين للتطبيق العملي والممارسة.

وقـد تـولى إدارة المدرسة في بـاريس في السنـة الـدراسية ١٧٩٧ ــ ١٧٩٨ فنتـور دوبـارادى، الـذى رافق نـابليـون في السنـة التـاليـة مبـاشرة في حملتـه على مصر بصفةمترجم، ومات بعد فك الحصار عن عكا سنة ١٧٩٩ ، وخلفه في إدارة المدرسة أوغست شيول A.Chayolle إلى سنة ١٨٢٦ .

وبلغ عدد طلاب المدرسة، سنة ١٨٠٣ ، أربعة وعشرين طالبا. ودرس العربية في هذه الفترة أنطوان ديغرانج A.Desgranges، ثم خلفه في تـدريسها سنة ١٨٢٥ آغوب Agoub، ويبدو أنه أرمني الأصل. ومن الطلبة الذين كونتهم هذه المدرسة، وكان لهم باع طويل في ميدان الاستعراب فيما بعد، أرمان كوسان دوبرسفال[٢].

المرحلة السادسة :

وتمتد من سنـة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٧٣ : ويبـدو أن المدرسة قد أخـذت، في هذه المرحلة، تلفظ أنفاسهـا الأخيرة، لأنها كانت تفتقر إلى عوامل البقاء والاستمـرار يوما

---

(١) انظر : op.cit., t.II, p.226-232

(٢) انظر op.cit., t.III, p.10-18

بعد يوم، وهذا ما نستشفه مما كتبه مديرها، سنة ١٨٣١، إلى وزير الخارجية إذ قال: «يبدو أن مدرستنا تحتضر». كما ألغيت في هذه السنة نفسها مدرسة بيرا قرب أستنبول، مما أدى إلى ذهاب طلاب مدرسة باريس بعد ذلك إلى قنصليات فرنسا في المشرق، ليقيموا بين أهالي البلاد ويدرسوا لغتهم ويطلعوا على أخلاقهم وعاداتهم وتقاليد عيشهم عن كثب. وارتفعت أصوات أخرى تنذر بالشؤم لهذه المدرسة من مثل: «مدرسة (فتيان اللغات) في باريس غير مجدية».

كان تدريس العربية قد أسند إلى جوبير A.Jaubert، من سنة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٢٩، ثم أسند إلى آغوب من سنة ١٨٢٨ إلى سنة ١٨٣١، ثم إلى ديغرانج من سنة ١٨٣١ إلى سنة ١٨٥٥، ثم إلى بافيه دو كورتي من سنة ١٨٥٥ إلى سنة ١٨٨٩.

وبما أن احتلال الجزائر، سنة ١٨٣٠، كان يبشر الفرنسيين بتوسيع السياسة الإسلامية في فرنسا، فقد أنشأت الدولة كرسيا دائما لتعليم العربية أسند إلى آغوب المذكور آنفا، إلا أن هذا الكرسي ألغي عندما غادر هذا الأخير باريس سنة ١٨٣١، فعد ذلك دليلا على ارتباط مصير تعليم العربية في المدرسة بشخص معين لا بسياسة ثابتة أو فكرة مستقرة ومستمرة(١).

وقد لقي اقتراح جوانان Jouannin، مدير المدرسة، بالاشتراك مع كل من الأستاذين بيانكي Bianchi وديغرانج، بأن يرسل فتيان اللغات للإقامة سنة على الأقل في ميناء تركي، ثم سنة أخرى في ميناء عربي (طرابلس أو بيروت غالبا)، ترحيبا من المسؤولين، فصادق عليه الملك لويس ـ فيليب، سنة ١٨٣٤. وكان على القنصل في كل ميناء منهما أن يختار لهؤلاء الفتيان أستاذ اللغة العربية أو التركية. وكان على الفتيان أن يمتحنوا كل ستة شهور بإشراف القنصل نفسه.

واستمر هذا التنظيم إلى أن ألغي وحلت محله الدروس الملقاة في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس سنة ١٨٧٣، وهذا يعني أن طلاب المدرسة قد أصبحوا تابعين

(١) انظر: op.cit., t.III, p. 24-28

عمليا للمدرسة الأخيرة. وهـذا ما شجع على دمج مدرستهم، أخيرا، بالمدرسة الأقوى ودروسها الأعمق(١).

وربما كانت فكرة إرسال بعض الطلاب الفرنسيين اليوم إلى كل من معهد القاهرة الفرنسي للدراسات الشرقية، أو إلى معهد دمشق الفرنسي للدراسات العربية، مستوحاة من الطريقة القديمة في إرسال الطلبة إلى المشرق العربي ليتمرسوا عن كثب بكتابة اللغة العربية وتعلمها واستعمالها الحي بين أهلها.

وبهذا نجد أن مدرسة اللغات الشرقية قد امتصت شيئا فشيئا مدرسة فتيان اللغات، واستطاعت أخيرا أن تحتل مكانتها، وذلك لأنها تحمل أهدافها نفسها، وترمي إلى غاياتها نفسها، فأصبحت لذلك وريثتها الشرعية في تعليم العربية والتركية والفارسية، بل تفوقت عليها بتدريس عدد آخر كبير من اللغات الحية المستعملة في أفريقيا والشرق الأوسط والأقصى في الوقت نفسه، وتوسع نشاطها ليشمل أيضا لغات أوربا الشرقية نفسها، وبذلك أصبحت هذه المدرسة المؤسسة المسؤولة عن تكوين مترجمين وتخريجهم، استجابة لمختلف المناصب والوظائف والمصالح والخدمات التي تحتاج إلى مترجمين ووسطاء في نطاق الدولة أو على مستوى الأفراد على حد سواء.

وقد خرَّجت مدرسة فتيان اللغات، منذ تأسيسها سنة ١٦٦٩ إلى تاريخ اندماجها في مدرسة اللغات الشرقية سنة ١٨٧٣، أي خلال ما يقارب القرنين من عمرها، عددا من الطلاب يبلغ قرابة أربعمئة وثمانية وخمسين طالبا، تفاوتت مصائرهم واختلفت ما بين مترجم وأستاذ ومُخْفِق، وكان منهم قلة مشهورة وأغلبية مغمورة.

وكان من أهم مدرسي العربية والتركية معا، ومعهما أحيانا الفارسية، أو من غير التركية أحيانا أخرى، منذ سنة ١٧٢١ إلى سنة ١٨٧٣، التالية أسماؤهم(٢):

---

(١) انظر: op.cit., t.III, p.29

(٢) يمكن لمن يود الاستزادة من المعلومات الإحصائية أن يراجع القوائم المثبتة في آخر البحث الذي كتبه (دوبون ـ فرييه) ونشره في المجلدين الثاني والثالث من (مجلة الدراسات الأرمنية) المذكورة أعلاه. وتتعلق هذه القوائم بالأساتذة وسنوات تدريسهم، وبالتلاميذ، وغير ذلك من الأمور.

ـ دوفيين (الأب ثم الابن)

ـ بروث Berruth

ـ أرمان

ـ بتي دولا كروا (الكساندر)

ـ كاردون

ـ لوغران Le Grand

ـ روفان P.Ruffin

ـ فنتور دو بارادي

ـ شيول

ـ ديغرانج

ـ آغوب

ـ جوبير

ـ دو كورتي

٣ ـ المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية :

وهي بالفرنسية L'École Nationale des Langues Orientales Vivantes، وتعود فكرة إنشاء هذه المدرسة إلى لوي لانغليس الذي وجه بشأنها رسالة إلى الجمعية الوطنية الفرنسية سنة ١٧٩٠، أوضح فيها أهمية تعليم اللغات الشرقية للمصالح الفرنسية الحيوية، واقترح إنشاء كرسي للعربية، وثان للتركية، وثالث للفارسية في كل من باريس ومرسيليا، لخدمة السياسة والتجارة والعلم معا في فرنسا، وبيّن للجمعية في رسالته المهمة تلك أن المعهد الملكي في فرنسا (معهد فرنسا) لا تملك دروسه الأهلية المطلوبة لهذه الواجبات، ورأى أن هذه المؤسسة كانت مخصصة للثناء على غرور الملك أكثر من خدمتها الخالصة للعلم والدولة، غير أن مشروعة هذا أهمل في أدراج الجمعية من غير أن يكتب له أن يرى النور أو بصيصا منه، حتى أعاد لانغليس عرض هذا المشروع، مرة أخرى، مع لاكنال Lakanal، رئيس لجنة التعليم العام في الجمعية، سنة ١٧٩٥، وقد أوضح لاكنال، في تقريره حول الموضوع، أن

اللغات الشرقية كانت مهملة في فرنسا منذ بداية القرن الثامن عشر، وأنها قد أهملت تماما أيضا في عهد الثورة، ثم برهن على انحطاط الدراسات الشرقية في فرنسا، ومنها الدراسات العربية، في الفترة الواقعة بين سنة ١٦٩٦ وسنة ١٧٧٩، بقوله أنه لم يطبع في فرنسا خلال الفترة المذكورة سطر واحد بحروف عربية(١).

وبعد جلسة عاصفة ومناقشات حادة تمت الموافقة، في الجمعية الوطنية، على إنشاء المدرسة المقترحة، وصدر بذلك مرسوم ١٠ جرمينال(٢) من السنة الثالثة (ويقابل هذا التاريخ ٣٠ آذار من سنة ١٧٩٥)(٣). وقد نصت المادة الأولى من هذا المرسوم على تأسيس «مدرسة تخصص لتعليم اللغات الشرقية الحية ذات الفائدة الملموسة للسياسة والتجارة»، على أن يتم قيامها في نطاق المكتبة الوطنية التي أنشأتها حكومة الثورة بباريس، وأطلق على هذه المدرسة اسم (المدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية)(٤) l'École Spéciale des Langues Orientales Vivantes.

ونص مرسوم التأسيس هذا في المادة الثانية منه على تعليم اللغات الثلاث: العربية فصحى وعامية، والتركية، والفارسية. ونصت المادة الثالثة على وجوب أن يُعَرِّف مدرسو هذه اللغات طلابهم بالعلاقات السياسية والتجارية القائمة بين فرنسا والشعوب التى تتكلم بها. ونصت المادة الرابعة منه على وجوب تأليف أساتذة هذه اللغات كتبا في نحو هذه اللغات باللغة الفرنسية ليستفيد منها طلابهم الفرنسيون(٥).

---

(١) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.III-V

(٢) وهو الشهر السابع في التقويم الجمهوري الذي وضعته الثورة الفرنسية، ويوازي في التاريخ الميلادي الفترة الممتدة من ٢١ آذار إلى ١٩ نيسان.

(٣) انظر: op.cit., p.III.

وانظر ايضا: Blachère (R.), L'arabe littéral, in: 150e de l'E.L.O., Paris, 1948, p.47.

وكذلك: Deny (J.), L'École Nationale des Langues Orientales Vivantes, in: 150e de l'E.L.O., Paris, 1948, p.1.

(٤) انظر: op.cit., p.8-9

(٥) انظر مواد هذا المرسوم في: op.cit, .,p.7

وفي carrière (A.), op.cit., P.V.

وقد مـر بنا من قليل آنفا أن هذه المدرسـة قد امتصت، بالتـدريج، ومنذ نشأتها حتى سنـة ١٨٧٣، تلك المدرسـة التي سبقتهـا في الـوجود بنحـو قـرن وربع القـرن تقريبـا، وهي مـدرسة (فتيان اللغـات)، واحتلت مكـانتها وأدت دورهـا في إعداد أجيال متـوالية من المترجمين لسـد حاجات الـوظائف العـامة والخاصـة التى تتطلبها المصالح الفرنسية، وخاصة في ميدان السياسة والاقتصاد التجارى والمجال العسكرى الاستعماري الذي كان يشغل بال البرجوازية الحاكمة بعد الثورة الفرنسية[١] .

كانت هـذه المدرسة تابعة لـوزارة الداخلية، وظلـت كـذلك إلى سنة ١٨٣٢، ثم التحقت بـوزارة التعليم العام، ثم استبـدلت كلمة (الـوطنية) nationale بكلمـــة (الخاصـــة) Spéciale، في تسمية المدرسة، في مـرسوم صدر في ٨ حزيـران من سنة ١٩١٤[٢].

وفي بداية القرن التاسع عشر، راح الفيلولوجيون[٣] يسعون إلى فرنسا من مختلف أنحـاء أوربا، كألمانيـا وإيطـاليا وإسبـانيا والسـويـد وفنلندا، لـلاستماع إلى دروس المستعرب سلفستر دوسـاسي الذى عـرفه ببـاريس الشيخ رفـاعة الطهطـاوى، أثناء بعثتـه إلى فـرنســا، وعن ذلك يقـول: «اجتمعت في بـاريس بفــاضل من فضـلاء الفرنسـاوية شهير في بلاد الإفرنج بمعـرفة اللغات الشرقيـة، خصوصا اللغة العـربية والفارسية، يسمى البارون سلوستر دساسي»[٤]. وقد تخرج على يدى دوساسي هذا طلائع المستعربين الأوربيين في القـرن التاسع عشر، وكان هؤلاء المستعـربون بدورهم يسيرون فـور عـودتهم إلى بلدانهم على نهج أستـاذهم وخطتـه ذات التأثير العميق في نفوسهم، وصاروا بذلك أساتذة لعدد كبيرمن المستعربين في أقطارهم، ممن تلقوا على

---

(١) انظر: op.cit., p.XXIII
وقد ذكـر كاريير (في P.X) نبذة من خطاب لانغليس في طلبتـه يبين لهم فيها هدف التعليم في هذه المدرسة.

(٢) انظر: Deny (J.) op.cit., p.9-11.

(٣) الفيلولوجيون: هم العلماء الذين يعمدون إلى دراسة الحياة الفكرية لشعب من الشعوب أو لعصر من العصور من خلال النصوص التي تمثل تلك الحياة.

(٤) انظر: تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي، ضمن كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص ٢١٨.

أيديهم خلاصة نهج الأستاذ الأول دوساسي وروحه وحيويته في ميدان الدراسات العربية خاصة، والشرقية على وجه العموم. ولهذا كله عُدَّ دوساسي بحق مؤسس الدراسات العربية في أوربا قاطبة، انطلاقا من فرنسا، على قاعدة من الدراسة العلمية الراسخة للغة العربية والنصوص العربية المخطوطة في مختلف الموضوعات.

ومن أبرز أسباب شهرة هذا المستعرب وذيوع صيته في الآفاق، طوال القرن التاسع عشر، منهجه في الدراسة من نحو، وفي التدريس من نحو آخر. وكذلك عمق ثقافته وتنوعها، وشخصيته الإنسانية، وامتداد فترة تدريسة ما يقارب ثلاثا وأربعين سنة (من سنة ١٧٩٥ إلى وفاته سنة ١٨٣٨)، وتخريجه لعدد كبير من الطلاب، الذين أصبحوا بدورهم أساتذة لغيرهم من الطلبة، كما أنه كون عددا من المريدين والأتباع والمعجبين بطرائقه وآثاره وشخصيته. يضاف إلى ذلك كله شغله لمناصب عديدة في مؤسسات علمية وتعليمية مختلفة، إلى جانب المناصب الإدارية في عدد من المؤسسات الأخرى(١).

ومما يدلنا على أهمية دو ساسي وتأثير شخصيته الفريدة في ميدان الدراسات العربية والشرقية على حد سواء، أن الناس شعروا، حين مات سنة ١٨٣٨، أن مدرسة اللغات الشرقية قد دفنت معه، لما كان له من هيمنة عليها، ولما ترك عليها من بصمات لا تمحى(٢).

مر بنا، من قبل، أن مدرسة اللغات الشرقية هذه قد تم إحداثها في نطاق المكتبة الوطنية بباريس، وهذا يعني أن المخطوطات العربية والشرقية كانت في متناول الأساتذة والطلاب معا، وبسهولة، لتيسير عملهم في الدراسات، من غير عقبات ولا صعوبات. والمكتبة، كما هو مسلم به، هي الأداة الأولى للعمل والبحث. ولكن مشكلة وجود مكتبة خاصة للمدرسة لم تظهر إلى حيز الواقع إلا حين تم نقل هذه

---

(١) انظر: Deny (J.), op.cit., P.8. Blachère (R.), op.cit., P.49. Dugat (G.), op.cit., t.I, p.XLIV

(٢) انظر: Carrière (A.), op.cit. p.XXIII.

المدرسة، بعد توسعها، سنة ١٨٣٤، إلى مقر جديد، ثم استفحلت هذه المشكلة أكثر بانتقال المدرسة ثانية إلى مقر آخر غيره في المدينة سنة ١٨٧٣، نظرا للبعد الذي كان بين المدرسة في مقرها الأخير والمكتبة الوطنية الباقية في مكانها، إذ لم يعد بالإمكان استغلال الكتب والمخطوطات بسهولة لا من قبل الأساتذة ولا من قبل الطلاب. وهذا ما دفع المسؤولين في المدرسة إلى تأسيس مكتبة خاصة بها، تظل في خدمتها وفي متناول الباحثين دوما وتنتقل معها إذا انتقلت(١).

بدأت المدرسة دروسها، كما هو معلوم، باللغات العربية والتركية والفارسية، لأنها لغات الشعوب الأكثر حيوية والأقرب إلى أوربا، وهي ذوات الصلة المباشرة بالمصالح، وهي في الوقت نفسه أهم الشعوب الاسلامية في منطقة الشرق الأوسط أو الأدنى.

ثم تتالت بعد ذلك اللغات الشرقية في الدخول في حيز التعليم في هذه المدرسة وتنوعت: فأسس كرسي للعربية العامية المغربية سنة ١٨٢١، وتلاه كرسي للعربية العامية المشرقية سنة ١٨٩٩، وقد بقي هذا الأخير إلى سنة ١٩٣٤، ثم ألغي لأسباب اقتصادية، وأعيد إنشاؤه ثانية سنة ١٩٤٧(٢).

وألغي كرسي العربية الفصحى فى المدرسة بوفاة رينو Reinaud سنة ١٨٦٧، وكان خليفة دو ساسي فيه منذ وفاته سنة ١٨٣٨(٣)، ثم أعيد إحياء هذا الكرسي سنة ١٨٧٩ على يد المستعرب هرتويغ ديرنبورغ(٤) وهو ابن المستعرب جوزيف ديرنبورغ، فاستمر في منصبه هذا حتى وفاته سنة ١٩٠٨(٥).

وخلف ديرنبورغ، في كرسي العربية الشاغر، المستعرب غودفروا ـ ديمومبين حتى سنة ١٩٣٥. ثم خلفه فيه المستعرب الشهير ريجيس بلاشير حتى سنة ١٩٥٠، التي

---

(١) انظر: Derenbourg (H.), Silvestre de Sacy, Paris, 1895, p.23.

(٢) انظر: Deny (J.), op.cit., p-16-17.

(٣) انظر: Carrière (A.), op.cit., p. XLV.

(٤) انظر: op.cit., p.LI.

(٥) انظر: Blachère (R.), op.cit., p.50.

شهـدت انتقال هـذا المستعرب من مـدرسـة اللغات الشرقيـة إلى جامعـة السوريـون للتـدريس فيها، فكـان بذلك خـامس من تـولى هذا الكـرسي في تلك المدرسة منـذ تأسيسه سنة ١٧٩٥ إلى سنة ١٩٥٠[١].

وقد استخدم في هذه المدرسة بعض العرب مدرسين أو معيدين للعربية الفصحى أو العامية، ومن هؤلاء المصرى دوم رفائيل، المولـود في القاهرة، وكان عضوا في معهد مصر، وكان قد أدى خدمات عظيمـة للجيش الفرنسي أثناء الحملة على مصر، وكان راهبا، إذ عين أستاذا مساعدا سنة ١٨٠٣ لإعطاء دروس عامة عن العربية العامية، مع مهمـة العمـل على تـرجمة بعض المواد المتعلقـة بتـاريـخ العـرب وآدابهم من المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس[٢]. وقد كانت ترجماته هذه التي كان يقوم بها تزود مؤلفي الكتاب الشهير (وصف مصر)، الذي صدر سنة ١٨٠٩، بالمواد الأولية الضرورية لموضوع هذا الكتاب. وكان هذا الراهب قد آثر النزوح عن وطنه إلى فرنسـا مع الحملة العائدة التي تجر ذيول الخيبـة، على البقاء فيه، لما كان ينتظـره بعد جـلاء الحملـة من مصـاعب بسبب تعـاونـه مع الأجـانـب ومسـاعـدتهم وتسهيل مهمتهم، وقد استمر في منصبه المذكور آنفا إلى سنة ١٨١٦[٣].

وقـد أسند هـذا المنصب نفسـه، بعـد دوم رفائيل، إلى مصرى لاجـىء آخر هـو ميشيل صباغ، غير أنه توفي في السنة نفسها التي عين فيها، وهي سنة ١٨١٦، وكان قـد كلف بإعطاء دروس تتعلق بـالكتابـة العـربية ولفظهـا ومحادثتها، وكلف أيضـا بالعمل في نسخ المخطوطات العربية المستعارة من المكتبات الأخرى خارج فرنسا[٤].

---

(١) انظــــر: Cohen (D.), Régis Blachère (1900-1973), in: Journal asiatique, t.CCLXII, 1974, p.1-10, Élisséeff (N.), Régis Blachère (1900-1973), in: Arabica, T.XXII, 1976, P.1-5.

وانظر ترجمة النبـذة الأخيرة في أول ترجمتنا كتاب بلاشيـة وسوفاجية: قواعـد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها، ص ٢٣ ـ ٢٩.

(٢) انظر: Meuvret (C.), op.cit., P.395.

(٣) انظر: Carrière (A.), op.cit., P.XX.

(٤) انظر: Carrière (A.), op.cit., P.XXI. Meuvret (C.), op.cit., P.396.

واستمر هذا المنصب شاغرا، بعد وفاته، إلى أن عين فيه لاجيء مصري ثالث هو إليـاس بقطـر، سنـة ١٨٢٠، وكان أيـام الحملـة الفـرنسيـة يعمل مترجما في الجيش الفرنسي بمصر. وكان موضوع تعليمه هو العربية العامية[١]. غير أن حبل العمر لم يمتد به طويلا، إذ توفي سنة ١٨٢١، تاركا خلفه قاموسا فرنسيا ـ عربيا نشره فيما بعد المستعرب الفـرنسي الذى خلفه في كرسي العـربية العاميـة، وهو كوسان دو بـرسفال الابن، الذى تحدث عنه رفـاعة الطهطاوي في كتابه (تخليص الابـريز) وسماه (كوسين دى برسوال) ووصفه بأنه «مدرس اللغة العربية المتداولة في المحاورات المشهورة باسم الدارجة عنـد العامة بدار كتب خانة السلطـانية بباريس»[٢]، وعقد معـه صداقـة بباريس. وقد استمـر هذا المستعرب طويلا جدا في منصبـة من سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٧١، أي نصف قرن من الـزمان، وكـان قد ألف لطـلابه كتابـا في نحو العـربية العـاميـة[٣]. وكان دو برسفـال قد خلف أباه في تعليم العربيـة الفصحى في معهد فرنسا، من سنة ١٨٣٣ إلى أن توفي ـ كما ذكرنا من قبل ـ سنة ١٨٧١[٤].

وشغل دوسلان، بعـد دو برسفـال، كرسي العـربية العاميـة في مدرسـة اللغات الشرقيـة، وكان دوسـلان هـذا من المدرسة الجزائريـة في الاستعـراب. ثم خلفه فيـه شربونو Cherbonneau من سنة ١٨٧٩ إلى سنة ١٨٨٢. ثم شغـر هذا الكرسي إلى أن شغلة المستعرب أوكتاف هوداس O.Houdas، من المدرسة الجزائرية نفسها، سنة ١٨٨٤، وظل فيـه إلى سنة ١٩١٦. ثم خلفـه فيـه المستعرب وليم مـارسيه إلى سنـة ١٩٢٧. وكان هؤلاء المستعـربون جميعا يهتمون بتـدريس اللهجات العربيـة المغربية نظرا لكـونهم ينتسبون إلى المدرسة الجزائريـة في الاستعراب الفرنسي، وقـد أسهموا في استكشـاف هـذه اللهجات ودراستها إسهـاما كبيرا[٥]، تنفيذا لسياسة استعماريـة ماكرة طويلة الأمد، ترمي في نهايـة المطاف إلى فرنسة الجزائر ودول المغرب العربي التي

(١) انظر: Carrière (A.), op. cit., p.XXII.
(٢) انظر: تخليص الابريز في تلخيص باريز لرفـاعة الطهطاوي، ضمن كتاب : أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص ٣٢٧.
(٣) انظر : Carrière (A.), op. cit., p. XXIII.
(٤) انظر : Colin (G.S.), op.cit., p.107.
(٥) انظر : Carrière (A.), op.cit., p.LI, op.cit., 108-109.

أدخلوها في ظلال استعمارهم على التوالي.

وكان كرسي العربية العامية المشرقية قد أسند في سنة ١٩٠٩ إلى المستعرب بارتيليمي Barthélémy، الذى وضع في سنة ١٩٠٣ قاموسا عربيا ـ فرنسيا للهجات السورية، من غير أن ينشره إلا في وقت متأخر. وخلفه في هذا الكرسي سنة ١٩٢٩ الراهب اللبناني ميشيل فغالي، إلى أن ألغي ــ كما سبق أن قلنا ــ لأسباب اقتصادية سنة ١٩٣٤ . غير أن ميشيل هذا استمر في تعليمه تطوعا من غير مقابل حتى وفاته سنة ١٩٤٥ .

وكان هنالك معيد من أهل اللهجات العربية المشرقية المدروسة في المدرسة يعمل من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩٣٤ إلى جانب أستاذ العربية العامية[١]. ثم صدر سنة ١٩٤٧ مرسوم وزارى بإعادة إنشاء كرسي العربية المشرقية في المدرسة وتم إسناده إلى المستعرب جان كانتينو J.Cantineau الذى اشتهر بمجموعة من الكتب حول عدد من اللهجات العربية العامية المشرقية والمغربية[٢].

وكانت دراسات تكميلية قد أنشئت سنة ١٨٧٢ تتعلق بتاريخ الدول الإسلامية وجغرافيتها وتشريعاتها، وهو ما نصت عليه المادة التاسعة من مرسوم تنظيم المدرسة الصادر سنة ١٨٦٩ ، وأسندت دروسها إلى غوستاف دوغا. وقد أشار دوغا في محاضرته الافتتاحية إلى فائدة هذه الدراسات قائلا: «إنها ستسمح للطلاب بأن يدخلوا دخولا أعمق إلى حياة الشعوب الإسلامية». ثم خلفه في هذه الدراسات، سنة ١٨٨٦ ، هنرى ديلونكل H.Deloncle. ثم جاء بعده رافيس Ravisse سنة ١٨٨٨ ، وظل في هذا المنصب إلى أن تحول إلى كرسي دائم سنة ١٩٢٦ ، فكان أول من تولاه حتى وفاته سنة ١٩٣٠ ، فأسند بعده إلى المستعرب غاستون فييت، ولكن هذا الأخير انتقل إلى القاهرة ليتسلم منصب مدير المعهد الفرنسي فيها سنة ١٩٤٥ ، فحل محله مينورسكي H.Minorsky، وهو عالم بالدراسات الإيرانية، وحل فيه بعده

(١) انظر: Colin (G.S.), op.cit., p.110-111.
(٢)منها مثلا: Les parlers arabes du Horân, Paris, 1946.

كذلك جان سوفاجيه(١). وأما عن منهاج هذا الكرسي في السنوات الثلاث فكانت كما يلي:

١ ـ السنة الأولى كانت مخصصة لدراسة بدايات الإسلام والأنظمة الإسلامية وتاريخ خلافة الشرق والحركات الإسلامية الكبرى المعاصرة وجغرافية الجزيرة العربية.

٢ ـ السنة الثانية كانت موضوعاتها تتركز في الدراسة التاريخية لكل من إسبانيا (الأندلس)، وأفريقيا الشمالية، ومصر، والهند.

٣ ـ السنة الثالثة كانت تهتم بدراسة بلاد الرافدين، وفارس، وتركيا.

وكانت المادة الرابعة من مرسوم تنظيم هذه المدرسة سنة ١٨٦٩ تنص على قيام نظام المعيدين من أهل اللغة التي كانت تدرس في المدرسة، من أجل تعميق درس هذه اللغات وترسيخها(٢).

كانت مدرسة اللغات الشرقية، حتى سنة ١٨٣٠، تكون تقريبا علماء باحثين في هذه اللغات، لا مترجمين عمليين يستجيبون فعلا للحاجات المادية الملحة، ويعزى ذلك إلى قصور المناهج المتبعة في التدريس والتكوين، لأن معظمها كان نظريا غير كاف لمهنة مترجم.

وكانت هنالك أمور كثيرة تلح على توسيع نشاط المدرسة، كالتوسع الكبير الذى طرأ على العلاقات التجارية الفرنسية مع آسيا، ثم تلك العلاقات الجديدة مع المنطقة العربية، وخاصة بعد احتلال الجزائر، ثم تونس، ثم المغرب، ثم سورية على التوالى خلال قرن من الزمان. كما أن توسع الحركة العلمية كان يلح على زيادة نشاط المدرسة أيضا. ونستطيع أن نقول باختصار أن العلاقات التجارية والسياسية

---

(١) انظر :

Drugeon (o) Géographie, histoire, institutions des États musulmsnd. in : 150e de L'E.L.O./ paris. 1948. p.389

(٢) انظر : Carrière (A.), op.cit., P.XLVII-XLVIII. Deny (J.), op.cit., p.10.

والاستعمارية والعلميـة كانت جميعا وراء تطـويـر مـدرسـة اللغـات الشرقيـة وازدهارهـا[١].

ولم تقتصر المدرسة، نتيجة هذه الضغـوط الداعية إلى تـوسيعها بـاستمرار، على تعليم اللغات الإسلاميـة الثلاث الأولى التي ذكرناهـا من قبل، بل توسعت لتشمل عددا جديدا من اللغات الإسلامية وغير الإسلامية من لغات الشرق، حتى أن بعض اللغات الواقعة في شرق أوربا وفي أعماق أفريقيا أخذت سبيلها شيئا فشيئا إلى قاعات التـدريس في هذه المدرسـةومعنى ذلك أن هـذه المدرسة أخـذت تشمل مساحـات جغـرافية متـزايدة أكثـر فأكثر على خـريطـة العالم القـديم بقاراتـه الثلاث: آسيـا، وأفريقيا، وأوربا.

بلغ عدد اللغات في المدرسة، سنة ١٩٤٥، تسعا وثلاثين لغة حضارية أو ذات قيمة حضارية خـاصة، وكلها لغات حية مستعملة أو لهجـات لهذه اللغات. وهذا الامتداد الواسع جغرافيا أدى إلى عدم تطابق اسم المدرسة مع واقعها التعليمي، ولذا تعرض هذا الاسم لانتقادات كثيرة، وقدمت اقتراحات لتغييره: منها اقتراح جان دني J.Deny، مديـرها في ذكـرى تأسيسها المئـة والخمسين التي احتفل بها سنة ١٩٤٥، وهو أن يطلق عليهـا اسـم (المدرسة العليا للغـات الحية)[٢]. ولكـن تغيير هـذا الاسم لم يتم فعليـا إلا في أواخـر الستينـات، ليصبـح (المعهـد الـوطني للغـات والحضارات الشرقيـة)[٣] L'Institut National des Langues et civilisations orientales.

وكان خـريجو هذه المدرسـة، الذين تكـونوا فيهـا مستعربين أو مستشرقين، على أنواع: فمنهم دبلوماسيون يعملون في سفارات فرنسا وقنصلياتها في البلدان العربية، إمـا على أنهم سفراء وإمـا على أنهم مترجمون أو ملحقون ثقـافيون، أو مستشـارون.

(١) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.XXXIV-XXXIX.

(٢) انظر: Deny (J.), op.cit., p.17.

(٣) انظر: Cahen (Cl.) et Pellat (Ch.), Les études arabes et islamiques, in: Journal asiatique, t.CCLXI, 1973, P.91.

ومنهم مستعربون بـالمهنة، وهؤلاء علماء وهبوا حيـاتهم للتدريس والبحث والتحقيق والترجمة والتأليف. ومنهم إداريـون أو عسكريون يعملـون في المستعمرات الفـرنسية المختلفـة إبـان الفترة الاستعماريـة. ومن المستعـربين الفـرنسيين اليـوم من يعمل في وظائف ثقافية أو اقتصادية أو تجارية أو عسكرية أو إدارية أو استشارية داخل فرنسا وخارجها خدمة لمصالح الدولة أو الأفراد على حد سواء(١).

وهذه قائمة بأسماء مديرى مدرسة اللغات الشرقية هذه منذ تأسيسها سنة ١٧٩٥ إلى سنة ١٩٤٥، التي توافق الذكرى المئة والخمسين لهذا التأسيس(٢):

١ ـ لانغليس Langlès من سنة ١٧٩٦ إلى سنة ١٨٢٤.

٢ ـ دو ساسي S.de Sacy من سنة ١٨٢٤ إلى سنة ١٨٣٨.

٣ ـ جوبير A.Jaubert من سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٤٧.

٤ ـ هاز Hase من سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٨٦٤.

٥ ـ رينو J.Reinaud من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٦٧.

٦ ـ شيفر Ch.Schefer من سنة ١٨٦٧ إلى سنة ١٨٩٨.

٧ ـ دومينار B.de Meynard من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٨.

٨ ـ بوير P.Boyer من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩٣٧.

٩ ـ روك M.Roques سنة ١٩٣٧ فقط.

١٠ ـ دني J.Deny من سنة ١٩٣٨ ـ

كان نظـام المدرسة يشترط على الطـالب أن يكون حـائزا شهادة الثـانويـة الأدبية

(١) انظـر: Mirambel (A.), L'École des Langues Orientales de Paris et les études d'orientalisme, in: Revue de l'enseignement supérieur, 1957, n°2, P.116.

(٢) انظر بداية المجلد الخاص بالذكرى المئة والخمسين للمدرسة:
Cent cinquantenaire de l'École des Langues Orientales, Paris, 1948.

للتسجيل في المدرسة. وكانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، ينال الطالب في نهايتها دبلوما في اللغات الشرقية، بحسب مرسوم سنة ١٨٦٩[1]. وكان أول من حصل على هذا الدبلوم، بعد صدور هذا المرسوم، المستعرب المعروف كليمان هوار، في السنة الدراسية ١٨٧٢ ـ ١٨٧٣[2].

وكان الحصول على هذا الدبلوم من المدرسة يتم بعد إجراء امتحان يشترط في الطالب أن ينال فيه درجة $\frac{١٤}{٢٠}$، أي على نسبة (٧٠٪) من العلامة حدا أدنى في كل الفحوص الشفوية والتحريرية التى تجريها للطالب هيئة مؤلفة من أستاذ ومعيد وعضو خارجي ومن مدير المدرسة نفسه.

وكان نظام القبول يشترط في الطلاب إتمام السادسة عشرة من العمر، وأما الطالب الذى لا يحمل الثانوية، وهي المطلوبة مبدئيا للتسجيل في المدرسة، فكان يتعرض لفحص قبول خاص كان يُمكّنه بعد اجتيازه بنجاح من التسجيل في المدرسة طالبا نظاميا.

وكان الطلاب في المدرسة صنفين: الأول طلاب نظاميون يفرض عليهم الدوام المستمر في الدروس والمحاضرات. والثاني طلاب مستمعون يعطون بطاقات تسمح لهم بحضور الدروس فقط.

وكان الطالب يسجل في المدرسة مرة كل سنة أو مرتين: مرة واحدة كل ستة شهور، ويدفع رسما معينا لهذا التسجيل كان يبلغ مئة فرنك للسنة الواحدة، ولم تكن هناك رسوم على الإمتحانات[3].

وكان حملة دبلوم هذه المدرسة يحصلون على وظائف تكون عالية أحيانا في إحدى وزارات الدولة ودوائرها، كوزارة الشؤون الخارجية ووزارة البحرية أو الحربية، ووزارة الإعلام، وغيرها [4].

---

(١) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.XXXVIII et XLVII.

(٢) انظر: op.cit., p.XLIX.

(٣) انظر: Deny (J.), op.cit., p. 11.

(٤) انظر: Carrière (A.), op.cit. O p .LII.

ولمدرسة اللغات الشرقية مكتبة عامرة بأنواع الكتب المطبوعة والمخطوطات، ولها منشوراتها الخاصة، وقد بدأت تنشر مجلة باسمها منذ سنة ١٩٦٤ تسمى (مجلة مدرسة اللغات الشرقية) revue de L'É cole des Langues Orientales، غير أنها توقفت عن الصدور، سنة ١٩٦٧، بعد العدد الرابع منها، وكانت مجلة حولية تصدر كل سنة مرة.

ولابد من وقفة قصيرة عند وصف اللغات الشرقية بكلمة (الحية) التي وردت في سياق إسم هذه المدرسة، لنقول إن استعمالها هنا جاء لقصر اهتمامات المدرسة اللغوية على اللغات المستعملة في المجتمعات البشرية ولا تزال تحمل حيوية ونشاطا في مجالات جغرافية مختلفة من العالم، لما في معرفة هذه اللغات ودراستها من فائدة قريبة وعملية في خدمة العلاقات بين فرنسا والشعوب الناطقة بهذه اللغات. وتتميز هذه اللغات إذن بأنها تستعمل في الكلام الدارج، وتفهم على نطاق مجتمعها، وتستعمل في الكتابة والبحث والتأليف، كما تستعمل كذلك في القراءة أو الاستماع. وقد كان اهتمام المدرسة بمثل هذه اللغات مطابقا مطابقة تامة لاهتمامات مدرسة فتيان اللغات التي مرت بنا من قبل، ولكن على نطاق أوسع بكثير وأعمق وأقوى. وإذا كانت المدرسة قد حصرت اهتمامها بصراحة في اللغات الحية، فإننا نجد معهد فرنسا، في المقابل، يتولى تدريس مثل هذه اللغات الحية جنبا إلى جنب مع ما يسمى (اللغات الميتة) التي اندثرت منذ العصور الغابرة، كالمصرية والبابلية والآشورية إلى غيرها من اللغات القديمة المهجورة في أفريقيا وآسيا. وهكذا نرى أن مدرسة اللغات الشرقية هذه كانت هي المؤسسة العلمية والتعليمية الوحيدة المتخصصة بالدراسات الاستشراقية المختلفة، ومنها الدراسات العربية، فكانت خير مركز يصل ثقافة الشرق وصلا علميا ثابتا بالثقافة الفرنسية خاصة والثقافات الأوربية على وجه العموم[1].

(١) انظر: Mirambel (A.), L'orientalisme d'hier et d'aujourd'hui, in: Revue de l'E.L.O., t.I, 1964, p.4 marg. 1.

٤ ـ مؤسسات علمية أخــرى للبحث في الدراسات العربية وتعليم اللغة العربية:

كـانت المؤسسات التعليميـة الثلاث التي أتينـا على الحديث عنهـا آنفا من أبـرز المؤسسات الاستعرابية والاستشراقية لتعليم اللغة العربية والاهتمام بحضارتها من هذا الجانب أو ذاك، وهي التي حملت لـواء الاستعراب عشرات السنين فَخَـرَّجَت أجيالا وطبقات من المستعربين الملمين بـالعربية وحضارتها، وكانـوا همزة الوصل بين العرب والفـرنسيين، والجسر الواصل بين الثقـافـة العربيـة والفرنسيـة خـلال أربعة القـرون الأخيرة.

ولكننا لا نستطيع، مع ذلك، أن نهمل ذكـر مؤسسات علمية وثقـافية وتعليمية أخرى ظهرت، بـالتوازي مع تلك المؤسسات الثلاث، داخل فـرنسا وفي مستعمراتها السابقـة، وكانت لها إسهـامات كثيرة في مجال تنشيط حـركة الاستعـراب الفرنسي كما كان لها يد طـولي في العلاقات القائمـة في الماضي ـ كما في الحاضر ـ بين فرنسـا والأمة العربية، بل إن دورها في العلاقات المستقبلية بين الطرفين سينمو ويزداد باطراد ومن غير تـوقف، نظـرا لتوثق هـذه العـلاقـات مع ازدياد حـاجـة الفـرنسيين إلى خدمة مصالحهم الحيويـة الكثيرة المرتبطة بالطرف العـربي واسع الامتداد على الجانب المقابل للبحر الابيض المتوسط.

لن نقف طـويـلا عنـد هذه المؤسسـات ولن نتعمق في دراسـة نشأتها وتطـورهـا وميادين نشاطهـا المختلفة، بل سنلم بها إلمام تذكير، ماريـن بها مرورا سريعا، ذلك لأنها غطت أكثر فروع الاستعراب ومعظم ألوان الدراسات العربية فيه: فخاضت في اللغـة والأدب والتاريخ والـدين والجغرافيـا والاجتماع والسياسـة والاقتصاد والعلوم والفلسفـة والفنـون وغيرهـا. ولكن ميــزة هـذه المؤسســات أن خـوضهـا في عبـاب الـدراســات العـربيـة لم يكن، في أغلبـه، خـوض تلقين وتعليم للمبـادىء الأوليـة والأسس، بقــدر مـا كـان خــوض بحث واستقصـاء وتحليـل واستنبـاط على أعلى المستويات.

وفيما يلي أبرز هذه المؤسسات وأهمها:

١ ـ جامعة السوربون.

٢ ـ جامعات باريس والمعاهد والمراكز التابعة لها داخل فرنسا وخارجها: كمعهد الدراسات الإسلامية، ومركز الدراسات العالية للإدارة الإسلامية، ومركز دراسات الشرق المعاصرة، والمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، وغيرها.

٣ ـ المدرسة التطبيقية للدراسات العالية (وكانت قد أسست سنة ١٨٦٨).

٤ ـ الجامعات الفرنسية في الأقاليم، كما في: جامعة ايكس ـ آن ـ بروفانس، وجامعة بوردو، وجامعة مونبلييه، وجامعة ليون، وجامعة ستراسبورغ، وغيرها.

٥ـ المركز الوطني للبحث العلمي بباريس.

٦ ـ مدرسة اللوفر (التي تأسست سنة ١٨٨٢).

٧ ـ المدرسة الاستعمارية (تأسست سنة ١٨٨٩) التي تحولت إلى (مدرسة فرنسا ما وراء البحار)، ثم أصبحت تعرف باسم (معهد الدراسات العالية لما وراء البحار سنة ١٩٥٩).

٨ ـ المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

٩ ـ معهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب بجامعة الجزائر (وقد تأسس سنة ١٩٣٤).

ومن الطبيعي ألا يظن المرء أن هذه المؤسسات كلها باقية على ماهي عليه في أيامنا هذه، ذلك لأن سنة الحياة والتطور تعمل فيها دائما، فمنهامااندثر، وأصبح في ذمة التاريخ عبرة لمن اعتبر، ومنها ما اندمج في غيره وانصهر، ومنها ما تغير اسمه وتجدد رسمه ووضعت له غايات غير الغايات الأولى وأنظمة غير الأنظمة المعمول بها فيه سابقا. بل ربما ظهرت إلى مسرح حركة الاستعراب مؤسسات غير ماهو مذكور هنا ولم يصل إلى علمنا خبره ضمن نطاق الاطلاع، لأن ظروفا كثيرة قد تغيرت وظهرت مابين العهدين اللذين مرت بهما فرنسا مع العرب: عهد سيطرتها على

مستعمرات عربية تابعة لها، وعهد استقلال تلك المستعمرات بنفسها من التبعية المباشرة لفرنسا. وهذا يعني أن تغيرات في طبيعة عمل حركة الاستعراب وآليتها ستظهر إلى حيز الوجود وتكون لها فعاليتها المشروعة في رسم خريطة تلك الحركة وفق تصور جديد.

ونلحظ، مما تقدم، أن فرنسا كانت مهتمة اهتماما كبيرا بالدراسات الاستشراقية والاستعرابية، فأقامت المؤسسات المختلفة داخل أراضيها وخارجها، خدمة للمصالح التي تجنيها منها في مختلف المجالات. وقد مر على فرنسا حينا من الدهر كانت فيه أنشط الدول الأوربية وأكثرها حيوية في ميدان الاستشراق، وكان لها إسهام كبير في دعم الدراسات العربية ضمن ذلك الميدان على وجه الخصوص، بما قدم مستعربوها من جهود وأنشطة على مختلف الأصعدة.

وإذا كانت هذه المؤسسات العلمية أو التعليمية الاستعرابية مختلفة أو متباينة في الظاهر، وذات نزعات كثيرة متنوعة، فإنها، من حيث الجوهر، تؤدي إلى غاية واحدة، وتقوم بأدوار مختلفة في إطار حركة واحدة، وهي بالتالي متكاملة فيما بينها تعمل جميعا من أجل سد الحاجات التي تتطلبها خدمة المصالح الفرنسية في علاقاتها مع البلدان العربية حاضرا ومستقبلا.

٥ ـ دور المستعمربين في تعليم العربية وطرائقهم:

رأينا فيما مر بنا من قبل أن اهتمام فرنسا باللغة العربية أدى بها إلى إنشاء عدد هام من المؤسسات التي تعلمها أو تقوم بدراسات حول حضارتها في مختلف ميادين المعرفة. وتتميز هذه الدراسات حتى اليوم بأنها مستمدة من المصادر العربية مباشرة عن طريق ترجمة الآثار العربية نفسها إلى اللغة الفرنسية، وأن هذه الدراسات كانت تحليلا لهذه المصادر وتعليقا عليها من أجل فهمها أو المساعدة على هذا الفهم، كما كانت أيضا تأليفا قائما على البحث والاستقصاء للوصول إلى نتائج وآراء تتعلق بالمؤلف نفسه استنادا على ما بين يديه من مستندات ونصوص ووثائق.

وكان من الطبيعي أن يشرف على مثل هذه الدراسات أناس مؤهلون للقيام بها

يكونون على اطلاع عميق أو جيد على اللغة العربية، ومزودين بقدر واف من الثقافة العربية كليا أو جزئيا، ونطلق على هذه الفئة اسم المستعربين arabisants[1]، أي: الأجانب الذين يتعلمون العربية ويقومون بدراسات عنها وعن الحضارة العربية الإسلامية على وجه العموم.

ونبين، هنا، الدور الذي اضطلع به هؤلاء المستعربون في تدريس العربية لأبناء جلدتهم من الفرنسيين، ونذكر بعض طرائقهم في تدريسها، وهل كانوا يقصرون جهودهم على تعليم العربية الفصحى أو الكلاسية أو القديمة كما يسمونها، أم أنهم كانوا يتعدونها إلى بعض اللهجات العربية العامية المنتشرة هنا وهناك في مشرق الوطن العربي ومغربه على حد سواء؟

أوضح لانغليس، في خطابه الذي ألقاه على طلبته، سنة ١٧٩٦، أن هدف التعليم في مدرسة اللغات الشرقية هو تكوين تراجمة قادرين على الحلول محل أولئك الذين كانوا يعلّمون العربية والتركية والفارسية، في مدرسة فتيان اللغات، أو تخرجوا منها وشغلوا مناصب رسمية في فرنسا أو خارجها، ممن تركوا خدمة وطنهم، بعد أحداث الثورة الفرنسية، وفروا منه مهاجرين أو منحازين إلى صفوف أعداء الثورة في أوربا، ولذا يتهمهم بالخيانة، ويصفهم بعدم الخجل من خدمة بعض الأمم المعادية لفرنسا ومصالحها، ورأى أن تصرفهم هذا ضربة قاصمة لتجارة فرنسا في الشرق، وخاصة إذا لم ينشأ جيل جديد من المترجمين المخلصين لبلادهم، ليحلوا محل أولئك الخونة العاقين في أعمالهم[٢].

وكان لانغليس يرى أن على أساتذة المدرسة ألا يقصروا دروسهم على عرض الأصول المتعلقة باللغة وشرح الصعوبات النحوية التي تعرض لهم في اللغة التي يدرسونها، وإنما يجب أن يهتموا كذلك بتنمية العلاقات السياسية والتجارية لبلادهم مع الشعوب التي تتكلم هذه اللغات، وكان مرسوم التأسيس قد بين في إحدى مواده

---

(١) انظر مادة (Arabisant) في قاموس: Larousse du XXe siècle.

(٢) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.X.

أن على الأساتـذة أن يعرّفوا طلابهم بـالعلاقات المذكـورة بين فرنسا والبلدان النـاطقة باللغات المدروسة في المدرسة[١] .

والمعـروف أن معظم التراجمة المرتبطين بمناصب دبلـومـاسية وقنصليـة في المشرق العربي والمغرب قد تركوا الخدمة بعد حوادث الثورة الدامية . وفي الوقت نفسه تقريبا ، انسحب جميع طلاب مـدرسة فتيان اللغات من معهد (لـويس الكبير) بباريس، إذ حولت الثورة اسمه إلى (معهد المساواة) Collège de L'Égalité ، ولم يبق منهم فيه سوى اثنين سنة ١٧٩٥[٢] .

كان معظم المستعـربين الأوائل، في أوربا عـامة وفـرنسا خـاصة ، فيلـولوجيين ، بمعنى أنهم كانوا يتصـدون لدراسة اللغة العربية وتاريـخ العرب وحضارتهم كلها أو في فترة من فتراتها التـاريخية ، عبر الكتـب من خلال النصـوص والـوثائق المختلفـة ، بعيدا عن الواقع الراهن أو الحي لهذه الأمة . وقد استمر هذا الاتجاه الفيلولوجي حتى منتصف القـرن التاسع عشر تقـريبا ، وكـان الهدف من وراء ذلك هو الاستفـادة من كنوز التراث القديم في مختلف الميادين[٣] .

وجاءت الحملة الفرنسية على مصر لتكشف لأعين هؤلاء المستعربين الفيلولوجيين حقيقة الواقع اللغوى فيها ، إذ لحظ المرافقـون للحملة منهم ، أمثال ج ـ ج . مارسيل J.-J.Marcel وفنتور دوبارادى ، وجود لغة عربية في بطون الكتب وعلى ألسنة العلماء والمثقفين، وهي اللغـة الفصحى ، إلى جانب لغـة أخرى ، أو إن صح التعبير: عـدة لغات ، متباينـة الألوان والأصوات ، تنتشر في البيوت والشـوارع والأسواق على ألسنة السـواد المطلق من جماهير الناس، وهي اللهجـات العـامية . فأدركـوا بذلك وجـود إزدواجية واضحة في اللغـة المستعملة في مصر، وكانت هذه صدمة قـوية لهم وكشفا مهما عادوا به معهم إلى فـرنسا ليذيعوه، وقد كانـوا من قبل يظنون أن الناس في مصر

(١) انظر: .op.cit., p.XI
(٢) انظر : .op.cit., p.VI
(٣) انظر : .Colin (G.S.), op.cit., p.103

يتكلمون تلك اللغة التي كـانوا يرونها في بطون الكتب وتلقنوها على أيـدى أساتذتهم على أنها لغة الناس في حياتهم اليومية وفي مختلف شؤونهم.

وجـاء احتلال الجزائر بعـد قـرابـة ربع قرن من الـزمـان ليعـزز لدى المستعـربين الفرنسيين هذا الكشف ويُعَمِّمُـوه على سائر البلدان العربيـة، إذ اكتشفوا وجود واقع لغوى في الجزائر مشـابة للواقع الـذي سبق لهم أن رأوه في مصر. وكان أول من أحس بهذه الازدواجيـة المترجم العسكـرى للجيش الفرنسي في الحملـة على الجزائر: جـواني فرعون، وكان من أصل لبناني.

ثم فوجىء المستعـربون الفرنسيـون بأن واقع اللهجات العـامية في الجزائر مخالف لواقع اللهجات العامية في مصر، وتم لهم ذلك بـالدراسة المقارنة بينهما لكشف مدى هذا التباين الحاصل. ودفعهم التوصل إلى هذه الحقائق إلى المبادرة بدراسة اللهجات العربية المشرقيـة تارة واللهجات العربية المغربيـة تارة أخرى، تبعا للأجـواء السياسية المتقلبة في فرنسا، وتبعا لتقلب المصالح أيضا. وقد عمدوا إلى تدريس هذه اللهجات في مـدرسة اللغـات الشرقية ببـاريس، وفي المدارس الجزائريـة التي افتتحوهـا لتعليم الفـرنسيين العـاملين في الجزائر من عسكـريين ومـدنيين عـاملين في ميادين الإدارة والإعلام والتجـارة وغيرها. وقد استعانـوا، في بداية الأمـر، بعرب مشرقيين في سبيل تعريف المستعربين الفرنسيين اللهجات العـربية في المشرق، من أمثال: دوم رفائيل، والياس بقطر. ثم تولى أمر تعليمها فرنسيون استطـاعوا الإلمام بالعربية العامية بشكل من الأشكـال، سواء أكـان اجتهـادا شخصيـا كما فعل دوبرسفـال، أم عن طـريق العيش بين المواطنين العرب أنفسهـم ومخالطتهم في حياتهم اليومية لاكتساب معارفهم الدقيقة باللهجة عن كثب، كما هي الحال عنـد معظم المستعربين الذين كانوا ينتمون إلى المدرسـة الجزائريـة في القـرن التاسع عشر، ومـن أبرزهم: شربـونـو، وهـوداس، ومارسيه. أو المدرسة المغربية، ثم المشرقية، فيما بعد(١).

ولتسهيل دراسة اللهجـات العربية العامية للفـرنسيين، وضع بعض المستعربين

(١) انظر: op.cit., p.106.

معاجم عربية ـ فرنسية لبعض هـذه اللهجات العربية ، كمعجم مارسيل الذى سماه (كنـز المصاحبـة)، ونشره سنـة ١٨٣٧ . ومعجـم اللهجات الشـاميـة الذي وضعـه بارتيليمي، ونشره سنة ١٩٠٣ .

صدر، سنة ١٨٦٩ ، مرسوم لتنظيم مدرسـة اللغات الشرقية تنظيما جديدا، وقد حدد، في مـادته الثـانية، طبيعة الـدراسات في المدرسة وهـدفها قـائلا: «إن هدف الـدروس هـو تعليم الطـلاب القـراءة والكتـابـة والحديث بـاللغـات التي تعطى في المدرسة، إضـافة إلى تعليمهم الجغرافيا السيـاسية والتجاريـة للبلدان التى تستعمل فيها هذه اللغات» .

وطالب المرسوم، في مادتـه الرابعة، باستحداث نظام المعيديـــن الذين ينتمون إلى أهل اللغـة ليكلفوا «بسـؤال الطـلاب وتدريبهم على المحـادثـة والقراءة بصـوت عال»[1] . وكان أول من تسلم هذا المنصب بعد صدور المرسوم سليمان الحرايري(!) al-Harairi ، التونسي المقيم في باريس، وحل محله، بعد وفاته سنة ١٨٧٧ ، سلسلة من الشيـوخ المصريين، الذين كـانوا ينتمـون عمومـا إلى البعثات العلميـة الدراسيـة المصرية إلى باريس، وبقي المصريون معيدين للهجات المشرقية حتى سنة ١٩٠٢ ، إذ أصبح المعيدون يعينون في هذا المنصب من أبنـاء المغرب العربي، نظرا لتحول الاهتمام الفرنسي إلى منطقة المغرب آنذاك[2] .

وكان من المفروض على الطـالـب الذى يحمل دبلوم مدرسة اللغـات الشرقية هذه أن يكون بعد تخرجه :

أ ـــ قادرا على التكلم والكتـابة بشكل منـاسب باللغـة التي درسها، مع القـراءة بسهولة، وترجمة مقالات صحفية ونصوص أدبية معاصرة متوسطة الصعوبة .

ب ـ حاصـلا على معارف مجملة قويـــة ومتماسكة عن علم اللغـة التى يدرسها

---

(١) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.XLVIII. Deny (J.), op.cit., p.10
(٢) Colin (G.S.), op.cit., p.111.

وعـــــن تاريخ البلد الذي يتكلم أهله هذه اللغة، وجغرافيته، ونظمه، وحضارته الحديثة(١).

ولتحقيق هذه الغـايات جميعا يعرض الأسـاتذة على طلابهم البنية النحـوية للغة التي يتعلمـونها، ويـدرسّـونهم نصـوصهـا الأصلية، كما يقـوم المعيـدون بإجـراء المحادثات، وترسيخ العلاقة القائمة بين السمعي والبصري(٢).

ونستعـرض، فيما يلي، بعض طرائق تعليم اللغـات الشرقيـة، ولاسيما العربيـة، للطـلاب في هذه المؤسسـات التعليميـة المختلفـة التي مرت بنـا حتى الآن: إمـا كما يحددها لنا المستعـربون أنفسهم في دروسهـم الافتتـاحية، وإمـا كما يتحدث لنا غيرهم عنها من خلال مشاهداتهم حين كانوا طلابا عندهـم، وفيها نتبين كيف كانت دروس العربية تعطى، وكيف كان الطلاب يتلقونها ويفيدون منها من الناحية العملية. .

١ ـ أعلن (إلياس بقطر)، سنة ١٨٠٢، لطلبته عن مخططه في محاضراته فقال إنه سيركز على أربع نقاط هي: القراءة، والتفسير، والكلام، والكتابة. وأضاف إلى ذلك بعض التوضيحـات فقال: بالقـراءة سنفهم التلفظ بالكلمات. وبـالتفسير سندرك المعاني المختلفة للكلمة واستعمالاتها وطـريقة ترجمتها. وكل هذه المقـدمات ستؤهلنا للكلام. وستكون هذه الأطوار جميعا مصحوبة بتمارين في الخط وفن تشكيل الحروف بالحركات والسكون عنـد المشرقيين، وبدلا من إعطاء نظرية خاطفـة عن طريقة لفظ كلمة مـا، كما يحدث غالبا حتى الآن ـ فإنني سأتلفظ بهذه الكلمـة أمام مستمعيّ، وأدعـوهم من ثم إلى تقليدي، وأمـا موضـوعـات القراءة فسنختـارها من نصـوص المؤلفين ذوي اللغة السهلة والأسلوب الواضح حتى تكون في متناول الجميع (٣).

٢ ـ وكانت طريقة (دوبرسفال)، في تعليم العربية العامية، هي أن يعرض أسس اللهجة نظـريا، ثم يمارسها بـالمحادثة عمليا، وأن يشرح لطـلابه النصوص العـامية

---

(١) انظـر: Mirambel (A.) L'École des Langues Orientales de Paris et les études d'orientalisme, in: Revue de l'enseignement supérieur, n°2, p.111, 1957.

(٢) انظر: op.cit., p.119.

(٣) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.XXII.

المنشورة ملحقا في كتابه عن النحو العربي العامي. ولم يقتصر الأمر على العامية، بل تعداها إلى العربية الفصحى السهلة، في كتب مثل (تاريخ نقولا الترك) و(ألف ليلة وليلة) و(قصة عنترة)[١].

٣ ـ وعندما عين (برينيه) Bresnier أستاذا لكرسي العربية العامية في الجزائر، سنة ١٨٣٦، قرر على طلابه دراسة نحو اربينيوس[٢] Erpenius، ونحو دوساسي، ونحو دوبرسفال. وقد عرض منهجة في التعليم، كالتالي: ثلاث جلسات لتمارين العربية المحكية، وجلسة لمبادىء النحو والكتابة والأسلوب، وجلسة لشرح النصوص العربية الأدبية والعلمية، وجلسة لترجمة الآداب، والأعمال الرسمية، والكتابات المألوفة. وظل في تدريسه هذا إلى وفاته سنة ١٨٦٩[٣].

٤ ـ وكان (شربونو) يعرض على طلابه، في السنة الأولى، نحو اللهجات العربية المختلفة، ويقارن بعضها ببعض، ثم يترجم شيئا من الأساطير والقصص الشعبية. وكان يتابع، في السنتين الثانية والثالثة، تفسير النصوص باللغة العربية الفصحى، من خلال: (ألف ليلة وليلة) و(قصة عنترة)[٤].

٥ ـ وقد أعلن (ديرنبورغ)، سنة ١٨٨٢، في إعلان دروس العربية الفصحى التي سيلقيها، في مدرسة اللغات الشرقية، أنه سيعرض على طلاب السنة الأولى: أصول النحو العربي، وسيقوم بتدريس موضوعات وتمرينات أولية للترجمة والتحليل. وأنه سيقوم بترجمة مقدمة كتاب (الفخرى) لأبن الطقطقي لطلاب السنة الثانية

---

(١) انظر: Colin (G.S.), op.cit., p.106.

(٢) اربينيوس: واسمه توماس، هولندي الأصل، عاش بين سنتي ١٥٨٤ و١٦٣٤، درس اللغات الشرقية، بما فيها اللغة العربية، بجامعة ليدن بهولندا، وقد وضع كتابا لقواعد الغربية طبع سنة ١٦٣٦، ثم طبع بعد ذلك مرارا في ليدن وغيرها من مدن أوربا، وكان له فضل نشر دراسة اللغة العربية في أوربا، انظر كتاب: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا للمستعرب النمسوي يوسف جيرا، ص ٢١ ـ ٢٢.

(٣) انظر: Massé (H.), Les études arabes en Algérie (1830-1930), Paris, 1933, p.5-6.

(٤) انظر: Colin (G.S.), op.cit., p.108.

(حسب طبعة آلفارت Ahlwardt) . وأنه سيترجم لطلاب السنة الثالثة شيئا من (مقامات الحريرى) مع الشرح المختار الذى نشره لها دو ساسي[١] .

٦ ـ زار الدكتور فيليب حتي، سنة ١٩٢٣ ، مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وحضر بعض دروس أستاذ العربية فيها ، المستعرب المعروف (غودفروا ـ ديمومبين)، ونقل لنا صورة عن طريقته فقال إنه يشرح قواعد النحو والصرف، وكتاب (السندباد البحرى) مرتين في الأسبوع لطلاب السنة الأولى . وكان كتاب الدراسة الذى يعول عليه طلاب السنة الثانية هو(ألف ليلة وليلة) . وكان طلاب السنة الثالثة يدرسون القرآن ومقدمة ابن خلدون . وكان الأستاذ المعيد ابن حموده (أحمد!) المصرى يعاونه في تلقين هؤلاء الطلبة اللهجة المصرية[٢] .

٧ ـ ويذكر الدكتور حتي، في الزيارة نفسها أيضا، المستعرب (بارتيليمي) أستاذ اللهجات العامية المشرقية، ويثني على إجادته اللهجة الشامية وكأنه أحد أبنائها . وأشار إلى معاونه الأستاذ ميشيل بيطار، ذى المولد والنشأة اللبنانيين . وكان يرى أن طريقة بارتيليمي مستحدثة في تلقين اللهجات العربية العامية . كما لحظ، في الوقت نفسه، أن معظم أساليب التدريس في سائر الصفوف بالمدرسة كانت تجرى على النمط القديم المألوف الذي سار عليه آنذاك مجمل المستشرقين الأوربيين والأمريكيين في تدريسهم اللغات الشرقية[٣] .

٨ ـ يرى ميرامبيل أن طرق تعليم اللغات كانت تشمل عموما : معرفة أصول اللغة، وشرح بعض النصوص، وإعطاء دروس لتسهيل قراءة المخطوطات من مختلف العصور، وتفسير النصوص المنتمية إلى عهود متفاوتة، ودراسة النحو التاريخي . ويرى أيضا أن لمادة التاريخ دورا هاما في تدريس الحضارة[٤] .

---

(١) انظر هذا الاعلان في آخر مقالة كاريير عن تاريخ مدرسة اللغات الشرقية .

(٢) انظر مقالة : يومان في باريس لفيليب حتى، في مجلة الهلال المصرية مج ٣٣ ، ١٩٢٣ ، ص ٨٤٣ .

(٣) م.س، ص ٨٤٤ .

(٤) انظر: Mirambel (A.), L'orientalisme d'hier et d'aujourd'hui, in:Revue de l'E.L.O., t.I, 1964, p.10 marg.1.

٦ ـ ملاحظات عامة :

ونختم هـذا الفصل بجملة مـن الملاحظات الضرورية حـول عدد من جـوانب تعليم العـربيـة في المؤسسـات الفـرنسيـة وحـول أسـاتـذة هـذه المؤسسـات من المستعربين :

كان في حـركة الاستعـراب الفرنسي مـدرسة خـاصة نشأت وتـرعرعت في الجزائر واستمرت ما بين نزول الفرنسيين في الجزائر وخروجهـم منها ، أي أن عمرها كان يمتد قرابـة مئة واثنتين وثلاثين سنة ، وظل لها تأثيرهـا وأصداؤها بعد ذلك ولا يـزال ، وقد عرفت هذه المدرسة باسم (المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي) ، ونحن ذاكرون هنـا بعض كـراسي العربيـة في الجزائر ، متطـرقين إلى أبـرز أعلام هـذه المدرسـة حتى ثلاثينات هذا القرن .

ترافقت نشأة المدرسة الجزائرية تقريبا مع بدايات الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠ التي كانت عاقبتها احتلال هـذا القطر العربي الشقيق من بلدان المغرب ، ثم تطورت وتـرسخت مع ترسخ أوتاد هـذا الاستعمار ، ونضجت الدراسات العـربية في الجزائر نضجـا كبيرا ، وتكـون في الجزائر عدد طيب من المستعـربين البـارزين الـذين عملـوا في مجال التعليم والـدراسات والـوظـائف المختلفـة ، فبـذلوا جهـودا عظيمـة لتقـريب اللغة العـربيـة والعرب وحضـارتهم وتـاريخهم إلى الفرنسيين لفهمهم أكثـر ومعرفتهم معرفة أدق وأعمق(١) .

كان جـواني فرعون ، ذو الأصل اللبنـاني ، أول من تولى تعليم العربيـة للفرنسيين في مدينة الجزائر سنـة ١٨٣٢ ، ثم خلفه في كرسي العربيـة ، سنة ١٨٣٦ ، المستعرب الفرنسي برينييه ، الذى استمر فيه حتى وفـاته سنة ١٨٦٩ ، وهذه مدة طويلة كما هو

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في : ...Massé (H.), Les études arabes
وهي في الأصل مقالة مطولة نشرت في : .La Revue africaine, Nos 356-357, 1933
وفيها تـاريخ لحركة الاستعراب والـدراسات العربية التي قـام بها مستعربون فـرنسيون في الجزائر خلال مئة سنة من الاحتـلال ، والمعلومات التـالية مستمـدة في أكثرها من هـذه المقالـة ، نظرا لرصدها الأعمال الهامة التي أنجزها هؤلاء المستعربون .

ظاهر. ثم جاء بعده كومباريل Combarel من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٧٤ . ثم تولى هـذا الكـرسي ريشبي Richebé من سنـة ١٨٧٤ إلى سنة ١٨٧٧ ، ثـم خلفه فيـه هوداس إلى سنة ١٨٨٤ ، وكـان كرسـي العربية ، في عهده ، قد انتقـــل إلى كرسـي في نطـاق (المدرسـة العليـا لـلآداب) في مـدينـة الجزائر. ثم خلفـه فيـه رني بـاسيـه R.Basset ، من سنـة ١٨٨٥ حتى وفاتـه سنة ١٩٢٤ ، وفي عهده تحولـت (المدرسة العليـا لـلآداب) إلى (كليـة الآداب) سنـة ١٩٠٩ وكـان عميـدا لها منـذ جـرى هـذا التحول .

وكان كـرسي تعليم العربية الثاني في مـدينة قسنطينة ، وقـد أنشيء سنة ١٨٤٦ ، وتولاه فينيار Vignard ، وهو مترجم عسكرى أصلا في الجيش . ثم تابعه فيه في السنة نفسها المستعـرب شربونو ، وبقي يشغلـه إلى سنة ١٨٦٣ . ثم تـولاه بعده ريشبي من ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٧٩ . وخلفه فيه بعـد ذلك مارتان Martin من سنـة ١٨٧٤ إلى سنة ١٨٨٩ ثم تولاه بعـده المستعرب موتيلينسكي Motylinski حتى سنـة ١٩٠٦ . ثم تولاه المستعرب أوغست كور بعده .

واستحدث كـرسي ثالث لتعليم العـربية ، سنة ١٨٤٦ ، في مـدينة وهـران ، وقد تولاه هادامار Hadamard إلى سنة ١٨٥٥ . ثم خلفه فيه كومباريل من سنة ١٨٥٥ إلى سنة ١٨٦٩ التي انتقل فيها إلى كرسي العربية في الجزائر بعد وفاة برينييه الذي كان يشغلـه . ثم تـولاه هوداس من سنـة ١٨٦٩ إلى سنـة ١٨٧٧ التي انتقل فيهـا لشغل كراسي العـربية في الجزائر سنـة ١٨٧٧ خلفا لريشبي . ثم خلفـه فيه مـاشويل Ma-chuel من سنـة ١٨٧٧ إلى سنـة ١٨٨١ . ثم جاء بعـده دلفـان Delphin ، ثـــم موليراس Mouliéras .

وهنـاك عـدد آخـر من كبـار المستعربين الفـرنسيين الـذين ينتمـون إلى المدرسـة الجزائريـة نفسهـــا ، فيما بعـد ، نـذكـر من أبـــرزهم : وليم مـارسيـه ، وغـــودفـروا - ديمومبين .

وضع معظم هـؤلاء المستعربين ، سـواء داخل فـرنسا أم خـارجها ، وهم الـذين

مارسوا مهنة تعليم العربية الفصحى أو اللهجات العامية وعانوا من ذلك وخاضوا التجارب واكتسبوا الخبرات، وضعوا كتبا تعليمية لطلابهم تيسر لهم دراسة العربية واستيعابها في نصوص يختارونها، وتطبيقات وتمارين عملية ونظرية يرسمونها لهم بقصد إفادتهم و إغناء دروسهم.

ونلحظ إن تعليم العربية الفصحى قد غلب عموما على دروس المستعربين الفرنسيين وكان السمة الكبيرة المميزة له. ونلحظ كذلك أن كثيرا من المستعربين الذين كانوا مكلفين بتعليم اللهجات العربية العامية المشرقية أو المغربية قد مالوا في أكثر الأحيان إلى تعليم العربية الفصحى، مهملين اللهجات العامية، كما حدث مع كبيرهم دوساسي، الذى كان يميل إلى الفصحى وحدها، مع أن تعليم العامية كان قد أسند إليه، وذلك لأنه لم يكن يفقه شيئا من العامية لعدم اهتمامه بها، وقد مزج بعض المستعربين ما بين تعليم العربية الفصحى واللهجات العامية في وقت واحد في مؤسستين مختلفتين، كما فعل دوبرسفال الابن، على سبيل المثال، إذ تولى كرسي العربية الفصحى في معهد فرنسا، بعد أبيه، من سنة ١٨٣٣ إلى سنة ١٨٧١، كما مر بنا من قبل، وكان منذ سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٧١ متوليًا لكرسي العربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية كذلك.

وكانت مؤسسات تعليم العربية للفرنسيين تلجأ منذ وقت مبكر إلى تطبيق تجربة الإقامة في المشرق في مدينة ساحلية أو داخلية، بغية تعمق طلابها في اللغة العربية فصحى وعامية إلماما عمليا مثمرا، كما فعلت مثلا مدرسة فتيان اللغات التي كان لها في تركيا ــ كما مر بنا من قبل ـ مركزان: أحدهما في ديربيرا قرب استنبول، والثاني في ميناء أزمير الواقع على بحر إيجة. وربما كانت هذه الإقامة في مدينة عربية محضة على الساحل أو في الداخل كذلك، ويتم ذلك عادة بإشراف القناصل المقيمين فيها، إذ يتوفر للطلاب بذلك فرصة ثمينة لا تعوض للإفادة من اختلاطهم المباشر بالناس في إكتساب معرفة عميقة بلغتهم ولهجاتهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم وفنونهم وطباعهم ومعتقداتهم، مما لا يتوفر مثله في أي مصدر آخر مكتوب، وهذه كلها حصيلة لا بد منها لطالب المعرفة العملية والواقعية الدقيقة بأي لغة من لغات العالم

قديما وحديثا على حد سواء، ولذا كان هؤلاء الطلاب يسكنون في بيوت عربية مع بعض الأسر.

ويبدو أن الفرنسيين قد أفادوا من هذه التجربة إفادة كبيرة في بلدان المغرب العربي بعد احتلالها، وطبقوها إلى حد ما في المعاهد الفرنسية في كل من دمشق وبيروت والقاهرة، حيث يستقبل الطلاب الموفدون لدراسة العربية، أو لمتابعة بحوث كانوا قد بدؤوا بها، أو أطروحات يعملون على جمع مادتها أو جوانبها باستمداد المعلومات من مصدرها مباشرة. وكان بإمكان بعض المستعربين، إضافة إلى كل ذلك، أن يقوموا بزيارة البلدان العربية في المشرق أو المغرب، وأن يقيموا في إحدى المدن العربية على حسابهم الخاص لتعليم العربية أو لإجراء دراسات وبحوث ميدانية (تاريخية، أثرية، فنية، فولكلورية، لهجاتية، إلخ).

ونلحظ، من خلال اطلاعنا على حركة الاستعراب الفرنسي خاصة، أن أغلب المستعربين الفرنسيين الذين حصلوا على منزلة رفيعة واحتلوا مكان الصدارة في هذه الحركة، وكانوا أكثر المستعربين قدرة وأطولهم باعا وأغزرهم إنتاجا وأعظمهم نشاطا في أكثر الميادين، إنما هم أولئك الذين مارسوا مهنة تعليم العربية في المؤسسات العلمية والتعليمية الفرنسية داخل وطنهم أو خارجة.

والحقيقة أن المستعربين الفرنسيين قد بذلوا جهودا عظيمة في تعليم العربية لأبناء جلدتهم، ليكون عملهم هذا نافذة يطلون منها على حضارة العرب وثقافتهم وحياتهم المعاصرة. وقد أدى تنظيم التعليم على أيديهم في مؤسسات تابعة للدولة إلى استمرار الدراسات العربية في فرنسا واتصالها، بعد أن كانت من قبل تتعرض لسلسلة من الانقطاعات والكبوات المزعجة، فأدى هذا الاستمرار بدوره إلى تنوع هذه الدراسات وتعمقها وترسخها في كثير من الميادين.

فإذا كانت كل هذه الجهود التي بذلها المستعربون الفرنسيون، في الأصل، خدمة لوطنهم ولثقافتهم، فإن آثارها وصداها ووهجها تم انعكاسها جميعا على لغة العرب وتراثهم وثقافتهم في العصر الحديث، ذلك لأن هؤلاء المستعربين أسهموا من حيث

يدرون أو لا يدرون، أو من حيث شاؤوا أو أبوا، في خدمة تراثنا ولغتنا، فحفظوا من ذلك التراث ما حفظوا، وأحيوا ما أحيوا، وقاموا بتنظيمه أو إن شئنا الدقة بتنظيم جزء منه قيض له الدهر أن يقع بين أيديهم، فأخضعوه للنقد والتحليل وألفوا فيه البحوث والدراسات المختلفة: ومجمل هذه الأنشطة غير التعليمية ستكون موضوعا للبحث في الفصل التالي.



الفصل الرابع :
أنواع الدراسات العربية في فرنسا

نعني (بالـدراسات العربيـة) ، هنا ، تلك الفنـون من الثقافة العـربية التي اهتم المستعربـون الفرنسيون بها ، فعملوا على نشر مخطـوطاتها ، أو قاموا بترجمتهـا إلى اللغة الفرنسية أو الاقتباس والإفادة منها ، أو أسهموا في إلقاء المحاضرات عنها ، أو تأليف كتب تبحث فيها من قريب أو بعيد: فما هـذه الدراسات التي شغلت بالهم؟ وكيف كان تناولهم لها؟ ومـا غاية كل منها؟ ومن هم المستعربـون الذين أسهموا بأعمالهم في تقديم مختلف ألوان الدراسات العربية في فرنسا ومؤسساتها العملية المختلفة؟

لا مجال ، هنا ، لتنـاول الترجمات التي تمَّتْ في القرنين الثـاني عشر والثالث عشر من اللغـة العربيـة إلى اللاتينيـة في العلوم الفلسفيـة والطبية والصيـدلية والـرياضيـة والطبيعية والكيميائية والفلكية وغيرهـا من العلوم العقلية والتجريبية ، لأنها لم تترجم إلى الفرنسية التي أصبحت فيما بعد لغة قـومية للثقافة والعلوم والآداب والفنون ، وإن كان الفرنسيون قـد استفادوا منها أحيانا إلى قرابـة منتصف القرن الثامن عشر. أضف إلى ذلك أن هـذه الترجمات تتعلق بموضـوعات خـارجة عن دائرة اهتمامـاتنا في هـذا الفصل ، إذ أن العلوم لاهوية لها ولا جنسية وهـي مشاع بين العالمين بلا استثناء ، في حين أن الـدراسات التي نـذهب إليها هنـا ، إنما هي تلك الـدراسات التي لها صلـة بالعـرب وحضارتهم الـروحية والفكـرية والشعـورية ، ولاسيما اللغـة والآداب ، أو ما يتصل بها من تاريخ وعقيدة وجغرافيا.

وإذا وصلنـا إلى أواخر القـرن السـابع عشر وأوائل القـرن الثامن عشر للميـلاد ، وجـدنا مستعـربـا ، هو أنطـوان غـالان ، يقوم بترجمة قصـص (ألف ليلة وليلـة) إلى الفرنسية ، وينشر هـذه الترجمة بين سنتي ١٧٠٤ و١٧٠٨ ، فيكون لها تأثيرات واسعة في الأوسـاط الأدبيـة وفي نفـوس المثقفين والمتعلمين من أبنـاء الطبقـات الشعبيـة ، و«مارست على الفرنسيين إغراء كبيراً جداً»(١) ، لأنها جاءت في وقت كانت الآداب في فـرنسـا تمر فيـه بأزمة خطيرة ، ذلـك لأن الجمهور كـان قـد مل سماع آداب الـلاتين

(١) انظر: Dufrénoy (M.L.), L'Orientalisme romanesque en France, Montréal,1940, p. 30

واليونان وتعب منها جملة [1].

وكانت قصص ألف ليلة وليلة جديدة على الفرنسيين كل الجدة في تقنيتها، وأسلوبها، وموضوعاتها، وأجوائها العامة، وشخصياتها، واستبطانها أغوار النفس البشرية وغرائزها وطموحاتها وأطماعها وعناصر الخير فيها على حد سواء. وكانت تكشف لهم عن بلدان الشرق والحياة الجميلة المتميزة فيه لأول مرة. ومما زاد في تشويق الناس في الغرب لقراءة هذه القصص أن غالان كتب في مقدمة ترجمته لها يقول إنها تبسط لقارئها عادات الشرقيين وأخلاقهم وشعائرهم الدينية. فالشرقيون جميعا يظهرون فيها على ما هم عليه، ابتداء بالسلطان وانتهاء بأي شخص عادي. وهكذا، فإن بإمكان القارىء أن يراهم، هنا، يعملون، وأن يسمعهم يتحدثون، من غير أن يتكبد عناء السفر للبحث عنهم في بلدانهم»[2]. وقد ألهبت هذه القصص خيال الفرنسيين خاصة والغربيين عامة، بعد ترجمتها عن الفرنسية إلى لغاتهم، تجاه الشرق، وغرست عند كثير منهم حب الاطلاع والتشوق إلى زيارة الشرق وأهله ليرى بأم عينيه ما قرأه في هذا الكتاب العربي الضخم الذي عرف اختصارا بـ (الليالي العربية). وقد أسهم هذا الكتاب فعلا في توجيه أنظار الغربيين إلى ساحة الشرق الواسعة والمتنوعة بقوة، ودفعهم إلى التعمق في دراسته وفهمه.

ولم تكن هذه القصص العربية ممتعة فقط، إنما كانت كذلك ملهمة لعدد من المفكرين، حتى إن الفيلسوف فولتير[3] «يعترف أنه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة.. وأوضح لوبون G. Lebon أن هذا الكتاب ألقى نورا ساطعا على العرب والشرقيين، وعلى الناحية الإيجابية لخصائصهم، بل لقد أثار

(١) انظر: Élisséeff (N.), Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits, Beyrouth, 1949, P.8.

(٢) انظر: op.cit., p.9

(٣) فولتير: لقب أطلق على (فرانسو ماري أرويه) الكاتب الفرنسي الذي عاش بين سنتي ١٦٩٤ و١٧٧٨. وقد تناول بالنقد أفكار عصره الكبرى، وسخر بأغلب الشخصيات المعاصرة له. وتعرض لذلك للإقامة الجبرية والسجن في الباستيل والنفي إلى إنكلترا. وقد عرف الشهرة والثراء، وقد اتجه خلال اقامته في إنكلترا الى الفلسفة الإصلاحية في تفكيره وآثاره. وقد خلد الحرية في مأساته بروتوس (سنة ١٧٣٠) وهاجم العقائد المسيحية في كتابه «رسائل الى اوراني» (سنة ١٧٣٠) وحمل على النظام السياسي الفرنسي في «الرسائل الفلسفية» (سنة ١٧٣٤) وله آثار كثيرة ومتنوعة أخرى لا مجال لحصرها هنا، منها ما كان استلهاما من الشرق العربي، وكان لجملة هذه الأعمال الغزيرة أثر عميق في تنوير الفرنسيين وتحريضهم على الثورة التي وقعت بعيد وفاته بإحدى عشرة سنة فقط (أي سنة ١٧٨٩).

في نفوس الغربيين السعي للتعرف على الشعوب التي كانت وراء هذا الأثر العظيم. وقد لا يكون من المبالغة القول ان هذا الكتاب كان أول الطريق إلى الاستشراق وانتشار حركته في الغرب» (١).

أحدث هذا العمل، إذن في فرنسا، ما يشبه الهزة الأدبية، مما شجع على الإقدام على الدراسات العربية المختلفة قدما، وانتقلت العدوى، من ثم، إلى أكثر بلدان أوربا نتيجة ذلك.

وكان من الأمور البارزة في الحياة العلمية للمستعربين المتخصصين بالمهنة أن يؤلفوا بحوثا ودراسات تتعلق بميدان تخصصهم وبميولهم الشخصية كذلك. إلا أن المرء يحس إجمالا بقلة عدد مثل هذه الدراسات التأليفية الخالصة عند هؤلاء المستعربين. وسبب ذلك واضح تمام الوضوح، في رأينا، لأن المستعرب الذي يعمد إلى تأليف دراسة ما لابد له من ثقافة جيدة في موضوع تأليفه، وهذا لا يتم إلا بالاطلاع العميق والمباشر على مصادره في اللغة العربية، وهذا يتطلب منه التمكن التام من هذه اللغة. وقد يكون اطلاعه على مصادر غير مباشرة أو مراجع باللغة الفرنسية أو غيرها من اللغات الغربية (كالإنكليزية، والألمانية، والإيطالية، والإسبانية..) رافدا لبحثه إذا استند أساسا إلى المصادر العربية مباشرة بالدرجة الأولى، إلا أنه قد يعتمد في الأعم الأغلب على المصادر غير المباشرة، فيقع عندها في الضعف والقصور ومالا تحمد عقباه. وقد تُردّ غزارة إنتاج المستعرب في ميدان التأليف إلى سعة معرفته الآثار العربية مباشرة، وتعميقه في العربية إلى حد الإفادة المباشرة. من تلك الآثار بلا عناء. ويستتبع ذلك أن قلة اطلاع المستعرب وضعفه في العربية ينعكس عليه بقلة الإنتاج.

ولاشك في أن الترجمات الفرنسية لآثار عربية كانت تقدم المادة الخام الأولية التي يستغلها أو يستعملها كل من يتصدى لدراسة أي شأن من شؤون العرب، ومن ذلك، مثلا، أنه لا يمكن تأليف دراسة في التاريخ الأدبي العربي إذا لم يكن المؤلف المستعرب ملما بكتب التاريخ العربية التي نقلت إلى الفرنسية للمقريزي وابن خلدون

(١) انظر: أثر العرب في الفن الحديث للدكتور عفيف بهنسي ص ١٠.

وابن ميسر والخطيب البغدادي والمسعودي وأبي شامة وغيرهم، ممن أرخوا للحضارة العربية الإسلامية والحوادث الاجتماعية والسياسية المختلفة في المنطقة العربية والعالم الإسلامي.

والمعروف أن عدد هذه الترجمات كان قليلا جدا أو نادرا حتى أواخر القرن الثامن عشر، ثم بدأت حركة الترجمة تنشط باطراد منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى إذا ماجئنا نحصي هذه الترجمات الفرنسية لكتب التراث العربي والثقافة العربية فإننا سنجد عددا طيبا منها يحصيه كتاب فكتور شوفان V. Chauvin الذي أسماه: (مرجعية الكتب العربية أو المتعلقة بالعرب المنشورة في أوربا المسيحية من سنة ١٨١٠ إلى سنة ١٨٨٥). ثم نجد إحصاءات أحدث منها في كتاب لنجيب العقيقي عنوانه: (المستشرقون).

ونلحظ زيادة عدد الدراسات الخالصة التي أنتجها المستعربون الفرنسيون مع زيادة عدد الكتب المترجمة من العربية إلى الفرنسية. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء المستعربين كانوا يفيدون مما ألف قبلهم من دراسات بالفرنسية بوصفها مراجع يمكنهم أن يبنوا عليها أو يستشهدوا بما فيها من آراء لمناقشتها أو استلهامها.

إلا أن المعين الثر الذي لاينضب على وجه الإجمال لأي مستعرب باحث يعمل على تأليف الدراسات يظل بلا ريب الاتقان العميق للغة العربية وقراءة ماكتب بها من آثار قراءة مباشرة. ذلك لأن اللغة هي المفتاح الحقيقي الذي ييسر سبل البحث والاطلاع في أي ثقافة من الثقافات.

يضاف إلى هذه الأدوات معرفة اللغات الأجنبية الحية غير العربية والفرنسية، لأن مثل هذه المعرفة تيسر للباحث سبل الاطلاع على ماكتب في موضوع بحثه في إحدى هذه اللغات، فيستطيع بذلك أن يلم بما قيل فيه ليضيف إليه جديدا أو ليغير مايراه غير صحيح. ومما يدفع إلى الإفادة من جهود المستعربين باللغات الأخرى إدراكنا في كل حركة استعراب أوربية إنجازات لانجدها في غيرها من الحركات، وبذلك فإنها متكاملة فيما بينها، لايمكن لإحداها أن تستغني بنفسها عن الأخريات بأي حال من

الأحوال، لأن بعضها يتمم بعضا في المنظور العام.

ونحن نجد أن أعمق الدراسات كانت ناتجة، أساسا، عن توفر الأداة الرئيسية الأولى، وهي الإلمام باللغة العربية إلماما عميقا، وليس مهما، في رأينا، أن يحسن المستعرب لغة الحديث أو الحوار بهذه اللغة كأهلها، إذ لا يعد ذلك عائقا دون الوصول إلى الغاية المتوخاة، إذ يكفي هذا المستعرب أن يكون قادرا على قراءة النصوص العربية وفهمها فهما دقيقا، ولا يعد ذلك عيبا في الباحث المنقطع للبحث، لأننا نجد مستعربا شهيرا، هو سلفستر دوس ساسي، يبعث رسالة جوابية إلى أحد المعجبين بعلمه في المشرق العربي يقول فيها: «تريد أن تعلم إن كان لي بعض الشيوخ الذين تعلمت عليهم العربية، وأني لأستطيع أن أؤكد لك أن معلمي الوحيد كان الكتاب، وأنا لا أستطيع أن أحفظ بالعربية، ولا حتى أن أفهم ما يقال بهذه اللغة، إذ لم تتح لي الفرصة، في شبابي، للتكلم بالعربية، ولا حتى الاستماع إليها» [1].

ويذكر رفاعة الطهطاوي هذا المستعرب في كتابه (تخليص الابريز) فيقول: «وما يتراءى أن الأعجام لا تفهم لغة العرب إذا لم تحسن التكلم بها كالعرب فهذا لا أصل له، ومما يدلك على ذلك أني اجتمعت في باريس بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير في بلاد الإفرنج بمعرفة اللغات المشرقية، خصوصا اللغة العربية والفارسية يسمى البارون سلوستر دساسي. وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه وذكاء عقله وغزارة علمه، لا بواسطة معلم، إلا إذا كان بيده الكتاب، فاذا أراد شرح عبارة أغرب في الألفاظ التي يتعذر عليه تصحيح نطقها» [2].

ومن المستعربين الفرنسيين الذين كانوا يتقنون الكلام والكتابة بالعربية: لوى ماسينيون، ووليم مارسيه [3].

---

(١) انظر: Derenbourg (H.) Silvestre de Sacy, Paris, 1895, p.22.

(٢) انظر هذا النص في كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطهاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص ٢١٨.

(٣) انظر مقالة: أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ، ، ١٩٢٧، ص ٤٤١.

ونتناول، فيما يلي، أبرز الدراسات العربية في فرنسا، مع ذكر أهم الأعمال التي قدمت في كل نوع منها على صعيد التأليف أو الترجمة والتحقيق، وسنتجنب، في الوقت نفسه، ذكر الدراسات القصيرة المنشورة على صورة مقالات في الدوريات الاستعرابية أو الاستشراقية الفرنسية على اختلاف ألوانها ومشاربها، إلا إذا كانت ذات أهمية خاصة في تاريخ الاستعراب على وجه العموم:

١ ـ الدراسات اللغوية :

امتدت أنشطة المستعربين الفرنسيين إلى ميادين كثيرة في مجال الدراسات اللغوية العربية لأن مثل هذه الدراسات ـ كما مر بنا من قبل ـ كانت تشكل المفتاح الذي لابد منه لأي مستعرب حقيقي، من أجل أن يفتح به باب الثقافة العربية على مصراعيه، ولم يسبق أن تكون مستعرب تكونا تاما وسليما من غير أن يمر بمرحلة تعلم العربية لغة أجنبية بصورة من الصور في مدرسة أو على يد شخص ما أو بالاحتكاك بالبيئة اللغوية العربية مباشرة مع قصد التعلم.

وقد انصبت اهتمامات المستعربين اللغوية على دراسة العربية الفصحى للإفادة من نصوصها القديمة والحديثة معا، لأنها اللغة التي دون بها التراث والتي تستعمل في التدوين الحديث أيضا. ثم أخذوا يهتمون بدراسة اللهجات العربية المختلفة في المشرق العربي ومغربه، لغايات عملية قريبة أو لأهداف علمية معينة، ولذا فإننا نستعرض فيما يلي أنشطة المستعربين في كلا المجالين، ذاكرين أبرز ما أنتجوه فيهما من أعمال في الاتجاهات التالية:

أ ـ تأليف الكتب في النحو العربي :

١ ـ وضع بوستل، سنة ١٥٣٨، كتابا في قواعد اللغة العربية هو: Grammatica Arabica ونشره في باريس.

٢ ـ ووضع دوسافاري de Savary، سنة ١٧٨٤، كتابا في النحو العربي، وقدمه إلى الحكومة الفرنسية بعنوان: قواعد اللغة العربية العامية والفصحى. وقد نشر في باريس سنة ١٨١٣ على يد لانغليس، بالتعاون مع ميشيل صباغ، بعنوان:

النحو العربي Grammaire arabe .

٣ ـ وألف هربن Herbin، سنة ١٨٠٣ ، كتابا في أصول العربية العامية .

٤ ـ ونشر دوساسي، سنة ١٨١٠ ، كتابا بعنوان : النحو العربي Grammaire arabe . وجعله مخصصا لطلابه في مدرسة اللغات الشرقية التي كان أستاذا فيها للعربية كما مر بنا من قبل . وكان مرسوم تأسيس هذه المدرسة يوجب على أساتذة تلك المدرسة تأليف كتب باللغة الفرنسية في قواعد اللغة التي يدرسها كل منهم . وقد وضع لكتابه هذا عنوانا عربيا مسجوعا ـ على طريقة المؤلفين العرب في العصور المتأخرة ـ هو (التحفة السنية في علم العربية) . وقد أعيد نشره، سنة ١٨٣١ ، بعد تنقيحه وإضافة بحث عليه في عروض الشعر العربي . وهذا الكتاب هو الذي تأثر به الشيخ رفاعة الطهطاوي عندما ألف كتابه النحوي : (التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية) وظل كتاب دوساسي هذا، طوال قرن من الزمان أو يزيد، مرجعا أساسيا لدراسة نحو اللغة العربية عند الطلاب المبتدئين والمستعربين الناشئين والكبار على حد سواء .

٥ ـ ووضع كوسان دو برسفال الابن، سنة ١٩٢٤ ، كتابا بعنوان : النحو العربي العامي Grammaire arabe vulgaire، ونشره في باريس . وأعاد طبعه سنة ١٨٣٣ بعد احتلال الجزائر، مضيفا إليه أمورا تتعلق بلهجة أهل المغرب العربي . ثم أعيدت طباعته عدة مرات بعد ذلك، لأنه كان يشكل أساسا لدراسة اللهجات العربية العامية في المؤسسات العلمية والتعليمية في فرنسا .

٦ ـ ووضع برون Perron، سنة ١٨٣٢ ، كتابه : قواعد العربية، ونشره في باريس .

٧ ـ ووضع برون أيضا، في السنة نفسها، كتابا بعنوان : العربية العامية في الجزائر .

٨ ـ ونشر ومنتيه Montet في جنيف سنة ١٨٩٦ ، كتابه : مبادىء النحو العربي . ثم أعاد طباعته في باريس سنة ١٩٠٣ .

٩ ـ ونشر بيرييه Périer، سنة ١٩١١ ، كتابه : قواعد العربية الجديدة.

١٠ ونشر لوفيفر G.Lefebvre كتابه : قواعد اللغة المصرية الفصحى (كذا)، في المعهد الفرنسي بالقاهرة (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٠ ، والثانية سنة ١٩٥٥).

١١ ـ ووضع بلاشير، بالتعاون مع ديمومبين، كتاب : نحو العربية الفصحى، سنة ١٩٣٧ ، بباريس. وهو أجود كتب النحو العربي باللغة الفرنسية، وقد نقح وأعيدت طباعته سنة ١٩٥٢ . وهو إلى اليوم مرجع هام للمستعربين الفرنسيين.

وربما حدث تأليف نحوي في الاتجاه المعاكس كما فعل أحمد فارس الشدياق وغوستاف دوغا، إذ تعاونا معا على وضع كتاب بعنوان : (النحو الفرنسي في متناول العرب في الجزائر وتونس والمغرب ومصر والشام) Grammaire française à l'usage des Arabes، ونشراه في باريس سنة ١٨٥٤ .

ب ـ وضع المعاجم اللغوية :

أسهم المستعربون الفرنسيون في وضع المعاجم اللغوية الثنائية أو الثلاثية لما لها من أهمية خاصة في تقريب ما بين اللغتين العربية والفرنسية من مسافات، ولإزالة إبهام إحداهما أمام الأخرى. والمعجم ـ كما هو معروف ـ هو الدليل الأول للمتعلم المستجد، كما أنه الترجمان الذي لا غنى للباحث المجرب أو المترجم الأريب عنه، إذا أراد أحدهم البحث في لغة أجنبية حية. وهو الذي يقودنا إلى معاني المفردات التي يؤلف مجموعها مادة اللغة. وهو الذي يفك لنا أسرار العبارات والتراكيب اللغوية في سياق الكلام الحي. وقد كان نشاط المستعربين في هذا الميدان واسعا، فأنتجوا ولايزالون ينتجون عددا من المعاجم العربية ـ الفرنسية أو الفرنسية ـ العربية. وهذا عرض لأبرز هذه المعاجم متسلسلة بحسب ظهورها أو وضعها :

١ ـ حقق كوسان دوبرسفال (المعجم العربي ـ الفرنسي) الذي كان إلياس بقطر قد وضعه وتم نشره في مجلدين سنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٢٩ . ثم أعيدت طباعته سنة ١٨٤٨ . وطبع مرة ثالثة سنة ١٨٦٤ .

٢ ـ وصنف مارسيل، سنة ١٨٣٧ ، معجمه : (كنز المصاحبة)، وهو معجم

فرنسي ـ عربي عامي.

٣ ـ ونشر كازيميرسكي، في باريس، سنة ١٨٦٠ : قاموسا عربيا ـ فرنسيا في مجلدين.

٤ ـ ووضع شربونو : معجما فرنسيا ـ عربيا في مجلدين، نشره سنة ١٨٧٦ بباريس.

٥ ـ وصدر لماشويل في الجزائر : معجم عربي ـ فرنسي في السنوات ١٨٧٧، ١٨٨١ و١٩١٧.

٦ ـ ووضع بوسييه Beaussier : القاموس العلمي العربي ـ الفرنسي، الذي نشر سنة ١٨٨٧ في الجزائر بعد وفاته، وكان ذا أهمية كبيرة في ميدانه.

٧ ـ ووضع بارتيليمي سنة ١٩٠٣ : قاموسا عربيا ـ فرنسيا للهجات العامية في بلاد الشام (حلب، ودمشق، ولبنان، والقدس). وكان المصنِّف قد تنقل في قنصليات فرنسا في هذه المناطق فأتقن اللهجات العامية فيها تماما، وصار يتكلمها وكأنه واحد من أهلها. غير أنه لم ينشره في تلك السنة، وهو يقع في خمسة أجزاء: نشر ثلاثة منها على التوالي في السنوات ١٩٣٥ و١٩٣٦ و١٩٣٧. ثم جاء هنري فليش H.Fleisch فنشر المجلدين الرابع والخامس سنة ١٩٦٠ بباريس تحت عنوان: قاموس اللهجات العربية في سورية ولبنان وفلسطين.

٨ ـ وأصدر مارسيه، في الجزائر سنة ١٩٤٢ : المعجم. وهو قاموس كبير جمع فيه اللهجات المغربية ونصوصها وأصواتها، فحل بذلك محل قاموس بوسييه السالف ذكره.

٩ ـ ونشر ليفي ـ بروفنسال : المعجم التطبيقي لعربية القرن العشرين، في الرباط سنة ١٩٤٢.

١٠ ـ ووضع شارل بيلا Ch.Pellat : قاموسا عربيا ـ فرنسيا ونشره في باريس.

١١ ـ ونشر بلاشير بالتعاون مع دنيزو Denizeau ومصطفى شويمي: قاموسا

ثلاثيا عربيا ـ فرنسيا ـ إنكليزيا، بإشراف المركز الوطني للبحث العلمي بباريس C.N.R.S.، وقد صدر منه ثلاثة مجلدات من أصل ستة، ابتداء من سنة ١٩٦٣ .
وقد حل بيلا محل بلاشير بعد وفاته سنة ١٩٧٣ من أجل إتمام هذا المشروع الضخم.

جـ ـ نشر الكتب النحوية العربية وترجمتها:

١ ـ نشر دوساسي (ألفية ابن مالك)، مع شرح لها وتعليق عليها، وترجمها سنة ١٨٣٤ .

٢ ـ ترجم برينييه، سنة ١٨٤٦، كتاب: الأجرومية في قواعد العربية لمحمد بن داود الصنهاجي، إلى الفرنسية، وذيل الترجمة بملحق لتفسير الكلمات العربية.

٣ ـ ونشر غوغويه Goguyet في ليدن سنة ١٨٧٧ : شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام.

٤ ـ ونشر هو نفسه أيضا (ألفية ابن مالك)، مع شروح لها وحواش عليها بالفرنسية، في بيروت سنة ١٨٨٨ .

٥ ـ ونشر بنتو Pinto في قسنطينة بالجزائر سنة ١٨٨٧ : ألفية ابن مالك كذلك، متنا وترجمة وتعليقا.

٦ ـ وأصدر ديرنبورغ: شرح كتاب سيبويه، متنا وترجمة، مع مقدمة وحواش في زهاء ألف صفحة جزءين في باريس سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٩ .

د ـ تأليف الدراسات اللغوية حول العربية الفصحى واللهجات العامية:

نجد المستعربين الفرنسيين، في مثل هذه الدراسات، يأخذون بتطبيق آخر ماتوصل إليه علم اللغة من نظريات وحقائق في بحوثه على اللغة العربية، ولذا نستطيع القول إن أكثر أنواع الدراسات العربية تطورا في فرنسا هي هذه الدراسات اللغوية. وسيرد في قائمة هذه الدراسات، هنا، مايدل على مثل هذا التطبيق الذي يتناول العربية من خلال دراسة نحوها القديم والحديث، ودراسة لهجاتها الحديثة في

مختلف أنحاء الوطن العربي، ووضع الخرائط أو الأطالس اللغوية، ودراسة اللغة العربية ضمن أسرة أخواتها من اللغات العربية القديمة التي أطلق عليها المستشرقون خطأ اسم اللغات (السامية)، ودراسة أصوات العربية وتطور الدلالة فيها، ودراسة البنية اللغوية العربية على وجه العموم. ومن أبرز هذه الدراسات:

١ ـ نشر ديلابورت Delaporte، في الجزائر سنة ١٨٣٦، كتابا بعنوان: بحوث في اللغة العربية.

٢ ـ ونشر رينان كتابه المشهور: تاريخ اللغات «السامية»، في جزءين في سنتي ١٨٥٣ و ١٨٦٢، ويتناول فيه اللغة العربية تناول مقارنة.

٣ ـ ونشر رينو Reinaud كتابا بعنوان: اللغة العربية في سورية، سنة ١٨٥٧.

٤ ـ وألف مونك Munk دراسة بعنوان: تأثير اللغة العربية وآدابها في اللغة العبرية بعد التوراة، ونشرها بباريس سنة ١٨٥٧.

٥ ـ ونشر بارتيليمي سنة ١٩٠٥: رسالة في لغة حلب العامية.

٦ ـ ونشر هو نفسه أيضا سنة ١٩٠٦: نبذة عن لهجة القدس

٧ ـ وأصدر كانتينو، وهو من أبرز دارسي اللهجات العربية من المستعربين في النصف الأول من القرن العشرين، ويعد رائدا في (الجغرافية اللغوية العربية وأطالسها): لهجة عرب تدمر، في جزءين صدرا ضمن منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، بيروت سنة ١٩٣٤.

٨ ـ ونشر هو نفسه أيضا كتابا بعنوان: بعض لهجات بدو العرب في الشرق، ضمن منشورات كلية الآداب بالجزائر سنتي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧.

٩ ـ ونشر كذلك كتابا بعنوان: اللهجات العربية في حوران (مع ملحق بخرائط جغرافية لغوية للمناطق المدروسة)، ضمن منشورات الجمعية اللغوية بباريس سنتي ١٩٤٠ و١٩٤٦.

١٠ ـ ونشر أيضا كتابا بعنوان: محاضرات في علم الصوت العربي في الجزائر سنة ١٩٤١.

١١ ـ ونشر هنري فليش H.Fleisch، سنة ١٩٤٧، كتابا بعنوان : مدخل إلى دراسة اللغات السامية (كذا)، في باريس.

١٢ ـ ونشر هو نفسه أيضا كتابا بعنوان العربية الفصحى (دراسة للبنية اللغوية) في بيروت سنة ١٩٥٦ . ثم أعاد طبعه سنة ١٩٦٨ .

١٣ ـ ونشر كذلك، سنة ١٩٦١، كتابا بعنوان : بحث في الفيلولوجيا العربية .

١٤ ـ ونشر مونتي V.Monteil، في باريس سنة ١٩٦٠، كتابا بعنوان : العربية الحديثة (وهو رسالته لنيل درجة الدكتوراه) .

وكان المستعربون الفرنسيون يلجؤون أحيانا إلى ترجمة بعض الدراسات اللغوية المؤلفة بلغة أخرى غير العربية، وبين أيدينا، على سبيل المثال فقط، نموذجان هما :

أ ـ موجز علم اللغة السامي : من تأليف المستعرب الألماني المعروف كارل بروكلمان، إذ قام المستعربان الفرنسيان كوهين ومارسيه بترجمته إلى اللغة الفرنسية، ونشراه في باريس سنة ١٩١٠ .

ب ـ العربية : من تأليف المستعرب الألماني المعروف أيضا يوهان فوك J.Fück، وترجمه إلى الفرنسية ووضع مقدمة لترجمته المستعرب الفرنسي كانتينو، ونشره في باريس سنة ١٩٥٥ .

هـ ـ وضع الكتب التعليمية (للتمرينات، والمحادثات، والتطبيقات، والأمثلة) :

ومثل هذه الكتب كثير جدا، وخاصة عند المستعربين الفرنسيين في الجزائر، وقد اهتم بمثل هذا النوع من التأليف أولئك الذين كانوا يتصدون لتعليم العربية الفصحى أو العامية على السواء، فيسهلون بكتبهم التعليمية هذه أمر تعليمهم على أنفسهم وعلى طلابهم معا . ولا مجال، هنا، لإحصاء عدد هذه الكتب لكثرتها، ولأن قيمتها الحقيقية ليست دائمة، وإنما هي آنية مخصوصة باستعمالها بأيدي الأساتذة

الذين وضعوها وطلابهم الذين وضعت لهم، ولذا فإن مثل هذه الكتب سرعان ما يشيخ وتقل فائدته بعد مرور سنين قليلة على وضعه، ويحول ذلك دون وقوفنا عليها طويلا، نظرا لمحدودية تأثيرها عمليا في حركة الاستعراب العلمية المحضة. ونذكر من هذه الكتب على سبيل المثال:

١ ـ النحو الابتدائي للعربية العامية أو الجزائرية: نشره سنة ١٨٣٢ جواني فرعون في الجزائر.

٢ ـ الدراسة العملية والنظرية للغة العربية: من تأليف برينييه.

٣ ـ تمارين العربية الفصحى: وضعه بلاشير بالتعاون مع المستعربة ماري تشيكالدي أدريان M.C.Adrien ثم أعيدت طباعته سنة ١٩٥٢.

و ـ نشر المختارات النحوية العربية:

ومن أشهر هذا النوع من الكتب كتاب دوساسي المعروف بعنوانه الفرنسي: Anthologie grammaticale arabe. وهو مختارات مما كتبه النحويون العرب القدماء في مؤلفاتهم المشهورة. وقد أطلق دوساسي على هذا الكتاب نفسه عنوانا عربيا مسجوعا على عادة القرون المتأخرة هو: (جامع الشذور من منظوم ومنثور)، وقد نشرها في باريس سنة ١٨٢٩.

٢ ـ الدراسات الأدبية:

وتأتي هذه الدراسات لتشكل ميدانا واسعا جدا من ميادين البحث عند المستعربين الفرنسيين، وذلك لأن الأدب عموما تعبير عن روح الأمة التي تنتجه وصورة لعقليتها ومزاجها، كما أنه تمثيل لبيئة الأمة الطبيعية ولنظمها الاجتماعية. وكان الأدب العربي موضع دراسة هؤلاء المستعربين من أجل التعرف على ذلك كله.

وكان اهتمام الغرب قد انصب على أدبنا العربي وآثاره منذ أن عرف أهله كيف يتذوقون آداب الشعوب الأخرى في العالم، ولاسيما الآداب الشرقية، وعلى رأسها

الأدب العربي.

وكان اتصال المستعربين الفرنسيين بأدبنـا العربي استجابة لتطور الذوق الأدبي في بلادهم، في أواخر القرن السابع عشر ومطالـع القرن الثامن عشر، إذ كان الفرنسيون قد ضـاقوا ذرعـا بالآداب اليـونانيـة والرومـانية (الـلاتينية) وملتهـا نفوسهـم بعد أن استـوعبـوها، فطفقـوا يبحثـون عن عـوالم جديـدة لم يسمعـوا بها من قبل في الآداب الشرقية. وقد أثبت نجاح (ألف ليلة وليلة) ورواجها في فرنسا خاصة والغرب الأوربي عامة ـ بعد أن ترجمها إلى الفرنسية أنطوان غالان كما مر بنا آنفا ـ وجود هذا الجو الأدبي المتقبل للجـديـد، كما أنـه فتح البـاب واسعـا للبحث في آداب الأمم الشرقيـة، وفي طليعتها الأمـة العربيـة التي كان الغرب قـد استفاد منها العلـوم العقلية والتجـريبية والتأمليـة، عن طـريق الترجمة التي كـانت الجسر الـذي انتقلت عليـه تلك العلـوم آنذاك.

ولم يكتف المستعربون الفرنسيون بترجمة الآثار الأدبية العربية إلى الفرنسية، ليرفدوا ثقافتهم بروافد غزيرة من الإلهام والمتعة، وإنما تجاوزوا ذلك إلى استلهام الروح الشرقية عمومـا بأجوائهـا العربية والإسـلامية على حد سـواء، فنشأت عند الفـرنسيين طبقة الشعراء والفنانين المتأثرين بهذه الروح، فكونـوا بظهورهم نوعا جديدا من الاستشراق يمكن أن نطلق عليــه اسم: (الاستشراق الأدبي) أو (الاستشراق الفني) على حسب نـوع الاستلهـام ودرجته. وظهـرت النـزعـة الاستشراقية في الأدب الفـرنسي والفنـون التشكيلية منذ بداية القرن التاسع عشر تقريبا[1].

كانـت الرحـلات قد أخذت تـزداد، في أواخر القـرن السابـع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، إلى البلدان العربية. وكان الـرحالة يقصون، عند عودتهم إلى أوطانهم، أحاديث رحـلاتهم وانطباعـاتهم ومشاهـداتهم وماجمعـوا من معلومـات حول بعض جوانب الحياة في الشرق، بأسلوب ممتع شيق فيه شيء من المبـالغة والزخرفة والتلوين الساحر. وكانوا يخرجون ذلك كله لأبناء لغتهم ووطنهم في كتب يضمنونها ماجمعوا في

(١) يمكن لمن يريد التعمق في الاستشراق الفني هذا ان يعـود مثلا الى كتاب (أثر العرب في الفن الحديث) للدكتور عفيف بهنسي. وهنـاك مرجع أحدث صدر عن سلسلة عالم المعرفة هو «الإستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي» (العدد ١٥٧ ـ ١٩٩٢)، تأليف د. زينات البيطار ـ المحرر)

جعبهم من حكايات جذابة وقصص طريفة من الشرق الذي كان يتمثل في عقول الغربيين بصورة سحرية أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع.

وقام الباحثون بتأليف شيء من الكتب عن الشرق وحضارته، وأخذ الفرنسيون يقرؤون ما يكتبه هؤلاء الباحثون عن الشرق عامة والعرب خاصة، ولعل أقدم النصوص الفرنسية الشاملة في هذا المجال كتاب (المكتبة الشرقية) La Bibthèque Oriental التي صنفها ديربلو d'Herblot وأراد لها أن تكون أشبه بموسوعة تتناول علوم الشرقيين وتاريخهم وآدابهم وأديانهم ونظمهم وعاداتهم وأساطيرهم. وهذا الأثر هو الذي مهد الجو لتعرف الفرنسيين على الآداب العربية. وهو يتكون من عدة مجلدات. وقد رتبت مواده على حروف المعجم، وظل مرجعا يعتمد عليه إلى اليوم الذي قامت فيه جماعة من كبار المستعربين والمستشرقين في العالم بتأليف مواد (الموسوعة الإسلامية) L'Encyclopédie de L'Islam، بإشراف هوتسما Houtsma، وتلبية لتوصية اتخذها المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين الذي تم عقده في جنيف بسويسرا سنة ١٨٩٤[١].

وكانت مكتبة ديربلو الشرقية هي التي أوحت بإنشاء هذه الموسوعة، واتفق على أن يكون مقرها بليدن في (هولندا)، وأن تصدر بثلاث لغات هي: الفرنسية، والألمانية، والإنكليزية. وبدأت طبعتها الأولى تصدر سنة ١٩١٣. وكانت موادها مرتبة على حروف المعجم.

وكان غالان قد شارك ديربلو في القسم الأخير من هذا العمل، ثم أشرف - بعد وفاته سنة ١٦٩٥ - على إتمامه وإصداره كله وحده. وقد جمع ديربلو ومن بعده غالان، في هذا العمل، كل المواد والمعلومات التي كانت معروفة عن الشرق حتى زمانهما. وقد استعانا بكثير من الاقتباسات من المؤلفات الشرقية المخطوطة، بعدما ترجماها إلى الفرنسية[٢].

(١) انظر مقالة: الدروس العربية في فرنسا لكليمان هوار، ترجمة: عبدالله رعد، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٥، ١٩٢٥، ص ١٥٨.

(٢) انظر: Élisséeff (N.), Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits, Beyrouth, 1949, P.8.

ويمكننا، في الحقيقة، أن نعد (المكتبة الشرقية) بداية التوجه الحقيقي نحو الشرق في ميدان الدراسات العلمية، ونضيف إلى ذلك القول إنها جاءت ثمرة لجهود العاملين في حقل الاستشراق الفرنسي في العصور السابقة كلها وتتويجا لها في الآن نفسه.

وربما كان بوسعنا أيضا أن نتخذ من هذه المكتبة نفسها بداية لحركة الاستعراب الفرنسي تحديدا، تلك الحركة التي عنيت باطلاع الفرنسيين على كل الشؤون العربية من لغة وآداب وتاريخ وعقائد وجغرافية، إلى غيرها من الميادين، عن طريق اللغة الفرنسية نفسها، أي بطريق غير مباشر فيما يخص جمهور المثقفين والمطلعين الفرنسيين أنفسهم، في حين أن المستعربين كانوا هم طليعة المواجهة للغة العربية والاحتكاك المباشر بها والاطلاع على مافيها من غير وسيط، نظرا لكونهم الاختصاصيين باقتحام هذا الميدان روادا فيه لأبناء وطنهم. وكانت الفرنسية لغة الترجمات الجديدة بعد ما كانت اللغة اللاتينية هي لغتها من قبل. ويمكننا، على هذا الأساس أن نقسم تاريخ هذه الحركة أربع مراحل، هي:

أ ـ مرحلة البدايات:

وهي تمتد من وفاة ديربلو، سنة ١٦٩٥، إلى السنة التي تأسست فيها، بباريس، المدرسة الخاصة بتعليم اللغات الشرقية الحية، أي سنة ١٧٩٥. ويمكننا أن نصف هذه المرحلة بأنها كانت «مرحلة تلمس الطريق إلى الدراسات العربية، وفيها تكونت الاستعدادات للاتجاه إلى هذه الدراسات في نفوس بعض المثقفين الفرنسيين نتيجة للآثار التي تركتها في تلك النفوس ترجمة قصص (ألف ليلة وليلة) في أوائل هذه المرحلة».

ب ـ مرحلة التكون:

وهي تمتد من السنة التي أسست فيها المدرسة المذكورة آنفا إلى سنة ١٨٩٥ التي تقرر فيها إنشاء الموسوعة الإسلامية .E.I باقتراح من المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين، المنعقد في جنيف تلك السنة. ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها تتميز

بـ «ترسيـخ الدراسات العربية في فـرنسا وبثها في عدد من دول أوربـا على أساس من المنهجية والتنظيم». وتأكدت في هذه المرحلة أيضا «استمرارية الدراسات العربية في فرنسا». والجدير بالذكر هنا أن هذه الموسوعة لم تكن جهدا فرنسيا خالصا، وإنما كان الفـرنسيـون مـن جملـة المسهمين في إنشـائهـا وممن عملـوا في إدارتها ونشرهـا في كل مراحلها.

جـ ـ مرحلة النضج :

وهي تمتـد من سنة ١٨٩٥ إلى السنـة التي أنجـز فيها نشر الموسـوعـة الإسلاميـة بثلاث لغـات أوربية هي : الفـرنسيـة والألمانيـة والإنكليـزية، في أربعـة مجلـدات ضخمـة، وهي سنـة ١٩٤٢ . ونشهد في هـذه المرحلـة أعمالا هـامة وقيمـة ينتجهـا المستعربـون في فرنسـا خاصة، وغيرهـا من البلدان الأوربيـة عامـة. ونلحظ في هذه المرحلة وسـابقتها سعي فـرنسا الحثيث إلى استعمار أجـزاء من الوطن العـربي أو بسط هيمنتها عليها: فكـانت حملة نابليون على مصر سنـة ١٧٩٨، واحتلال الجزائر سنة ١٨٣٠، وتونس سنة ١٨٨١، والمغرب سنة ١٩١٤، ثم سورية سنة ١٩٢٠ . وكان لهذا السعي كبير الأثر في تحريض الدراسات العربية في فرنسا إلى درجة عالية لما كانت تقدمه للمستعمـرين من معلومات تسهل عليهم السيطـرة والإدارة والتوجيه والتأثير في هذا البلدان العـربية. وكان للجزائر في المرحلـة الثانية الآنف ذكـرها دور هائل في هذا الاتجاه، إذ نشأت فيها مدرسة من المستعـربين عرفت باسم (المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي)، وأقيمت فيها المعاهد الخاصـة بالاستعراب، وكانت المكتبات الجزائريـة غاصـة بالمخطـوطـات العربيـة المتنوعـة التي استفـاد منها عـدد كبير من المستعربين فيها وفي فرنسا على حد سواء.

د ـ المرحلة المعاصرة :

وهي تبدأ بسنـة ١٩٤٢ وأواخر الحرب العالمية الثـانية إلى يومنا هـذا. ونجد فيها آثارا رائعة للمستعـربين الفرنسيين تدل على منهجية متقـدمة وتعمق وإلمام، كما تدل كـذلك على نوع من أنـواع التخصص في الـدراسات العـربية، إذ كـان المستعربـون

الأوائل يأخــذون من كل علم أو فــرع بطـرف، فأصبح المعــاصرون منهم يقصرون اهتمامهم وجهودهم على طرف واحد من هـذه الدراسات، فنجد بعضهم يتخصص بالأدب الجغرافي العربي، وبعضهم بالأدب التاريخي العربي، وبعضهم بأديب معين كـالجاحظ أو ابن قتيبــة، أو بشــاعــر معين كـالمتنبي، وبعضهم بعلم الاجتماع الإسلامي، وبعضهــم بالتاريخ العـربي، أو باللغـة العربيـة، أو بالأدب في فترة من الفترات، أو بفرع من فـروع الدراسات الإسلامية كـالقرآن أو الحديث أو التشريع أو التصوف، الخ.

وسنلم، فيما يلي ، بأبـرز ما أنجـزه المستعربـون الفرنسيـون في ميدان الـدراسات العـامة أو الخاصـة من أعمال. وسنقتصر على ذكـر ما نشر منهـا بشكل كتب، أما مانشر منها بشكل مقالات فإننا سنهمله إلا ما كان منه ذا أهمية خاصة في سياق تلك الدراسات[1]:

أ ـ نشر الدواوين والأشعار وترجمتها:

١ ـ ترجم دوساسي قصيدة (البردة) للبوصيري سنة ١٨٠٦.

٢ ـ ونشر أيضـا (معلقة لبيد) مع ترجمتها ملحقة بكتاب (كليلة ودمنة).

٣ ـ ولـه (منتخبـات مــن شعر ابــن الفـارض)، وقــد نشرها مــع ترجمتهــا سنة ١٨٢٢ بالتعاون مع دولاغرانج G.de La Grange.

٤ ـ ونشــر كوســان دو بـرسفال الأب (شرح معلقــة إمـرىء القيس) للـزوزني سنة ١٨١٩.

٥ ـ ونشر رينو ، سنة ١٨٣٧ ، بالتعـاون مع دوسلان، (ديوان إمرىء القيـس)، متنا وترجمة، بشروح ومقدمة عن حياة الشاعر نقلا عن كتاب (الأغاني).

٦ ـ ونشر دوسلان، في باريس سنة ١٨٣٨ ، مجموعة (أشعار الجاهليين).

٧ ـ وترجم برون معظم (شعر المتلمس وطرفة)، ونشره في المجلة الآسيوية سنة ١٨٤١ مع دراسات قصيرة عن الشاعرين.

---

(١) استقينا معظم معلوماتنا الاحصائية التالية من كتاب : المستشرقون لنجيب العقيقي، وتحديدا من باب الاستشراق في فرنسا.

٨ ـ ونشر الأب برجس Bargés(ديوان ابن الفارض) سنة ١٨٥٥ .

٩ ـ ونشر بوشيه Boucher (ديوان عروة بن الورد) في باريس سنة ١٨٦٧ .

١٠ ـ ونشر أيضا (ديوان الفرزدق) (ثلاثمئة وستين قصيدة تتألف من ثلاثة آلاف بيت)، متنا وترجمة، عن المخطوطة الوحيدة في مكتبة آيا صوفيا باستنبول، ما بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧٥ .

١١ ـ ونشر ديرزنبورغ (ديوان النابغة الذبياني) بشرح الشنتمري، مع ترجمة فرنسية، وأضاف إليه قصائد غير منشورة عزيت إليه في مجموعة شيفر، في باريس سنة ١٨٦٩ .

١٢ ـ ونشر غويار Guyard (ديوان بهاء الدين زهير المصري) سنة ١٨٨٣ .

١٣ ـ ونشر باسيه قصيدة (البردة) للبوصيري مع سيرة الشاعر ونقد وشرح للقصيدة سنة ١٨٩٤ .

١٤ ـ ونشر أيضا قصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير.

١٥ ـ ونشر كذلك (ديوان أوس بن حجر) سنة ١٩١٢ .

١٦ ـ ونشر إضافة إلى ذلك (ديوان عروة بن الورد) زعيم الصعاليك سنة ١٩٢٦ .

١٧ ـ وترجم كارادوفو Carra de Vaux قصيدة ابن سينا في النفس (هبطت إليك من المحل الأرفع) سنة ١٨٩٩ .

١٨ ـ وترجم هو نفسه أيضا (تائية ابن الفارض) التي تتألف من سبعمئة وستة وأربعين بيتا .

١٩ ـ ونشر سلغسون Seligson (ديوان طرفة بن العبد) بشرح الشنتمري، متنا وترجمة، مع تفسير وحواش، في باريس سنة ١٩٠١ .

٢٠ ـ وترجم رو A.Roux (لامية العجم) للطغرائي سنة ١٩٠٣ .

٢١ ـ وترجم أيضا (لامية ابن الوردي) وقصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير، سنة ١٩٠٤ .

٢٢ ـ ونشر كذلك (معلقة زهير) سنة ١٩٠٥ .

٢٣ ـ ونشـر كليمان هوار (ديوان سلامة بن جنـدل) في : المجلة الآسيوية سنة ١٩١٠.

٢٤ ـ ونشر أيضا قصائد عفيف الدين التلمساني وابنه الشاب الظريف).

٢٥ ـ وقـام بيريس H.Pérès بنشر (ديوان كثير عـزة) في جزءين، مع شرح وتعليق، ضمن : منشورات كلية الآداب بالجزائر سنتي ١٩٢٧ و١٩٣٠ .

٢٦ ـ ونشر مـاسينيون (ديوان الحلاج) في : المجلـة الآسيويـة سنة ١٩٣١ . ثـم قام بترجمته إلى الفرنسية ونشر طبعته الثانية سنة ١٩٥٥ .

ب ـ نشر الكتب الأدبية العامة وترجمتها:

ونركز، هنا على كتب الأدب العربي القـديم، مع ملاحظة أن مايترجم من الأدب العربي الحديث في ميادين القصـة والمسرحية والشعر وغيرها من الأنواع الأدبيـة يتزايد يومـا بعد يـوم لعدد من آثار كبـار كتابنا كطـه حسين وتوفيق الحكيم ومحمـود تيمور ونجيب محفـوظ وغيرهـم. ولعل الحديث عن حركـة الترجمة من العربيـة إلى الفرنسيـة في العصر الحديث يصلح أن يكـون جـزءا من بحث آخـر مستقل يتنـاول بـالـدرس الأدب العربي الحديث عند المستعربين الفرنسيين. وفيما يلي سرد لأبرز مانشره أو ترجمه المستعربون الفرنسيون من أدبنا القديم :

١ ـ تـرجم غالان قصص (ألف ليلـة وليلة) إلى الفرنسيـة لأول مرة بين سنتي ١٧٠٤ و١٧٠٨ .

٢ ـ وترجم أيضا (أمثال لقمان) .

٣ ـ وأعاد كوسان دو برسفال الأب ترجمة جزء من (ألف ليلة وليلة) سنة ١٨٠٦ .

٤ ـ وقام أيضا بترجمة (أمثال لقمان) سنة ١٨١٨ .

٥ ـ وترجم كذلك (مقامات الحريري) سنة ١٨١٩ .

٦ ـ ونقل لانغليس إلى الفرنسية جزءا من (ألف ليلة وليلة) أيضا سنة ١٨١٣ .

٧ ـ وترجم أيضا قصة (السندباد البحري) سنة ١٨١٤ .

٨ ـ ونشر دوساسي متن (كليلـة ودمنة) مع مقدمة في أصل الكتـاب ومترجميه ما بين سنتي ١٨١٦ و ١٨٢٢ .

٩ ـ ونشر أيضا (مقامات الحريري) بشرح مختار من جملة الشروح التي تقدمت، مع مقـدمـة عربيـة وتـرجمة لحيـاة الحريـري نقلا عـن كتاب وفيـات الأعيـان لابن خلكان .

١٠ ـ وترجم مارسيل (أمثال لقمان) أيضا في مصر سنة ١٧٩٩ ابان حملة نابليون .

١١ ـ وتــرجـم مــونك (المقـامتين الأولى والثالثـة مـن مقـامات الحريـري) في سنـة ١٨٣٤ .

١٢ ـ ونشر أيضا جزءا من (قصة عنترة) سنة ١٨٤١ .

١٣ ـ وترجم برون (قصة يوسف) سنة ١٨٤٧ .

١٤ ـ وترجم كذلك (قصة المعراج) سنة ١٨٥٤ .

١٥ ـ وترجم (رواية سيف التيجان) سنة ١٨٦٢ .

١٦ ـ وتــرجم دوتاسي de Tassy (الأمثال الأدبية) لعز الــدين المقدسي بعنوان : (الصوادح والأزهار) سنة ١٨٢١ .

١٧ ـ وترجم أيضا إحدى (مقامات الحريري) سنة ١٨٢٣ .

١٨ ـ وتــرجم شربـونو (المقامــة الثـلاثين مــن مقـامــات الحــــريـري) سنــة ١٨٤٦ .

١٩ ـ ونشر أيضا (أمثال لقمان) متنا وتـرجمة، بمقدمة ومعجم للمفردات، في باريس سنة ١٨٤٧ .

٢٠ ـ ونشر كـذلك من (ألف ليلة وليلـة) قصص : (شمس الدين ونـور الـدين) في باريس سنـة ١٨٥٢ . و(دليلة المحتالة وبنتهـا زينب النصابة) في بـاريس سنة ١٨٧٢ .

٢١ ـ ونشرت المستعربة غروف F. Groff من (ألف ليلة وليلة) حكاية (زين الأصنام)

في باريس سنة ١٨٨٩ .

٢٢ ـ وترجم دفيك Devic (مختصر سيرة عنترة العامية) ونشرها بين سنتي ١٨٤٦ و ١٨٧٠ .

٢٣ ـ ونشر أيضا ترجمة لـ (مقامات الحريري) سنة ١٨٧٠ .

٢٤ ـ وأسهم دوغا مع آخرين في نشر الجزءين الأول والثاني من كتاب (نفح الطيب) للمقرى، بمقدمة فرنسية عن حياة المؤلف وقيمة كتابه، في ليون بين سنتي ١٨٥٨ و ١٨٦١ .

٢٥ ـ ونشر ديرزنبورغ كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ، متنا وترجمة، في سنتي ١٨٨٩ و ١٨٩٢ .

٢٦ ـ ونشر أيضا كتاب (كليلة ودمنة) في باريس سنة ١٨٦٦ .

٢٧ ـ ونشر كذلك النص الأصلي لحكاية (علاء الدين والقنديل السحري)، متنا وترجمة، مع حواش وتفاسير، سنة ١٨٨٨ .

٢٨ ـ ونشر هوداس (مختارات من ألف ليلة وليلة) في الجزائر سنة ١٨٦٤ .

٢٩ ـ ونشر باسيه (ألف قصة وقصة)، وهي أخبار وأساطير عربية، في باريس سنة ١٩٢٤ .

٣٠ ـ ونشر كازانوفا (رحلات السندباد البحري) سنة ١٩٢٢ .

٣١ ـ وترجم ماردروس (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية في ستة عشر مجلدا .

٣٢ ـ ونشر ديمومبين (مقدمة كتاب الشعر والشعراء) لابن قتيبة، متنا وترجمة، مع تعليقات عليها، في باريس، سنة ١٩٤٧ .

٣٣ ـ ووضع بيريس كتاب (الأدب العربي والإسلام بالنصوص)، وقد نشرت طبعته السادسة في الجزائر سنة ١٩٥٥ .

٣٤ ـ ونشر بيلا (رسالة التربيع والتدوير) للجاحظ مع مقدمة بالفرنسية ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٦ .

٣٥ ـ وكان بيلا قد نشر من قبل ترجمة لكتاب (البخلاء) للجاحظ، في باريس سنة ١٩٥١ .

٣٦ ـ ونشر بيلا كذلك ترجمة لكتاب (التاج في أخلاق الملوك) للجاحظ أيضا .

٣٧ ـ وتــرجم بلاشير بالتعاون مع ماسنو P.Masnou عددا من (مقامات الهمذاني) في باريس سنة ١٩٥٧ .

٣٨ ـ وترجم را Rat كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) لمصنفه الأبشيهي، ونشره في باريس بين سنتي ١٨٩٩ و١٩٠٢ .

٣٩ ـ وتــرجم أندريـه ميكيل فصولا مــن كـتاب (كليلـة ودمنة) في بــاريس سنـة ١٩٥٧ .

٤٠ ـ ونشــر مارك بـرجيه M.Bergé ترجمة لكتـاب (الامتاع والمؤانسـة) لأبي حيـان التوحيدي، في دمشق سنة ١٩٦٩ .

ونلحظ فيما سلف أن المستعربين الفرنسيين كانوا يـركزون على آثار معينة من تراثنا الأدبي تتعلق بالأنواع التالية : القصة، والمثل، والمقامة، والحكاية، والطرفة، والسير الشعبية، والأدب العــام. وتتصف الآثـار المختــارة للنشر والترجمة بثـلاث سمات أساسية هي : الشعبية، والامتاع، والخلود على مر الزمان.

جـ ـ نشر المختارات الأدبية وترجمتها :

لما كان من الصعب نقل النص الأدبي مـن لغة إلى أخرى من غير أن يفقـد روحه وخصائصــه الأسلوبيـة والجمالية نتيجة للحـذف والتعديل والتحـوير وغير ذلك من متطلبات الترجمة الأدبية، وخاصة الترجمة الشعريـة، فقد وجم المستعربون الفرنسيون أمام التـوسع في نقل الكتب الأدبية العربيـة، وكان تحفظهم أمام الكتب النثـرية أقل بكثير منـه أمام الشعـر ودواوينه، واستبـدلوا بـذلك جمع المختارات الملائمـة للترجمة لشهـرتها عنـد العرب أو لأنها تمثل جـانبـا من جـوانب هـذا الأدب يمكن أن يعطي القارىء الفـرنسي المستعرب أو العـادي صورة لـلأدب العربي قـريبة من الـواقع قدر الإمكان.

وربما شــارك بعض الكتـاب العـرب ممن يعملـون مع المستعـربين الفـرنسيين أو يقيمون في فـرنسا، في صنع مثل هذه المختـارات لتعريـف الجمهـور الفرنسي المثقف

بآثار اللغة العربية، وهذا عرض لأهم مانشروه منذ مطلع القرن الماضي إلى اليوم:

١ ـ نشر دو ساسي مختارات أدبية شهيرة أطلق عليها عنوانا مسجوعا هو: (الأنيس المفيد للطالب المستفيد). وقد حوت هذه المجموعة مثلا (لامية العرب للشنفري، وبعض أشعار (المعري)، وبعض (مقامات بديع الزمان الهمذاني)، إلى جانب نصوص مختلفة من كتب الأدب والتاريخ والرحلات وغيرها. وقد وقعت مختاراته هذه في ثلاثة مجلدات متنا وترجمة وتعليقا، ثم طبعها بين سنتي ١٨٠٦ و ١٨٢٦.

٢ ـ ونشر أيضا في سنة ١٨٢٧ مختارات شعرية أسماها (الدر المختار)، متنا وترجمة وتعليقا وتحتوي فيما تحتوي على (معلقة الأعشى) و(معلقة النابغة).

٣ ـ ونشر همبير Humbert في سنة ١٨١٩ منتخبات عربية أو أشعارا عربية غير منشورة.

٤ ـ ونشر دو لاغرانج في سنة ١٨٢٨ منتخبات من الشعر العربي أسماها: (نخب الأزهار في منتخب الأشعار).

٥ ـ وله أيضا مختارات أدبية أخرى أسماها: أزكى الرياحين من أسنى الدواوين). ومن جملة محتوياته ترجمة لعدد من مقامات الهمذاني، وقد نشرها سنة ١٨٢٨.

٦. ونشر برينييه منتخبات أدبية باللغة العربية العامية بين سنتي ١٨٤٦ و١٨٦٧.

٧ ـ ونشر بيلان Belin منتخبات أدبية باللغة العربية العامية أيضا.

٨ ـ ونشر دو تاسي منتخبات أدبية عربية، متنا وترجمة، بعنوان: (مجموع الرموز الشرقية).

٩ ـ ونشر دو مارتينو F.de Martino بالتعاون مع عبد الخالق سروت: مختارات من الغزل العربي. وكانت طبعتها الثالثة سنة ١٩٠٢.

١٠ ـ ونشر سالمون G.Salmon منتخبات من رسائل المعري وأشعاره، متنا وترجمة،

مع مقدمة، في باريس سنة ١٩٠٤.

١١ ـ ونشر ماشـويل كتابا بعنوان: (مـؤلفون عرب)، في باريـس سنة ١٩٢٤، وله عنوان آخر هو: (صفحات مختارة من كبار الكتاب العرب).

١٢ ـ ونشر سعد الدين بن شنب، وهو من العرب الجزائريين العاملين مع المستعربين الفـرنسيين في حقل الـدراسـات ومقيم في فـرنسا، تـرجمات من الشعـر العـربي الحديث، في وهران سنة ١٩٤٥.

١٣ـ ونشـــر درمنغم Dermenghem مختارات عـــربية بعنوان: (أجمل النصـوص العربية)، في باريس سنة ١٩٥١.

١٤ ـ ونشر رنيه خـوام، وهو عربي مقيم في باريس، نصوصـا من الشعر العربي، في باريس سنة ١٩٦٠.

١٥ ـ ونشر مونتي، الذي أعلن اسلامـه حديثا، مختارات من الأدب العربي المعاصر بالعربية والفرنسية، في بيروت سنة ١٩٦١.

١٦ ـ ونشر مكاريوس Makarius، بالتعاون مع آخرين، مختارات من الأدب العربي المعاصر في الرواية والقصة، في باريس سنة ١٩٦٤.

د ـ تأليف الدراسات الأدبية الخالصة:

ويتناول مثل هذه الدراسات في العادة حياة كاتب من الكتاب المشهورين وآثاره، أو حياة شـاعر من الشعـراء وأشعاره، وربما تطـرق إلى تناول فن مـن فنون الأدب أو أسلوب من أساليبه أو مدرسة من مـدارسه أو تيارا من تياراته، وربما درس عصرا من العصور الأدبية أو حـاول دراسة تاريخ الأدب العربي عبر العصور. وسنـرى نموذجا من كل نـوع من أنواع هذه الـدراسات أو أكثـر، وهذه الـدراسات على وجـه العموم نوعـان: الأول نشر بشكـل كـتب. والثاني نشر بشكل مقـالات في نشـرة أو مجـلة أو دوريـة أو مجـموعة من المجمـوعـات الاستعـرابيـة أو الاستشراقية. عـلى أننـا سنقصـر جهـودنا، هنـا، على ذكـر الشكل الأول من النشر، وأمـا الشكل الثـاني فسنعـرض لما تـدعـو الضرورة القصـوى إلى ذكـره نظـرا لأهميتـه الخاصـة في سيـاق

الدراسات الأدبية عامة :

١ ـ الكتب :

١ ـ كتب دوغا دراسة عن الشاعر (هدبة بن الخشرم) نشرها سنة ١٨٥٥ .

٢ ـ وكتب باسيه دراسة عن (الشعر العربي قبل الإسلام) نشرها سنة ١٨٨٠ .

٣ ـ وكتب كليمان هوار تاريخا للأدب العربي من أصوله حتى زمانه بعنوان : (الأدب العربي)، نشر طبعته الأولى سنة ١٩٠٢ ، ثم طبع بعد ذلك مرارا، ظل معولا عليه في بابه عند المستعربين الفرنسيين إلى أن زحزحه من المقدمة كتاب المستعرب الفرنسي المشهور ريجيس بلاشير الذي سيرد ذكره لاحقا .

٤ ـ وله دراسة عن (وهب بن منبه) نشرها سنة ١٩٠٤ .

٥ ـ وله كذلك دراسة في وجه الشبه بين جملة من معاني القرآن الكريم وأشعار أمية بن أبي الصلت الثقفي ، نشرها سنة ١٩٠٤ . وكانت غايته من هذه الدراسة أن يثبت ـ على حد زعمه ـ أن شعر أمية كان أحد المصادر التي اعتمد عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) في وضع القرآن . . والعياذ بالله!

٦ ــ وكتب دوما C.Dumas دراسة بعنوان : (أبوزيد السروجي بطل مقامات الحريري) نشرها في الجزائر سنة ١٩١٧ .

٧ ـ وكتب أوغست كور دراسة حول : (ابن زيدون : حياته وأشعاره)، نال بها درجة الدكتوراه ، ونشرها في قسنطينة سنة ١٩٢٠ .

٨ ـ وكتب ريجيس بلاشير دراسة بعنوان : (شاعر من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي : أبوالطيب المتنبي)، نال بها درجة الدكتوراه من جامعة السوربون ونشرها بباريس سنة ١٩٣٥[(١)] .

٩ ـ وصمم ريجيس بلاشير بحثا قيما وطموحا بعنوان : (تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر)، غير أنه نشر ثلاثة مجلدات منه فقط بين

---

(١) وقد نقلها الى العربية أستاذي الفاضل الدكتور ابراهيم الكيلاني ، ونشرتها وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٩٧٥ ، ثم نشرت دار الفكر بدمشق طبعتها الثانية سنة ١٩٨٥ . ويلحظ بين منهجها ومادتها وبين منهج كتاب (مع المتنبي) للدكتور طه حسين ومادته شبه كبير، وكان الأخير قد نشر سنة ١٩٣٦ لأول مرة.

سنتي ١٩٥٢ و ١٩٦٦ ، وحالت وفاته سنة ١٩٧٣ دون اتمامه ، ولا تغطي هذه المجلدات سوى الفترة الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي [١] .

١٠ ـ وألف هنري بيريس ، وهو من المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي ، دراسة عن : (الشعر الأندلسي بالعربية الفصحى في القرن الحادي عشر الميلادي وخصائصة العامة) ، نال بها درجة الدكتوراه ، ونشرها في باريس سنة ١٩٣٧ .

١١ ـ وكتب شارل بيلا دراسة عن : (الوسط البصري وتكوين الجاحظ) ، نال بها درجة الدكتوراه ، ونشرها في باريس سنة ١٩٥٣ [٢] .

١٢ ـ وكتب بيلا أيضا بحثا في تاريخ الأدب العربي باختصار بعنوان : (اللغة العربية وآدابها) ، نشره سنة ١٩٥٢ [٣] .

١٣ ـ وكتب جيرار لوكونت بحثا عن : (ابن قتيبة : الإنسان ، إنتاجه ، أفكاره) ، نال به درجة الدكتوراه ، ونشره ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٦٥ .

١٤ ـ وألف غاستون فييت بحثا في تاريخ الأدب العربي بمعناه الواسع الشامل لمختلف فروع المعرفة المدونة في العربية بعنوان : (مدخل إلى الأدب العربي) ، ونشره في باريس سنة ١٩٦٦ .

١٥ ـ وكتب جان فاديه J.Vadet دراسة عن : (الغزل عند العرب حتى القرن الخامس

(١) وقد نقل أستاذي الدكتور ابراهيم الكيلاني هذه المجلدات الثلاثة التي انجزها بلاشير في حياته إلى العربية أيضا ، ونشرت في وزارة الثقافة بدمشق في ثلاثة مجلدات كذلك ظهرت كالتالي : الأول والثاني سنة ١٩٧٣ ، والثالث ١٩٧٤ . ثم نشرت دار الفكر بدمشق طبعتها الثانية في مجلد واحد سنة ١٩٨٤ .

(٢) وقد استلهمها الدكتور أحمد كمال زكي في دراسته : (الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري) التي نشرت طبعتها الأولى سنة ١٩٦٠ . وقد نشر الدكتور إبراهيم الكيلاني كذلك كتاب بيلا إلى العربية بعنوان : (الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء) في دار اليقظة العربية بدمشق سنة ١٩٦١ . ثم نشرت دار الفكر بدمشق طبعته الثانية سنة ١٩٨٥ .

(٣) وقد أخبرني المؤلف ، في رسالة موجهة إلى بتاريخ ١٠ شباط من سنة ١٩٧٦ ، أن هذا البحث قيد الترجمة إلى العربية في تونس .

الهجري)، ونال بها درجة الدكتوراه، ونشرها في باريس سنة ١٩٦٨ [١].

١٦ ـ ونشر أندريه ميكيل كتيبا في تاريخ الأدب العربي من أصوله إلى اليوم باختصار شديد بعنوان : (الأدب العربي)، ضمن سلسلة (كوسيج؟) برقم ١٣٥٥، باريس ١٩٦٩ [٢].

١٧ ـ وكتب مارك برجيه دراسة عن : (أبي حيان التوحيدي)، نال بها درجة الدكتوراه سنة ١٩٧٤ [٣].

١٨ ـ وكتب نيكيتا ايليسييف N.Élisseeff دراسة قيمة عن قصص ألف ليلة وليلة بعنوان : (مباحث في ألف ليلة وليلة وموضوعاتها)، ونشرها ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٤٩.

١٩ ـ وسجل شارل فيال Ch.Vial بحثا للدكتوراه في : (الاتجاهات الاجتماعية في القصة العربية في الفترة المعاصرة) سنة ١٩٥٧.

٢٠ ـ وسجل فرانسوا فيريه F.Viré بحثا في : (الطرديات في الأدب العربي) سنة ١٩٥٩ لنيل الدكتوراه.

٢١ ـ وسجلت المستعربة راشيل آرييه R.Arié أطروحة بعنوان : (آثار لسان الدين بن الخطيب) سنة ١٩٦٢ لنيل الدكتوراه.

وهنالك عدد من الدراسات الأدبية الخالصة والبحوث.. تقدم باستمرار لنيل الدرجات العلمية في الجامعات، إضافة إلى تلك الدراسات والبحوث التي يكتبها المستعربون عامة ضمن نشاطاتهم العلمية العادية. ومع تقدم خطوات الاستعراب الفرنسي وازدهاره تتنوع الدراسات الأدبية لتشمل كل فنون الكتابة والقول في مختلف العصور الأدبية قديمها وحديثها.

---

(١) وقد ترجمها إلى العربية استاذنا الدكتور إبراهيم الكيلاني ونشرها في مجلدين سنة ١٩٧٩ بعنوان : (الغزل عند العرب) ضمن منشورات وزارة الثقافة بدمشق.

(٢) وقد بلغني إنه ترجم إلى العربية في تونس.

(٣) ومازالت أطروحة مضروبة على الآلة الكاتبة في ثلاثة مجلدات في حدود اطلاعنا.

٢ ـ المقالات :

لاحصر للمقالات التي كتبت في موضوعات أدبية، ولايمكننا بالتالي أن نحيط بها هنا، لأن حصرها خارج على نطاق بحثنا هذا، غير أن من أراد الاطلاع على طرف منها قبل سنة ١٩٠٦ بامكانه أن يعود إلى أهم الدوريات الاستشراقية أو الاستعرابية في فرنسا. فإذا أراد الاطلاع على كل المقالات المنشورة في مختلف الدوريات والمجلات باللغة الفرنسية منذ سنة ١٩٠٦، فيمكنه الرجوع إلى احصائية شاملة لها جميعا تقريبا في الفهرس القيم جدا الذي قام بوضعه وتصنيفه المستعرب الإنكليزي الخطير بيرسون J.D.Pearson بعنوان: (Index Islamicus). وقد بذل فيه جهودا جبارة تنؤ تحتها اللجان والمؤسسات، وكانت غايته النبيلة توفير الجهود والأوقات التي تبذل هدرا في البحث عن مقالة معينة في موضوع معين ولمؤلف معين منشورة في مجلة أو دورية ما في عدد ما من زمن ما وبلغة ما من لغات المستشرقين أو المستعربين في العالم أجمع. ولهذا الفهرس ميزة الترتيب والتصنيف المنهجيين لكل المعلومات المتعلقة بالمقالات: فهو يبدأ بترتيب فروع الاستشراق الإسلامي والاستعراب بحسب الاختصاصات: الأدب، اللغة، التاريخ، الجغرافيا، الخ. ثم يرتب المقالات في كل اختصاص منها بحسب توالي العصور والموضوعات ويعطي معلومات وافية عن كل مقالة على حدة مثل: اسم الكاتب وعنوان المقالة، واسم المجلة التي نشرت المقالة فيها، والعدد والسنة، وأرقام الصفحات التي تمتد عليها المقالة. ويعطينا المصنف في نهاية عمله فهارس وافية ودقيقة لأسماء الكتاب من جهة، وعناوين مقالاتهم من جهة ثانية. ومما ييسر الرجوع إلى هذه المقالة أو تلك في أي موضوع أن المصنف أعطى المقالات أرقاما تصاعدية متسلسلة من أول مقالة إلى آخر مقالة في هذا العمل، وهذا ييسر بطبيعة الحال القيام بإحصائيات دقيقة لآثار كل مستعرب في ميدان المقالات، بوصفها أحد الأنشطة العلمية التي لابد منها عند كل باحث مبدع. وقد صدر المجلد الأول من هذا (الفهرس الإسلامي) الإحصائي القيم سنة ١٩٥٥، وقد كان من منهج عمل المصنف أن يتابع نشر مجلدات هذا العمل وملاحقه الضرورية تباعاً إلى أن يغطي آخر مقالات الباحثين من المستشرقين والمستعربين وأحدثها على

وجه الإطلاق[1]، مع استدراك ما يمكن أن يكون قد فاته من المقالات في الفترات السابقة.

وفيما يلي نماذج من هذه المقالات الأدبية الخالصة:

١ ـ شعراء العرب وأدباؤهم : كتبها شربونو في (المجلة الآسيوية) الفرنسية.

٢ ـ أصول النثر الأدبي العربي : كتبها وليم مارسيه في (المجلة الأفريقية) سنة ١٩٢٧[2].

٣ ـ اقتباس بول وفرجيني في اللغة العربية: كتبها سوسي Saussey في (نشرة الدراسات العربية) بالجزائر سنة ١٩٣١.

٤ ـ ابراهيم المازني وقصة إبراهيم : لسوسي أيضا في النشرة نفسها سنة ١٩٣٢.

٥ ـ أحمد شوقي : كتبها هنري بيريس في (حوليات معهد الدراسات الشرقية)، ٢، ١٩٣٦.

٦ ـ القصة والرواية والأقصوصة في الأدب العربي الحديث : لبيريس أيضا في الحوليات نفسها سنة ١٩٣٧.

٧ ـ مقدمات المؤلفين العرب لقصصهم وأقاصيصهم: لبيريس كذلك في الحوليات نفسها سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤١.

٨ ـ حديث عيسى بن هشام للمويلحي : لبيريس كذلك في (مجلة الدراسات الشرقية)، ١٠، ١٩٤٤.

٩ ـ أدب العامة والنهضة الأدبية الحديثة: كتبها لوسرف Lecerf في (نشرة الدراسات الشرقية) سنة ١٩٣٣.

١٠ ـ الأدب العربي الحديث وتعليم اللغة العربية في سورية: كتبها لوسرف أيضا في (المجلة الافريقية) سنة ١٩٣٢.

---

(١) يغطي المجلد الأول من هذا الفهرس الإسلامي مقالات المستشرقين والمستعربين من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٥٥. والثاني من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٠. والثالث من سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٥. والرابع من سنة ١٩٦٦ الى سنة ١٩٧٠، والخامس من سنة ١٩٧١ إلى سنة ١٩٧٢. والسادس من سنة ١٩٧٢ إلى سنة ١٩٧٣. والسابع من سنة ١٩٧٣ إلى سنة ١٩٧٤، الخ.

(٢) وقد ترجمتها إلى العربية بالعنوان نفسه ونشرتها مع نقد وتعليقات في مجلة التراث العربي بدمشق، العدد ١٨، ١٩٨٥، ص ٩٠ ـ ١٠٤.

١١ ـ الاتجاه الصوفي عند جبران خليل جبران: كتبها لوسرف في (مجلة الدراسات الاسلامية) ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤.

١٢ ـ الأدب العربي المعاصر والاتجاهات الاجتماعية: له أيضا

١٣ ـ أبوالعلاء المعري وفلسفته: كتبها هنري لاوست في (نشرة الدراسات الشرقية)، ١٠، ١٩٤٣ـ ١٩٤٤.

١٤ ـ الوزير الشاعر ابن زمرك: كتبها بلاشير في (حوليات معهد الدراسات الشرقية)، ٢، ١٩٣٦.

١٥ ـ سيرة الشاعر المُتَرسِّل ابن دراج القسطلي الأندلسي: كتبها بلاشير أيضا في (مجلة هسبيرس Hespèris)، ٧، ١٩٢٣.

١٦ ـ ابن القارح ورسالة الغفران للمعري: له أيضا في (مجلة الدراسات الإسلامية) سنة ١٩٤١.

١٧ ـ الجاحظ في بغداد وسامراء: كتبها شارل بيلا في (نشرة الدراسات الشرقية)، ١٧، ١٩٥٢.

وبهذا نكون قد استعرضنا أبرز جهود المستعربين الفرنسيين في مجال الدراسات الأدبية العربية، ونرى من خلال ذلك أنهم قد نقلوا جزءا من تراثنا الأدبي إلى الفرنسية، مسهمين بذلك في تعريف خاصة المثقفين الفرنسيين وعامتهم والمتخصصين منهم بالعربية، بجملة من آثارنا الأدبية الجميلة. وقد أفادونا نحن العرب أيضا بما نشروا من آثارنا الأدبية محققة تحقيقا علميا جادا، إذ أحيوها بعد طول سبات، وعرضوها للنور، وقد تتبعنا خطاهم في هذا الطريق كما اتبعنا طريقتهم في تحقيق التراث المخطوط ونشره، بعد أن كانت كتبنا تصدر، بعد دخول المطبعة إلى بلادنا، ساذجة غفلا من أي لمسة تحقيقية أو توثيقية تذكر، كي تكون في خدمة هذا الكتاب أو ذاك وخدمة مادته. فأدى ذلك إلى ظهور طبعات محققة تحقيقا علميا على أيدي عدد من علماء اللغة والأدب المطلعين على جهود المستعربين الغربين عامة والفرنسيين خاصة في هذا المجال المهم. وهكذا لم تعد الطريقة البولاقية لنشر الكتب تلقى رواجا، وهي الطريقة التي تقوم على نقل المخطوط كما هو من الحرف اليدوي

إلى الحرف الطباعي، فنشاهد السطور في الصفحة الواحدة مسبوكة سبكا يتلو بعضها بعضا من غير فراغ يذكر أو مساحة بيضاء ترتاح العين لها أثناء القراءة، ومن غير وجود فاصلة ولا نقطة ولا أي إشارة من إشارات الترقيم المصطلح عليها في هذا العصر، ومن غير هوامش تشرح الألفاظ وتقابل بين النسخ المخطوطة للكتاب لمعرفة أصح وجه من وجوه قراءة النص نثرا كان أم شعرا، بل أن هوامش الكتاب العليا واليمنى أو اليسرى والسفلى كانت تشغل بطباعة كتاب آخر على طريقة: نشر الكتاب الفلاني على هامش الكتاب الفلاني. كما أن الكتب المنشورة بهذه الطريقة غالبا ماتفتقر إلى التقديم. إضافة إلى إهمالها أي نوع من أنواع الفهارس الخاصة، وخلوها من أي نوع من أنواع التخريج للنصوص الهامة (من القرآن، والحديث، والأشعار، والأمثال، الخ). زد على كل ذلك إهمال الشكل أو الضبط بأي صورة كانت لحروف الكلمات أو الضروري منها على الأقل لرفع مافيه من اللبس. وهذه كلها أدواء ونواقص لا يمكن عِلْمَ التحقيق الحديث أن يقبل بها أو يساوم فيها.

وهناك فرق هائل بين قراءة مخطوطة تطبع كما هي وأخرى تطبع محققة، يمكن إن نمثل له بالفرق بين سائح يزور بلدا من البلدان على هواه من غير تخطيط، وسائح آخر يحمل دليلا سياحيا قد سجلت فيه المناطق المختلفة والمدن والقرى ومافيها من آثار ومتنجعات ومرافق سياحية، مع شرح واضح ومفصل عن كل منها، إلى جانب حمله خرائط تفصيلية لهذا البلد عليها الأسماء والمسافات والأزمنة والتوقيتات ولوائح الأسعار والمواصلات، مع كتاب يتحدث عن أخلاق أهل البلد وعقائدهم وعاداتهم وشيء من آدابهم، الخ.

وقد رأينا كذلك إسهام المستعربين الفرنسيين في تسليط الأضواء على تراثنا الأدبي بما قاموا به من دراسات على شكل كتب أو مقالات، وهي حافلة بالتحليلات والآراء والأفكار الجديدة بالتوضيح والإفهام من نحو، وتحريض الأفكار وإثارة التساؤلات وتلقيح الأفكار من نحو آخر.

٣ ـ الدراسات التاريخية

لمثل هذه. الدراسات أهمية عظيمة في تبين الأوضاع الماضية التي كانت عليها أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات في زمن ما، ثم رصد تطورها عبر العصور التالية والوصول بذلك إلى الفترة الراهنة. ويشمل ذلك تاريخ الشخصيات والأحداث والنظم السياسية والاقتصادية والتشريعية والعلاقات الدولية التي كانت تربط أمة ما بغيرها من الأمم المجاورة أو البعيدة. وقد دفع هذا كله المستعربين الفرنسيين إلى الخوض في هذا المجال والإسهام في كشفه لمعرفة العرب معرفة قريبة ودقيقة ومباشرة، ودراسة حركتهم على مسرح التاريخ في العصور الماضية، ومن ثم تحديد موقعهم الحقيقي بين الأمم في العصر الحالي.

ومن أبرز دراساتهم التاريخية التي أنجزوها مايلي:

١ ـ كتب جان جاك سيديو J.J. Sédillot بحثا بعنوان: خلاصة تاريخ العرب. وقد ترجمه عادل زعيتر إلى العربية بعنوان: تاريخ العرب العام.

٢ ـ وألف رينو: فتوح العرب في فرنسا، سنة ١٨٣٦.

٣ ـ وألف ديفرجيه: تاريخ العرب في الجاهلية.

٤ ـ وألف لوبون: حضارة العرب، باريس ١٨٨٤، وترجمه إلى العربية بالعنوان نفسه عادل زعيتر.

٥ ـ وألف أرمان دوبرسفال: باكورة تاريخ العرب، في ثلاثة أجزاء، سنة ١٨٤٧.

٦ ـ وكتب ديمومبين: تاريخ بنى الأحمر ملوك غرناطة، باريس ١٨٩٨.

٧ ـ وكتب أيضا: الشام في عهد المماليك، باريس سنة ١٩٢٣.

٨ ـ ونشر بيرييه سيرة بعنوان: حياة الحجاج بن يوسف الثقفي، باريس سنة ١٩٠٢.

٩ ـ وألف هوار: تاريخ بغداد في العصر الحديث، سنة ١٩٠١.

١٠ ـ ونشر أيضا كتابا بعنوان: تاريخ العرب، في جزءين، باريس سنتي ١٩١٢ و١٩١٣.

١١ ـ ونشر فييت بحثـا بعنوان : مصر العربيـة من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، باريس سنة ١٩٣٢ .

١٢ ـ ونشر هنـري دوسو H.Dussaud بحثا بعنوان : الطبغرافية التـاريخية لسورية، سنة ١٩٣٢ .

١٣ ـ ونشر أيضا كتابا بعنوان : العرب في الشام قبل الاسلام، سنة ١٩٥٥ .

١٤ ـ ونشر كلود كاهن Cl.Cahen أطروحة بعنوان : سورية الشمالية في عصر الحروب الصليبية، سنة ١٩٤٠ .

١٥ ـ ونشـر ليـفي ـ بروفنسـال بحثـا بعنوان : تاريخ اسبـانيا الاسلامية، في ثـلاثة مجلدات، في باريس، بين سنتي ١٩٥٠ و١٩٥٣ .

١٦ ـ ونشر أيضا كتابه : اسبانيا المسلمة في القرن العاشر، باريس سنة ١٩٣٢ .

١٧ ـ ونشـر كـذلك كتابـا بعنوان : الحضارة العربيـة في اسبانيـا، القاهـرة سنة ١٩٣٨ .

١٨ ـ ونشر أيضـا دراسة بعنوان : التاريخ السيـاسي لاسبانيا في عهد الخلافـة، سنة ١٩٥٠ .

١٩ ـ وكتب جان سوفاجيه أطروحة بعنوان : حلب، سنة ١٩٤٢ .

٢٠ ـ ونشر كنار Canard بحثا بعنوان : الحمدانيون، في جزءين، سنة ١٩٥١ .

٢١ ـ ونشر أيضا كتابا لفاسيلييف Vasiliev عنوانه : بيزنطـة والعرب، بعد تنقيحه وتهذيبه .

٢٢ ـ وقدم بـرونشفيغ R.Brunschvig أطروحـة بعنوان : الحفصيـون، بين سنتي ١٩٤٠ و١٩٤٧ .

٢٣ ـ وقدم هنـري تراس H.Terrasse أطروحة بعنوان : الفن الاسبـاني ـ المغربي من أصوله إلى القرن الثالث عشر، سنة ١٩٣٢ .

٢٤ ـ ونشر جـورج مـارسيـه G.Marcais كتـابا بعنـوان : فن العمارة الاسلاميـة في الغرب، سنة ١٩٥٤ .

٢٥ ـ وكتب نيكيتـا ايليسييف دراسة بعنوان : نـورالدين زنكي، في ثلاثـة مجلدات، سنة ١٩٦٧

٢٦ ـ وكتب دومينيك سورديل D.Sourdel دراسة بعنوان الوزارة العباسية.

٢٧ ـ ونشر أيضا بالتعاون مع جانين سورديل ـ تومين J.Sourdel Thomine كتابا بعنوان: حضارة الإسلام الكلاسي، سنة ١٩٦٩.

٢٨ ـ وكتب كولومب Colombe كتابا بعنوان: تطور مصر من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٥٠، ونشره سنة ١٩٥١.

٢٩ ـ وقدم أيضا أطروحة بعنوان: الشرق العربي والقوى الكبرى من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٦١، ونشرها في باريس سنة ١٩٧٢.

٤ ـ الدراسات الإسلامية:

جَهَد المستعربون الفرنسيون في اطلاع الجمهور الفرنسي على الإسلام وتعاليمه وتاريخه ونظمه، وتقريب صورته أو تصوره إلى أذهانهم قدر الإمكان، بما قدموا له من ترجمات كثيرة لنص القرآن الكريم رأينا أبرزها فيما سلف [1]، وترجمة عدد من كتب الفقه والأصول، وبما كان لهم كذلك من جولات وصولات في ميدان البحث في تاريخ الاسلام ونظمه، وفي تحليل واقع المسلمين الاجتماعي. ولم تكن غاية هؤلاء المستعربين، من ترجماتهم أو بحوثهم هذه، الدعوة إلى الإسلام بأي حال من الأحوال، وإنما كانت غايتهم إشباع فضول أبناء لغتهم ووطنهم إلى معرفة هذه العقيدة المشعة الحية التي لا تزال قوة محركة لقرابة مليار إنسان من سكان المعمورة يعيشون في أواخر هذا القرن العشرين، كما كانت من قبل قوة محركة لأحداث التاريخ في الزمن الغابر، بالإضافة إلى محاولة فهم السر الكامن وراء قوتها وأثرها الساحر العميق في ألباب أتباعها ونفوسهم إلى اليوم. وهذه جملة من أبرز ما قدمه المستعربون الفرنسيون في هذا المجال:

١ ـ نشر دور كوروا du Courroy بحثا بعنوان: التشريع الإسلامي في المذاهب السنية والشيعية، باريس، ١٩٤٨.

٢ ـ وكتب دو كورتي بحثا بعنوان: معراج محمد ومعجزاته، سنة ١٨٨٨.

٣ ـ وكتب دوغا بحثا عنوانه: فلاسفة المسلمين وفقهاؤهم من سنة ٦٣٢ إلى سنة ١٣٥٨ للميلاد، ونشره سنة ١٨٧٨.

---

(١) انظر: ص ٥٨ ـ ٥٩ من هذا البحث.

٤ ـ وكتب سانتيلير St-Hilaire بحثا بعنوان : محمد والقرآن، ونشره سنة ١٨٦٥ .

٥ ـ وكتب مونتيه بحثا بعنوان : حاضر الإسلام ومستقبله، باريس، سنة ١٩١٠ .

٦ ـ وكتب أيضا بحثا عنوانه : الإسلام، سنة ١٩٢١ .

٧ ـ وكتب دينيه Dinet بحثا بعنوان : الحج إلى بيت الله الحرام .

٨ ـ وكتب أيضا بالتعاون مع سليمان بن ابراهيم بحثا بعنوان : محمد في السير النبوية .

٩ ـ ونشر فانيان Fagnan بحثا بعنوان : الجهاد أو الحرب المقدسة حسب الفقه المالكي، في الجزائر، سنة ١٩٠٨ .

١٠ ـ وكتب أيضا بحثا بعنوان : الزواج في الشرع الإسلامي، سنة ١٩٠٩ .

١١ ـ ونشر غوتييه بحثا بعنوان : مدخل إلى الفلسفة الإسلامية، في باريس، سنة ١٩٢٣ .

١٢ ـ وكتب سيدرسكي Siderski بحثا بعنوان : مصادر الأساطير الإسلامية في القرآن وسير الأنبياء، باريس، ١٩٢٣ .

١٣ ـ ونشر كارادوفو بحثا بعنوان : مفكرو الإسلام، في خمسة مجلدات، بين سنتي ١٩٢١ و١٩٢٦ .

١٤ ـ ونشر برونو Bruno بحثا بعنوان : النظام المالي في الشرع الإسلامي، سنة ١٩١٣ .

١٥ ـ وألف ديمومبين كتابا بعنوان : النظم الإسلامية، ١٩٣١ وقد نقل إلى العربية في ترجمتين .

١٦ ـ ونشر أيضا كتابا بعنوان : الحج إلى مكة، في باريس، ١٩٢٣ .

١٧ ـ ونشر كذلك كتابا بعنوان : (محمد : الرجل ورسالته)، في باريس، سنة ١٩٥٧ .

١٨ ـ وكتب هنري ماسيه H.Massé بحثا بعنوان : الإسلام، سنة ١٩٣٠ .

١٩ ـ ونشر بلاشير بحثا بعنوان : قضية محمد، سنة ١٩٥٢ .

٢٠ ـ ونشر أيضا بحثا بعنوان : مدخل إلى القرآن، سنة ١٩٤٧ .

٢١ ـ ونشر كذلك بحثا صغيرا بعنوان : القرآن، ضمن سلسلة (كوسيج؟) برقم ١٢٤٥ .

٢٢ ـ ونشر كلود كاهن دراسة بعنوان : الإسلام، سنة ١٩٧٠

٢٣ـ ونشر هنري لاوست بحثا بعنوان : ابن تيمية ودراسة مصلحي القرن التاسع عشر.

٢٤ـ ونشر ماسينيون دراسة في التصوف بعنوان : آلام الحلاج، سنة ١٩٢٢ ، وهي في الأصل أطروحة جامعية .

٢٥ـ ونشر أيضا بحثا عنوانه : دراسة عن أصول المعجم التقني للتصوف الإسلامي، ط٢، ١٩٥٤ .

٢٦ ـ ونشر لوي غارديه L.Gardet بحثا بعنوان : الإسلام دينا ومجتمعا .

٢٧ ـ ونشر مكسيم رودنسون M.Rodinson عددا من الكتب التحليلية والمقارنة الهامة من أبرزها :

أ ـ محمد .

ب ـ الإسلام والرأسمالية

جـ ـ الإسلام والماركسية .

٥ ـ الدراسات الجغرافية :

لم يتناول المستعربون الفرنسيون هذا النوع من الدراسات من الناحية الجغرافية بالمفهوم العلمي المحض للكلمة، ذلك لأن إنجازات الكشوف الحديثة والعلم الحديث أوسع وأشمل وأدق. ولذا نجدهم يتناولهن بالبحث تراث العرب الجغرافي في ظرفه التاريخي الذي كتب فيه، أي ماعرف بالأدب الجغرافي العربي أو الجغرافيا التاريخية ان صح التعبير وهذا يعني أنهم ركزوا على محاولة معرفة : كيف فكر العرب جغرافيا، وكيف عبروا عن معارفهم الجغرافية، وكيف كانوا يتصورون العالم القديم بمحيطاته وبحاره وأنهاره وسهوله وجباله أو أقاليمه وبلدانه ومدنه أو أعراقه البشرية بألوانهم وأشكالهم ولغاتهم ودياناتهم وأساطيرهم وعاداتهم وازيائهم. وكل هذه

الأمور لابد من الاستناد في دراستها إلى جملة الآثـار المخطوطة في العصور المتقدمة المختلفة . ومن أبرز دراسات هؤلاء المستعربين في هذا المجال :

١ ـ نشررينو كتـابا بعنوان : مدخل إلى جغرافية الشرقيين ، وهـو تاريخ شامل في علم الجغرافيا عند العرب ، سنة ١٨٤٨ .

٢ ـ ونشر دفيك بحثا بعنوان : نظرة في كتب الجغـرافية العربية في العصر الوسيط في باريس ، سنة ١٨٨٢ .

٣ ـ ونشر بلاشير بالتعاون مع دارمون Darmont بحثا عنوانه : الجغرافيون العرب في العصر الوسيط ، في باريس ، سنة ١٩٥٧ .

٤ ـ ونشر أندريـه ميكيل بحثا بعنوان : الجغرافية البشريـة للعالم الإسلامي حتى القرن الحادي عشر للميلاد ، في باريس ، سنة ١٩٦٧ . وهو في الأصل أطروحته لنيل درجة الدكتوراه .

ويمكن القول بإيجاز شديد ، في ختـام هذا الفصل ، ان المستعربين الفرنسيين قد اهتموا لـدراسة مختلف جوانب الثقافـة العربية ، سـواء ما كان يتعلق منها بـاللغة أو الأدب أو العقيدة أو التاريخ أو الجغـرافيا . وقد كان لهذه الدراسـات التي ألفوها أو تلك المخطـوطـات التي أحيوهـا بـالنشر المحقق أو بـالترجمة إلى لغتهم تأثير كبير في الحياة الثقافيـة الفرنسية من حيث : التعريف ، والتعليم ، والامتـاع ، والافادة . وهذا يعني أن أنشطـة هـؤلاء المستعـربين كانـت مثمرة على صعيـد التـواصل الثقـافي بين جمهورهم المثقف وتراثنا العربي القديم ، وربما إنتاجاتنا المعاصرة أيضا .

الفصل الخامس:
أنشطة أخرى للمستعربين الفرنسيين

اطلعنا في الفصول السابقة على عدد مهم من أنشطة المستعربين الفرنسيين المختلفة حول المخطوطات العربية، وتعليم العربية، وتأليف البحوث والدراسات في مختلف جوانب الثقافة العربية. ونضيف هنا الحديث عن جملة أخرى من الأنشطة التي يمكن أن نعدها فرعية قياسا على الأنشطة الثلاثة الرئيسية التي فرغنا للتو من الحديث عنها، بالإضافة إلى أنها داخلة في صلب النشاط العلمي لكل مستعرب منهم، ولهذا السبب آثرنا جمعها هنا في فصل قائم برأسه.

ولم تكن هذه الأنشطة ولا تلك منطلقة من منطلق واحد، كما أنها لم تكن تجري إلى غاية واحدة، بل لا ينبغي لنا أن نذهب هذا المذهب ولا أن نعتقد بمثل هذا الاعتقاد بأي حال من الأحوال. صحيح أن هدف المستعربين الأول والأخير إنما هو خدمة بلادهم وضمان مصالحها، إلا أن هذه الخدمة كانت موزعة على مجالات عديدة: منها ما لا ضير علينا منه ولا ضرر، ومنها ما فيه ضررنا، ومنها ما فيه نفعنا.

وهكذا لا نستطيع أن نقطع بأن حركة الاستعراب كانت شؤما كلها على العرب ولا بأنها كانت خيرا كلها عليهم، وإنما كان فيها الخير وكان فيها الشر متجاورين، وربما زاد أحدهما على الآخر في فترة من الفترات حتى طغى عليه وشوه صورته.

إذن، كانت أهداف الاستعراب ـ لا في فرنسا وحدها، وإنما في سائر دول أوربا والغرب ـ متنوعة: فمنها ما كان لخدمة المصالح الدينية التبشيرية في البلدان العربية، ومنها ما كان لخدمة المصالح الاستعمارية والعسكرية، ومنها ما كان لخدمة المصالح الاقتصادية والتجارية، ومنها ما كان لخدمة الإعلام والجاسوسية، ومنها ماكان لخدمة العلم والآداب والفنون والفكر عامة.

غير أن الإنصاف يقتضي منا ألا نفسر نشأة حركة الاستعراب وتطورها في فرنسا بعامل واحد من العوامل المذكورة، لأن لكل فترة زمنية أهدافها، ولكل ظرف من الظروف المتحكمة في تنشيط هذه الحركة أو تثبيطها غاياته ومراميه، ولهذا كان من

الصواب جملة، في دراستنا هذه، أن نلم بمختلف الدوافع التي كانت تقف وراء قيام هذه الحركة واستمرارها. وبوسعنا أن نقول مطمئنين إلى هذا القول إن الهدف العام لحركة الاستعراب أو الدافع الرئيسي لها كان حب الكشف والتعرف والاطلاع للإفادة العلمية والتواصل الفكري بين الفرنسيين والعرب، بسبب مجاورة هذا المجال العربي الواسع لفرنسا خاصة وأوربا عامة، على الجانب الآخر للبحر الأبيض المتوسط الفاصل بينهما.

وإذا عدنا بأذهاننا إلى الوراء تاريخيا إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر اللذين ازدهرت فيهما حركة الترجمة ونقل العلوم العقلية والمنطقية والتجريبية المختلفة من العربية إلى اللاتينية في طليطلة وغيرها من المدن في غربي أوربا، فإننا سنجد التاريخ يتكرر مرة أخرى ولكن في اتجاه مضاد، ذلك لأن حركة مماثلة كانت قد سبقت هذه الحركة الأوربية للترجمة بأربعة قرون أو خمسة في بغداد عاصمة الخلافة العباسية كانت تقوم على نقل علوم الأوائل من يونان ورومان وسريان وفرس وهنود إلى العربية من لغاتها المختلفة: فماذا كان هدف هاتين الحركتين ــ العربية في القرنين السابع والثامن للميلاد، والأوربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ـ سوى الكشف للإفادة وتلبية الحاجة العقلية المتفتحة عند الطرفين في ظرف تاريخي محدد؟

ثم بعد إخفاق الحملات الصليبية في تحقيق أهدافها بالتغلب على العرب والاستيطان في بلادهم، عمل الغرب، وخاصة فرنسا، وبدوافع التعصب الأعمى، على شن حملات صليبية من نوع جديد مسالم تمثلت في قوافل المبشرين وإرسالياتهم على اختلاف كنائسهم ومذاهبهم. وترى الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء)، مثلا، أن «التوجيه التبشيري للاستشراق قدساير حركة جمع التراث في دورها الأول الذي قصد به إلى الانتفاع بما سبق إليه الشرق الإسلامي من علوم وثقافات، وليس من العسير علينا أن نفهم هذه المسايرة إذا أدركنا أن تراثنا حين عبر إلى أوربا كانت البيئات العلمية تأخذ عنه علومنا ومعارفنا، على حين التمست الكنيسة فيه ما تسخره لخدمة أغراضها الدينية»(١)

---

(١) انظر كتابها: تراثنا بين ماض وحاضر، ص ٥١.

لم تكن اللغـات الشرقية، ومنهـا العربيـة، معـروفة لـدى الأوربيين قبل الحروب الصليبيـة، ويرجع الفضل في دراسـة هذه اللغـات إلى المبشرين «الموفدين إلى البـلاد الشرقية من لدن البـاباوات، فهؤلاء هـم الذين حملوا معهم عنـد رجوعهم إلى بلادهم تلك اللغـــات»[1]، و«قد تطـورت عقيدة المسيحيين نحـو الشرقيين، بعد ظهـور الراهب مارتن لوثر، فأخذوا في تعلم لغـاتهم حبا في العلم لذاته، وخدمة للحقيـقة، وميلا لآداب اللغات، لا لغرض ديني أو سياسي أو تجاري، كما يزعم البعض»[2]. غير أننا لا نقر هـذا الرأي الأخير عند الأوربيين جميعا، لأننا رأينـا حركة التبشير تهتم بالعربية، كما أننا درسنا الأسباب التي دعت إلى إنشاء مدرسة (فتيان اللغات) وتلك المدرسة الخاصة بتعليم (اللغات الشرقية الحية)، وعرفنا أنها تنبع أساسا من الحاجات السياسيـة والتجارية بالـدرجة الأولى. وقد ينطبق ذلك على بعض البلـدان الأوربية المحايدة أو المعـزولة أو الضعيفة التي لا تمتلك طموحات دينية أو سيـاسية أو تجارية أو عسكرية توسعية في بلاد العرب كالبلدان الاسكندنافية مثلا، إلا أنه لا ينطبق على قوى استعمارية عريقة كبريطانيا وفرنسا على سبيل المثال.

لم تظفـر حركـة التبشير الأوربية خـلال تاريخهـا القديم والحديث بأي طـائل ولم تحقق هدفهـا في التحول من الإسـلام إلى المسيحية، وقـد كتب باولـوسكي في عرض ترجمة الدكتور ماردروس للقرآن الكـريم إلى الفرنسية يقول: «لقد بلغ من تأثير القرآن في قلـوب الثـلاثمئـة مليـــون مسلم مبلغـا أجمع معـه المبشرون على الاعتراف بأنهم لم يستطيعوا أن يردوا مسلما عن دينـه حتى اليوم»[3]. وكان قصارى مـا فعله المبشرون دعم الطوائف المسيحيـة في البلدان العربية والإشراف على مصالحهـا وتنظيم شؤونها الدينية.

وكـانت الترجمات الفلسفيـة عن العـربيـة تشن هجـوما عنيفـا على الـدراسـات اللاهـوتية، بما كـانت تولـد من جدل ومنـاقشات كانت تهز مجمـل التفكير الديني

(١) انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا للمستعرب النمسوي يوسف جيرا، ص ٥.
(٢) م. ن.
(٣) انظر ذلك في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٧، ١٩٢٧، ص ١٤٧.

لرجال الكنيسة، وقام بذلك رجال تحرروا من ربقة الكنيسة ورقابتها، مما دعا علماء اللاهوت إلى أن ينكبوا على دراسة هذه الترجمات ويتوسعوا في معرفة الفلسفة والآراء التي يؤتون منها، للتسلح بما يجب التسلح به من أفكار معارضة ومضادة عند حدوث جدل أو مناظرة بينهم وبين ممثلي هذا الفكر الجديد الخطر على اتجاهات التفكير الكنسي وأسلوب رجاله، فأصبح منهم مستشرقون للتصدي لخصومهم بالطريقة نفسها التي تعلموها من هذه الفلسفة المنقولة عن العرب لأرسطو وغيره من قدماء الفلاسفة(١).

وقد شجع البابوات على إدخال العربية إلى أوربا «إما ليكونوا قادرين على دفع هجوم الفلاسفة، أو لنشر المسيحية في الشرق، وكان ملوك فرنسا يساعدون الأكليروس ـ رجال الدين ـ في هذا النوع من الأفكار»(٢)

ثم نشطت حركة الاستشراق قبيل الغزو الاستعماري وسايرته حينا من الدهر، تقدم له ما هدى إليه تراث الشرق من فهم لعقليته ومزاجه. نعم، لعب المستعربون دورا بارزا في التمهيد والإعداد لدخول الاستعمار الفرنسي إلى بعض البلدان العربية: أو لم يكن عدد من العلماء، من بينهم مستعربون، يرافقون الجنرال بونابرت في حملته على مصر؟ أو لم يشترك المستعربون الفرنسيون وبعض المتعاملين معهم من أبناء الشرق العربي المقيمين في فرنسا أو الفارين إليها في الحملة على الجزائر مترجمين ووسطاء لجيش الغزو؟ أو لم يشتركوا بعد ذلك في ترسيخ هذا الاحتلال وتعميق جذوره؟ أولم يشاركوا كذلك فيما بعد في غزو تونس ومراكش وسورية؟ حقا لقد اشتركوا في ذلك كله، ولهذا فإننا لا نبرىء ساحتهم من المسؤوليات والتبعات التاريخية التي ترتبت على حركة الاستعمار، ولم يكن بالإمكان أن نتصور وقوف هؤلاء المستعربين وحدهم في وجه تيار حركة الاستعمار القوية الموضوعية آنذاك، حتى ولو أرادوا ذلك، ولم يكونوا قادرين على الحيلولة دون وقوع ما وقع، لأنهم كانوا منفعلين وخاضعين لأوامر وقرارات عليا، مع قناعتهم الذاتية بتصورات بلدانهم المزيفة عن طبيعة استعمارهم

(١) انظر: Dugat (G.), op.cit., p.IV.

(٢) انظر: op.cit., p.XXVI.

ورسالته السامية، حتى أنهم ليظنون أن عملهم الذي أدوه لحكومات بلدانهم وجيوشها الاستعمارية إنما هو عمل وطني وواجب مفروض عليهم يجب أن يؤدوه بحكم المهنة، ولذا لم يتخلفوا عن أداء واجبهم الوطني هذا حين دعوا إليه، بغض النظر عن النتائج غير الإنسانية التي لحقت بشعوب هذه المستعمرات التي أخذوا يسيطرون عليها مستغلين مواردها وخيراتها في سبيل مصالحهم الأنانية العليا. وهذه حقيقة تاريخية لا تسويغ لعمل هؤلاء العلماء في خدمة الآلة الاستعمارية لبلدانهم.

ومع زوال الوجود الاستعماري بتحرر الشعوب تدريجيا من سيطرته المباشرة ـ بعدما أثخنت بالجراح، وبعدما خلف الاستعمار آثارا كثيرة له في مختلف جوانب الحياة ـ نجد المستعربين ينتقلون إلى ممارسة أنشطتهم في ميادين أخرى ثقافية وفكرية وعلمية خالصة، ومع ذلك ظلت مشوبة بما يخدم أهداف بلدانهم السياسية والإعلامية والاستخباراتية والجاسوسية، مما لا ينقطع دابره عند أي أمة من الأمم الطموحة إلى الهيمنة والتوسع، إذ تحاول دوما أن تكون على علم بما هي عليه أوضاع الأمة المستهدفة بطموحها، لتتمكن بالتالي من التصرف السليم والدقيق حين تتعامل معها.

وأخذت أهمية الاستشراق تزداد في نظر الغرب، وراحت جذوره ترسخ وجذوعه تطول، وفروعه تمتد أكثر فأكثر، ومن هذه الفروع فرع الاستعراب الذي يعد أبرز فروع شجرة الاستشراق الضخمة بلا نزاع، وكان ذلك نتيجة ازدياد التواصل وتكاثر المصالح التي تشد فرنسا خاصة والغرب عامة إلى المنطقة العربية الشاسعة.

وأخذت حركة الاستعراب تزداد دقة وعمقا مع كل خطوة إلى الأمام، ومن ذلك مثلا ظهور التخصصات وتوسع ميادين البحث حتى شمل كل فروع الثقافة، إضافة إلى تعمق الدراسات في مجال الإحاطة والتحليل.

ويقابل حركة الاستعراب في الغرب ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح (حركة الأستغراب) في بلداننا العربية، وهي شبيهة من وجهة نظرنا في غاياتها وأهدافها لتلك الحركة. وقد أخذت تنشأ جديا مع ظهور الخطر الغربي على المنطقة العربية، وعلى

وجه الخصوص مع بدايات النهضة العربية الحديثة في أوائل القرن التاسع عشر، وقد تمثلت هذه الحركة بالانفتاح على الغرب، والاتصال به لتعلم لغته والعب من علومه وفنونه وآدابه وكل معارفه، بغية الإلمام بها واستيعابها ومن ثم تمثلها خير تمثل من أجل الإفادة منها في بناء ذواتنا وإعادة وصل لغتنا وثقافاتنا وأمتنا بركب الحضارة التي تحيط بنا في العصر الحديث.

ونحن نتابع اليوم المسيرة النهضوية التي بدأ بها أعلام القرن التاسع عشر وهذا القرن، ويحاول أبناء العربية ممن يتعرفون على الغرب أو يتعلمون لغاته أو يتخرجون في جامعاته أن ينقلوا إلى العربية كثيرا مما يتصل بأسباب نهضتنا وتطورنا، لأن حركة الترجمة في العصر الحديث لا تقل أهمية أبدا عن حركة الترجمة التي بدأت عند العرب في العصر القديم مع مطلع القرن الثاني للهجرة، وازدهرت ازدهارا عظيما في القرنين الثالث والرابع للهجرة في بغداد وغيرها من المراكز العلمية والثقافية النشطة في دولة الخلافة.

ونحن نُكَوِّن (المستغربين) من أبنائنا ـ في أغلب الأقطار العربية ـ بدءا من الصف الأول الإعدادي، أي في سن الثالثة عشرة، وذلك بتلقينهم مبادىء إحدى اللغتين الأكثر انتشارا في العالم: الانكليزية والفرنسية(١). ثم إنهم بعد قضاء ست سنوات في دراستها، يزدادون تعمقا فيها إذا تخصصوا بدراستها في أحد قسمي اللغة الإنكليزية أو الفرنسية في المرحلة الجامعية. زد على ذلك أن طلاب الجامعة يستمرون في دراسة إحدى هاتين اللغتين مدة أربع سنوات أو خمس أو ست، بحسب التخصص الجامعي الذي يدرسونه.

وقسما اللغة الإنكليزية والفرنسية في كليات الآداب في جامعاتنا العربية شبيهان بمدرسة اللغات الشرقية الحية التي مر بنا الحديث عنها من قبل، ولكنهما أضيق منها

(١) اتخذ وزير التعليم الفرنسي قرارا سنة ١٩٧٦ بجعل اللغة العربية من اللغات التي يختار منها الطالب لغة إضافية في المرحلة الثانوية، نظرا لازدياد اهتمام العالم بالتكتل العربي بعد حرب تشرين الاول من سنة ١٩٧٣، إذ برز هذا التكتل قوة سادسة على الصعيد العالمي. وقد كان الإقبال ملحوظا على إيفاد الطلاب الأجانب من الشرق والغرب على حد سواء إلى جامعة دمشق مثلا لدراسة العربية في قسم اللغة العربية.

بكثير وأفقر، لأن غاية ما يصبو إليـه هذان القسمان هو تخريج عدد كاف من مدرسي هاتين اللغتين في مـدارسنا الإعـدادية والثانـوية، وعلى نطاق ضيـق تخريج عدد ممن يعملـون في ميـدان الترجمة والإعـلام، وعلى نطـاق أضيق تكـوين علماء متخصصين بعمق بهاتين اللغتين.

والاقتصار على هاتين اللغتين، على وجه العموم في جـامعاتنا العربية، لا يكفي لتحقيق طموحاتنا الواسعة الساعية إلى الاتصال حضاريا بكل لغات العالم الأساسية على أقل تقديـر، والمعدودة ذات أثر ما في الحضـارة، حتى نفيد مما فيها إفـادة ولو في حدها الأدنى.

ولا شك في أن مثل هذا الاتصال يعد ضرورة أولية للنهوض والتقدم والإلمام بكل علوم العالم المعـاصر وآدابه وفنونه، لتصبح عنـدنا قاعدة أسـاسية صلبة نستطيع أن ننطلق منها نحو إعادة بناء ثقافتنا المعاصرة على أسس متينة، لأنه بنقل ثقافات الأمم الأخرى القديمة والحديثة، ولاسيما الجانب الحي فيهـا، يسهل على عقولنا أن تتفاعل مع تلك الثقافات ويخصبها ويجعلها أكثر شمولية وإحاطة.

ولا ندعو هنا إلى تعلم اللغات الغربية وحدها، وإنما ندعو إلى تعلم كل اللغات الحضـارية الأسـاسية في كل قـارات العالم بـلا تمييز، لأن تحقيق ذلك سيمكّن لغتنـا العـربية من استعـادة حيويتهـا التامـة وعـافيتها بعـدما لحق بها في عصـور التخلف والجمود. ويمهد تحقيق ذلك لجعل العـربية اللغة الثقافية الثانيـة للبلدان الإسلامية على سبيل المثال، إن لم يمهد لجعلها اللغة الثقافية الأولى لمجمل المسلمين في العالم. وتكتسب العربية بذلك تقدما ونجاحـا عظيما في الوصول إلى أن تصير لغة عالمية حية وهـامة ومن اللغـات القليلـة المعدودة على أصـابع اليـد الـواحدة من حيث الأهميـة والانتشار في ميدان العلاقات، والثقافة، والمعارف.

وعلينا أن نتجاوز التسميـات التقليدية البالية للغات العـالم: (اللغات الشرقية) و(اللغـات الغربيـة)، ومـا أشبه ذلك، لنطلق عـليها إجمـالاً اسـم (اللغات الحيـة في العالم). ويكن أن تقـام لهذا الغرض كليات في جـامعاتنا العـربية يطلق على كل

منها اسم: (كلية اللغات الأجنبية الحية)، وهـذه الكلية بدورها تنقسم بحسب أحد معيارين: الأول يراعى فيه انتماء مجموعـة من اللغات إلى أصل تاريخي واحد معروف (كاللغـات اللاتينية، والسـلافية، الخ.) وتقسم الكليـة بالتالي بحسب عـدد هذه الكتل اللغوية. والثاني يراعي كل لغة على حدة بغض النظر عن أصلها أو مجموعتها اللغوية التـاريخية، وهذا يعني أن تنقسم الكلية إلى أقسام بعـدد اللغات التي تدرس فيها عمليـا، على أن تزيـد هذه الأقسـام وتزدهـر باستمـرار، وذلك بإدخـال لغات جديدة بقـدر الإمكان والحاجة. على أن تكون غاية هـذه الأقسام جميعا تخريج جيل من الخبراء المختصين بأهم لغات العالم الحية، ليتمكن من نقل كل ما من شأنه إغناء لغتنا وثقافتنا، أو ليعمـل بعضه في خدمة الإعلام والسياسـة الخارجية، والصحافة، والجاسـوسية، ومختلف الشـؤون الأخرى بـالمناطق الـدولية وبمختلف الأمم والـدول في العالم.

وإذا كـانت فرنسـا خاصـة، والغرب عـامة، قـد سبقانـا إلى ارتياد تجربـة تعليم اللغـات الأجنبية الحيـة في بلدانهم، في مـؤسسـات تعليمية متعـددة، فهذا نمـوذج يحتذى على الأقل. ثم إن استمرار فرنسا والغرب في السير على هذا الطريق دليل على نجاح هـذه التجربـة، وعلى فائدتها المؤكدة. وقـد كانت (مـدرسة اللغـات الشرقية الحية) في باريس، يوما ما، هي النموذج الحي الذي احتذاه الشيخ رفاعة الطهطاوي رائد النهضـة العربيـة الحديثة، حين عـاد إلى مصر من بعثتـه إلى باريس، فأنشأ مـا أطلق عليـه اسم (مدرسـة الألسن) سنـة ١٨٣٥، وهي التي عـرفت فيما بعد بـاسم (كلية الألسن).

وسنحاول، فيما يلي من سطور، أن نرصد ونـدرس أهم الأنشطة العلمية الأخرى والفرعية التي مـارسها المستعربون الفرنسيون، ولم نتطـرق إلى الكلام عليها من قبل، لعلنا نجلو جوانب جديدة من صورة حركة الاستعراب في فرنسا لتظهر بشكلها الجلي والتام:

١ ـ العمل في مصالح الدولة والخدمات العامة:

من المسلم به أن يكون هدف تعليم اللغة الأجنبية عمليـا بالدرجة الأولى للإفادة

منها أداة للتواصل في المصالح المرتبطة بالدولة أو في الخدمات العامة من اقتصادية وتجارية وثقافية وسياسية وإعلامية. وقد تبين لنا مما مر بنا من قبل أن المؤسسات التعليمية الكبرى الثلاث في فرنسا وما يتبعها أو يتفرع منها أو يشابهها، كانت تهدف إلى تكوين المترجمين القادرين على خدمة بلادهم في الميدان السياسي والتجاري، كما نص على ذلك، مثلا، مرسوم تأسيس (المدرسة الخاصة بتعليم اللغات الشرقية الحية).

وسرعان ما أخذت المصالح تتوسع، وأخذت الحاجات تزيد تبعا لذلك إلى خدمات هؤلاء المترجمين، وكان من أسباب توسع هذه المصالح سرعة المواصلات وتطور وسائل الاتصال وازدياد سكان العالم بكثرة وتعقد علاقة بعضهم ببعض، وتداخل هذه العلاقات، وتطور المجتمعات وتقدمها في مختلف الميادين، وحاجة كل بلد إلى البلدان الأخرى في تلبية متطلباته الحيوية، نضيف إلى كل ذلك السبب التقليدي الهام، وهو حركة الاستعمار. ولذا فإننا نرى الفرنسيين عارفي اللغة العربية ينتشرون في دوائر الدولة ومؤسساتها لتسهيل أعمالها وتلبية حاجاتها إلى التواصل عن طريق الترجمة، يضاف إلى ذلك عملهم في شركات فرنسية عاملة في البلدان العربية أو داخل فرنسا ولكن لها صلات قوية ببعض البلدان العربية.

والمستعربون الذين يتخرجون في المؤسسات التعليمية أنواع: منهم المستعربون بالمهنة، وهم الذين يهبون حياتهم وجهودهم للبحث والتأليف والترجمة والتدريس. ومنهم المستعربون الدبلوماسيون الذين يعملون في نطاق المصالح السياسية لبلادهم، من أمثال السفراء والقناصل والملحقين في البلدان العربية، وكان أكثر هؤلاء يقبلون على تعلم اللهجات العربية العامية ذات الفائدة العملية. ومنهم المستعربون الإداريون الذين يعملون في إدارات الدولة داخل البلاد أو خارجها في المستعمرات والمحميات الفرنسية إبان العهد الاستعماري. ومنهم المستعربون العسكريون، وكانت مهمتهم العمل مترجمين في الجيوش المستعمرة أو في سلاح البحرية(١).

---

(١) انظر: Mirambel (A.) L'École des Langues Orientales de Paris et les études d'Orientalisme, in: Revue de l'enseignement supérieur, 1957, n°2, p.116.

ونـذكـر أن نـابليون، في حملتـه على مصر، كـان يـرى في مترجمه الخاص بـارادي دوفنتور الذي يتقن العربية والتركيـة معا «المستشرق الأول في أوروبا»، لأنه كان يترجم له بسرعة وتأنق خطاباته التي كانت سرعـان ما تؤثر التأثيرات المطلوبة منها في العرب المصريين. والمعروف أن هذا المترجم كـان من خريجي مدرسة فتيـان اللغات التي مر بنا ذكرها من قبل(١).

ومن أمثلة العاملين المترجمين في الجيش الفرنسي نذكـر جان ـ شارل زكار Zaccar (المولود في دمشق سنـة ١٧٨٩) الذي ترجم البـلاغ الأول الموجه من الجنرال بـورمون Bourmont إلى العرب الجزائريين سنـة ١٨٣٠، وقد شـاركه في تـرجمته قبـل انطلاق الحملة المستشرقـان دوساسي(٢) وبيـانكي Bianchi. وكـان من مترجمي الجيش الفرنسي في الجزائر أيضا جـواني فرعون (من بعلبك بلبنان)، وكان أبوه إليـاس فرعون مترجما لجيش الحملة الفرنسية على مصر، وقد ولد ابنه جواني في القاهرة سنة ١٨٠٣، وقد عمل جواني كذلك مترجما للحكومة العامة في الجزائر(٣).

وكان خريجو مـدارس تعليم العربية في الجزائر وقسنطينة ووهران يلتحقـون غالبا بهيئة المترجمين العسكريين في الجزائر(٤).

وقـد صدر سنـة ١٨٨٠ مرسـوم يحدد قبول طـلاب مدرسـة اللغات الشرقيـة في وظيفة مترجم في مصالح الدولة، نص في مادتـه السابعة على أن لحاملي دبلوم مدرسة اللغات الشرقيـة الحق هم وحدهم في هذه الـوظيفة حصرا، ويفضل منهم من عمل في مراكـز دبلوماسية وقنصليـة في المشرق مدة ثلاث سنـوات على الأقل، أي أن هذا العمل كان يتطلب منهم خبرة عملية مـن خلال الالتحاق بخدمات خـارجية لوزارة الشؤون الخارجية (٥). وقد شجع حصر القبول في هذه الوظيفة بخريجي هذه المدرسة

---

(١) انظر: .Massé (H.), op.cit., p.2-3

(٢) له ترجمة وافية في الفصل السادس من هذا البحث.

(٣) انظر: .Carrière (A.), op.cit., p.XVII

(٤) انظر: .Massé (H.), op.cit., p.8

(٥) انظر: .Carrière (A.), op.cit., p.LII. marg.1

على تحول الراغبين في هذه الوظيفة عن كل المؤسسات الأخرى، فازداد بذلك الإقبال على دروس مدرسة اللغات الشرقية هذه ازديادا كبيرا.

وصدر أمر ملكي قبل ذلك، في الجزائر، يفرض على الموظفين المدنيين جميعا الإلمام باللغة العربية بدءا من سنة ١٨٤٧، غير أن هذا الأمر بقي حبرا على ورق إلى أن صدر مرسوم سنة ١٨٤٩ ينص على إلزام بعض أنواع الموظفين المدنيين بدراسة العربية[١].

ومن الأمثلة البارزة على العاملين في ميدان السلك الدبلوماسي المستعرب المشهور كليمان هوار الذي تخرج في مدرسة اللغات الشرقية سنة ١٨٧٣، وكان أول من حاز شهادة الدراسة فيها أي (الدبلوم) بعد استحداثه، وقد عين إثر ذلك مترجما مبتدئا في قنصلية فرنسا بدمشق سنة ١٨٧٥، ثم عين مترجما ثالثا في السفارة الفرنسية بالآستانة من سنة ١٨٧٨ إلى سنة ١٨٨٥، ثم تم تعيينه مترجما ثانيا في سنة ١٨٩٧، وعين من ثم مترجما في وزارة الخارجية بباريس سنة ١٨٨٩، ثم عين أمين سر مترجما من الدرجة الأولى سنة ١٩٠٧ لدى الحكومة في وزارة الخارجية، ثم عين قنصلا عاما لحكومته في دمشق، ونقل بعد ذلك ليعمل مدرسا في مدرسة اللغات الشرقية بباريس[٢].

ويقول الدكتور طه حسين عن عمل بعض المستعربين الفرنسيين في أجهزة مخابرات بلادهم: «وأذكر مثلا أن ماسينيون، وهو مستشرق فرنسي مشهور، كان عضوا في مجمع اللغة العربية، وله أبحاث في الدراسات الإسلامية. . هذا المستشرق كان موظفا في إدارة المخابرات في وزارة الخارجية الفرنسية، وكان إذا جاء إلى مصر فإنه يسعى إلى مقابلة الملك فؤاد، ثم من بعده فاروق، ولكن بعد قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ حاول مقابلة عبدالناصر فلم يفلح»[٣].

---

(١) انظر: Massé (H.), op.cit., p.24.

(٢): انظر النبذة المختصرة التي نشرت عنه بمناسبة نعيه بعنوان: (الأستاذ كليمان هوار) في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٧، ١٩٢٧، ص ١٢٧.

(٣) انظر مقالة: تعليقات وأقوال مأثورة لطه حسين للدكتور محمد الدسوقي، في: مجلة العربي بالكويت، ع ٢٠٧، ١٩٧٦ ص ١٤٩.

ونحن نتوقع اليوم أن يكون عدد كبير من المستعربين الفرنسيين ممن يقدمون أيضا خدمات جلى لبلادهم في مصالحها وإداراتها المختلفة : كوزارة الشؤون الخارجية، ووزارة الحربية، ووزارة الثقافة، ووزارة الإعلام، ووزارة التعليم الوطني، ووزارة الاقتصاد، ووزارة التجارة، وفي السفارات والقنصليات الفرنسية في مختلف البلدان العربية، وهذا أمر مسلم به لدى دولة ترى أن لها مصالح دائمة وثابتة في الشرق العربي، وأن لها صلات تقليدية عريقة ببعض أجزائه.

هذه هي الخدمات المختلفة التي يقدمها المستعربون الفرنسيون لمصالحهم الوطنية الخاصة بأجهزة دولتهم ودوائرها، ومن الطبيعي أنه كلما ازدادت الوظيفة دقة وحساسية انتدب لها واحد من أبرز المستعربين وأعمقهم تخصصا واطلاعا للقيام بأعبائها، وإنما يُسْأَل في الأمر صاحب الاختصاص فيه.

٢ ــ المشاركة في عقد المؤتمرات الدولية للمستشرقين عامة والمستعربين خاصة :

لما كان العمل التعاوني والجماعي أمرا مفيدا في كل المجالات الصعبة التي تتميز بالسعة والعمق، فقد شعر كثير من علماء المشرقيات أن التواصل فيما بينهم ستكون له آثار عظيمة في تكامل جهودهم وتطوير دراستهم، فتجاوزوا طريقة المراسلة ودعموها بصيغة جديدة للعمل أوجدها القرن التاسع عشر في مجال السياسة أولا، ثم انتقلت لتطبق في مختلف الأنشطة البشرية الأخرى، وهذه الطريقة التي استشرت سريعا في كل مجال هي (المؤتمرات). وفي المؤتمر يلتقي عادة العاملون في مجال تخصصي واحد، ممن تربط بعضهم ببعض أفكار مشتركة وقضايا متشابهة.

وقد دعا إلى فكرة عقد مؤتمر دولي للمستشرقين الأوربيين العالم الفرنسي ليون دو روزني في أواخر القرن الماضي، ودعي إلى حضور المؤتمر الأول جميع مستشرقي أوربا، وتم عقده بالفعل في باريس سنة ١٨٧٣ . ثم توالت هذه المؤتمرات من حين إلى حين، متنقلة من مدينة أوربية إلى أخرى، إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى سنة

١٩١٤ ، فانقطعت إلى أن استؤنفت في سنة ١٩٢٨ بالمؤتمر السابع عشر، الذي عقد في أكسفورد[١] .

وكان كل مؤتمر من هذه المؤتمرات ينشر، في ختام اجتماعاته، البحوث والدراسات التي قدمت فيه من قبل المستشرقين المشاركين، فيما يعرف بـ (أعمال المؤتمر)، لتعم الفائدة سائر المهتمين بهذا المجال.

وقد توسعت دائرة المشاركين في مثل هذه المؤتمرات، بعد أن كانت وقفا على المستشرقين الأوربيين، لتشمل عددا لا بأس به من المستشرقين والمستعربين من خارج أوربا، ممن أسهموا في أعمالها وقدموا بحوثا قيمة ضمن أنشطتها. وهكذا أتيحت الفرصة لباحثين عرب ومسلمين وشرقيين كي يلقوا بحوثهم فيها[٢] . وكان للمستعربين الفرنسيين إسهامات بارزة في أنشطة هذه المؤتمرات الدولية التي بلغ عددها تسعة وعشرين مؤتمرا خلال قرن تام من الزمان، وقد عقد هذا المؤتمر التاسع والعشرون، في الذكرى المئوية لعقدها منذ المؤتمر الأول، سنة ١٩٧٣ في المدينة نفسها أي باريس. وقد شارك فيه عن القطر العربي السوري أستاذنا المرحوم شكري فيصل.

ثم إن هذه المؤتمرات لم يقتصر عقدها على مدن أوربا، وإنما انتقلت أحيانا لتعقد في إحدى العواصم الشرقية، ومنها مثلا: مؤتمر الجزائر (سنة ١٩٠٥) الذي كان ترتيبه الرابع عشر، ومؤتمر إستنبول (سنة ١٩٥١) وترتيبه الثاني والعشرون، ومؤتمر نيودلهي (سنة ١٩٦٤) وترتيبه السادس والعشرون، الخ. ولم تتم استضافة هذه المؤتمرات في أي عاصمة عربية مستقلة حتى اليوم.

وإذا وضعنا جانبا هذه المؤتمرات الشمولية التي كانت تشتمل على كل فروع الدراسات الاستشراقية ـ والعربية منها حكما ـ على وجه العموم، فإننا نجد نوعا أكثر تخصصا وأدق توجها في ميدان الدراسات يتمثل في مؤتمرات مقصورة على الدراسات

(١) انظر : تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ليوسف جيرا، ص ٤٧ .
(٢) انظر: تراثنا بين ماض وحاضر للدكتورة عائشة عبدالرحمن، ص ١٥٦ .

العربيـة والإسلامية حصرا. وقـد عقد المؤتمر الأول في سلسلة هـذه المؤتمرات في شهر أيلول من سنـة ١٩٦٢ في مدينـة قرطبـة بإسبانيـا، وهي المدينة التي كـانت يومـا ما عاصمة الخلافـة الأموية إبان العصر العربي الأندلسي، وتقـرر في هذا المؤتمر أن يعقد بعـد ذلك مرة كل سنتين أو ثـلاث سنـوات، واتخذ المؤتمر في جلسته الختـامية عـدة مقررات نص الثاني منها على أن هدف هذه المؤتمرات التي تضم المستعربين الأوربيين وتجمع شملهم هو تقـديم الدراسـات العربية إلى الاختصـاصيين في أوربا الغـربية، وتوفير فرص خاصة لتبادل وجهات النظر والمعلومات العلمية(١).

وتم صدور أعمال هـذا المؤتمر في مدريد سنة ١٩٦٤ في مجمـوعة عنوانها: (أعمال المؤتمر الأول للدراسـات العربية والإسـلامية) Actas de primer congreso de estudios arabes e islamicos

وكان المستعربون الفرنسيون الذين شاركوا في هذا المؤتمر الأول هم:

١ ـ غارديه L. Gardet.

٢ ـ غواشون A. M. Goichon.

٣ ـ فايدا G. Vajda.

٤ ـ أرنالديز R. Arnaldez.

وقد عقـد المؤتمر الخامس للمستعـربين وعلماء الإسلاميات في بـروكسل عـاصمة بلجيكا في أواخر آب وأوائل أيلول من سنـة ١٩٧٠،. وقد اشترك فيه من المستعربين الفرنسيين كل من:

١ ـ آرييه R. Arié.

٢ ـ أودبير Cl. Audebert.

٣ ـ بودو ـ لاموت A. Boudot-Lamotte.

٤ ـ برونشفيغ B. Brunschvig.

٥ ـ ريمون A. Raymond.

وشارك فيه من الباحثين العرب كل من:

---

(١) انظر حول ذلك: Congrès d'Études arabes à Cordoue, in: Arabica, t. X, 1963, p.111.

١ ـ الدكتور إحسان عباس.

٢ ـ الدكتور محمد يوسف نجم.

وأما المؤتمر السابع للدراسات العربية والإسلامية فقد عقد في مدينة غوتنغن Gottingen بألمانيا الاتحادية سنة ١٩٧٤ . ورَبْط الدراسات العربية بالدراسات الإسلامية باستمرار في هذه المؤتمرات إنما هو تعبير عن الترابط العضوي القوي بين العرب والإسلام بعد ظهوره، أو بتعبير آخر بين اللغة العربية والإسلام.

وإذا كان لنا أمل في هذه المؤتمرات، سواء منها المؤتمرات الدولية العامة للمستشرقين أو مؤتمرات المستعربين الخاصة، فهو أن نتعاون معها ونشارك في نشاطها من أجل إفادتها وإفادتنا معا، ولنا أمل كبير أيضا في استضافة النوع الثاني من هذه المؤتمرات من حين إلى آخر في إحدى الدول العربية من باب تشجيعها وتصحيح مسارها والتأثير في جيل المستعربين الشباب في مختلف بلدان العالم ودعمه، لما في ذلك من كسب كبير لنا ولثقافتنا، وخصوصا أن الجو مهيأ اليوم لمثل هذا الاستقطاب بعد أن لفت العرب أنظار العالم إليهم إثر حرب تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٧٣، كما لفتوا الانتباه أيضا إلى وحدتهم التي تجلت في التضامن العربي إبان تلك الحرب. مما دعا إلى إقبال أعداد كبيرة من الشباب الأجانب، ومن مختلف الجنسيات، على تعلم العربية والاهتمام بها بالسفر إلى البلدان العربية نفسها والتسجيل في جامعاتها. وتجلى ذلك في اتخاذ القرارات بجعل اللغة العربية لغة اختيارية ثانية في المرحلة الثانوية من التعليم الوطني في بعض الدول والبلدان (كما هي الحال في قرار وزير التعليم الوطني الفرنسي بهذا الشأن). كما أن ذلك أثّر في اتخاذ الأمم المتحدة قرارا باعتماد العربية لغة رسمية معتمدة في منظماتها وجلساتها المختلفة إلى جانب اللغات الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والروسية. كما عزز في الوقت نفسه تعليم العربية في البلدان الإسلامية أكثر فأكثر.

وقد اعتاد بعض المستعربين في فرنسا أن يعقدوا في جامعاتها أو مؤسساتها العلمية ندوات أو مؤتمرات للدراسات العربية والإسلامية هي صورة لمؤتمرات المستعربين

الآنف ذكرها، وهي تضم مستعربين من داخل فرنسا، ويشاركهم فيها بعض العرب الباحثين والأساتذة في تلك الجامعات. وتقيم هذه المؤتمرات بعض الروابط والجمعيات المهتمة بتوثيق الصلة بين العرب والفرنسيين على الصعيد الثقافي. ومن ذلك المؤتمر الذي انعقد في مونبلييه في أيار من سنة ١٩٧٧، تحت شعار: «الحضارتان العربية والأوربية ثقافتان متكاملتان»، ونشر أعماله بعنوان: (أضواء عربية على الغرب في العصر الوسيط). واشترك فيه من المستعربين الفرنسيين كل من:

١ ـ أرنالديز.

٢ ـ أندريه ميكيل.

٣ بابادوبولو Papadopoulo.

٤ ـ شابربيه J. -- Cl. Chabrier

٥ ـ هورنوس J. -- M. Hornus.

٦ ـ ميشو J. Michaud.

ومن الباحثين العرب المقيمين في فرنسا:

١ ـ توفيق فهد.

٢ ـ أمينة راشد (أو رشيد) A. Rachid.

٣ ـ محمد أركون.

٤ ـ يواكيم مبارك.

٥ ـ وهيب عطا الله.

وقد نشرت أعمال هذا المؤتمر بعناية رابطة التضامن الفرنسي ـ العربي.

٣ ـ الاشتراك في تحرير مواد الموسوعة الإسلامية:

طرح بعض المشتركين في المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين، المنعقد في مدينة جنيف (بسويسرا) سنة ١٨٩٤، فكرة إنشاء موسوعة تبحث موادها في الحضارة الإسلامية وفي مختلف الشؤون المتعلقة بالعرب تاريخا وجغرافية ولغة وأدبا وفنا وعلما وفلسفة، بغية تغطية ثقافتهم تغطية تامة في كل ميدان وبحسب آخر ما توصلت إلية

بحوث المستعربين وعلماء الإسلاميات، لا في فرنسا وحدها، وإنما في بلدان أوربا والغرب عامة. وقد لقيت هذه الفكرة فعلا ترحيب المشتركين في هذا المؤتمر، فشكلت لجنة إشراف على تنفيذها تتألف من المستشرقين التالين:

١ ـ الفرنسي: باسيه R. Basset.

٢ ـ الإنكليزي: أرنولد T. W. Arnold.

٣ ـ الألماني: هوتسما Houtsma.

٤ ـ الألماني: هارتمان Hartmann.

وقد شارك عدد كبير من أبرز المستشرقين من علماء الإسلاميات ومن المستعربين في تحرير مواد الموسوعة الإسلامية، وكان نصيب الفرنسيين في هذا العمل كبيرا. وكانت فكرة هذه الموسوعة قد استوحيت من مصدرين رئيسيين: الأول والأقدم هو (المكتبة الشرقية) التي وضعها ديربلو، وقد سبقت الإشارة إليها وإلى مكانتها في حركة الاستشراق عامة وحركة الاستعراب على وجه الخصوص، في مكان سابق من هذا البحث. والثاني الموسوعة الفرنسية التي وضعت في القرن التاسع عشر.

وكانت فكرة الموسوعات بحد ذاتها فكرة تهدف إلى تناول شتى المعلومات في ناحية واحدة أو مجموعة نواح من الحياة الثقافية في المجتمع، بتركيز شديد واختصار يسهل البحث ويوفر الجهود في عصر السرعة والشمول والاختزال، إذ لا يملك المرء العادي، وحتى الباحث المختص، الوقت المديد، إذا أراد معرفة شيء عن نقطة معينة تمر به أثناء بحثه الطويل، لكي يعود إلى قراءات واسعة واستقصاءات متنوعة للوصول إلى هذه المعرفة. ولذا كانت فكرة الموسوعات تقوم على توفير الوقت والجهد معا، ليبذلا في غير ذلك من الأعمال، ومن هنا كانت صفات التنظيم والاختصار والشمول في الموسوعات صفات أساسية وضرورية لها.

وتم إنجاز الطبعة الأولى من (الموسوعة الإسلامية) في أربعة مجلدات مع جزء ملحق على التوالي، بدءا من سنة ١٩١٣ وانتهاء بسنة ١٩٤٢، بثلاث لغات مستقل كل منها عن الأخريين، وهي: الفرنسية E. I.، والألمانية، والإنكليزية. وكان المجلد

الواحـد يتألف من قرابة ألـف وأربعمئة صفحة من القطع الكبير، وبحـرف طباعي دقيق ناعـم، وورق رقيق. وقد رتبت مواد هـذه الموسوعـة ترتيبـا هجائيـا متسلسلا، لتسهيل مـراجعة أي مـادة فيها على البـاحثين والقراء المطـالعين. وفي آخر كل مـادة يذكر اسم كـاتب المادة من المستشرقين والمستعربين وغيرهم، فيكتب الجزء الأول منه مختصرا بـالحرف الأول أو الحرفين الأولين منه، ثم يـذكر الجزء الثـاني أو اسم العائلـة بتمامه (مثل: وليم مارسيه W. Marçais وكليمان هوار Cl. Huart) ويكون ذكر هذا الاسم عادة بعـد أن يسرد كاتب المادة جملـة مراجِعـه المعتمدة في كتابتهـا مرتبـة أيضا ترتيبا هجائيا لتُعين الباحث على العودة إلى الأصول إن شاء التوسع فيها.

وكان المستشرقون من علماء الإسلاميات والمستعربون أنفسهم يقومون بترجمة المواد المحـررة بلغة مـن اللغات الثـلاث إلى اللغتين الأخـريين مباشرة، ليتـم صدور هـذه الموسوعة باللغات الثلاث في الوقت نفسه.

وعندما أنجزت هذه الطبعة نهائيا ونفدت نسخها، طرح في المؤتمر الدولي الحادي والعشرين للمستشرقين، المنعقد في بـاريس سنة ١٩٤٨، مشروع طبعة ثانيـة منقحة لهذه الموسوعـة نفسها، وقد أقر المؤتمر هـذا المشروع على أساس إنجاز الطبعة الثـانية المنشـودة في ستة مجلـدات يتألف كل منها من ثمانين ملـزمة أو ١٨٢٠ صفحـة، من القطع والحرف المستعملين في الطبعـة الأولى، مع التوصيـة بإصدار فهـرس عام لمواد الموسوعة وكتابها، مع أطلس جغرافي وتاريخي، وتحلق هذه الذيول بجملة المجلدات الستة المحتـوية على متن المواد. وأوصـى المؤتمر بأن تصدر هـذه الموسوعـة في طبعتها الثـانية بـاللغتين الفرنسيـة والإنكليـزية فقط. وقـد وضع مشروع هذه الطبعـة تحت إشراف ليفي ـ بروفنسـال، وأسند هذا الإشراف بعد وفاتـه سنة ١٩٥٦ إلى المستعرب الفرنسي الآخر شارل بيلا. وقد بـدىء بإصدارها سنة ١٩٥٤ بشكل ملازم متسلسلة إلى أن اكتمل المجلد الأول سنـة ١٩٦٠. وقد أفسح المجال في الطبعة الجديـدة لعدد أكبر من المواد في موضوعـات اقتصادية واجتماعية وفنيـة، كما سمح للباحثين العرب بأن يشاركوا في تحريـر موادها، وسمح كذلك للبـاحثين المسلمين بأن يسهموا فيها، وسمح أيضـا للباحثين اليهـود في فلسطين المغتصبة بمثل ذلك. وتمت إعـادة قسم

كبير من مواد الطبعة الأولى في الطبعة الجديدة، وقد أشير إلى مثل هذه المواد القديمة المنقحة على يد لجنة تحرير الطبعة الجديدة بنجمة توضع عند اسم كاتبها الأصلي، ويتبع هذا الاسم مباشرة وبين قوسين اسم منقح المادة(١).

ولما كانت لغات هذه الموسوعة، في طبعتها الأولى، الفرنسية والألمانية والإنكليزية، وفي طبعتها الثانية الفرنسية والإنكليزية فقط، فقد كان لابد من مواجهة مشكلة كتابة بعض الأصوات العربية، التي لا مقابل لها في هذه اللغات، بالحروف اللاتينية والتعبير عنها تعبيرا دقيقا لا لبس فيه: كالهمزة، والثاء، والحاء، والخاء، والذال، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والعين، الخ.

وقد وضع المستعربون المشاركون في مؤتمر جنيف سنة ١٨٩٤، لحل هذه المشكلة، طريقة لكتابة هذه الأصوات العربية وذلك بإدخال بعض التعديلات على بعض الحروف اللاتينية، بوضع إشارات معينة فوق هذه الحروف أو تحتها، للاصطلاح على أن يُعَبِّر كل منها عن أحد الأصوات العربية موضوع المشكلة، وقد أوصوا بتعميم استعمال هذه الطريقة في كل كتابات المستعربين للتعبير عن الأصوات العربية في الأسماء أو الكلمات العربية التي تمر في هذه الكتابات.

غير أن مستعربا ألمانيا كبيرا هو كارل بروكلمان (١٩٥٦م) C. Brockelmann لم يلتزم هذه الطريقة الجديدة بحذافيرها، وتميز في كتاباته عامة، وفي كتابه المشهور: تاريخ الأدب العربي Geschichte der arabischen Literatur الذي بدأ بنشره سنة ١٨٩٨، بتعديلاته الخاصة على بعض هذه الحروف اللاتينية المعبرة عن الأصوات العربية. ومن الجدير بالذكر هنا أن الباحث الألماني الجنسية والتركي المسلم أصلا (فؤاد سيزكين) قد استعمل في كتابه المشهور أيضا والمترجم إلى العربية بعنوان: تاريخ التراث العربي Geschichte des arabischen Schriftums، الحروف اللاتينية المعدلة نفسها التي كان بروكلمان قد استعملها من قبل.

---

(١) انظر مقدمة المجلد الأول من الموسوعة الصادرة سنة ١٩٦٠، وكذلك:
Pellat (Ch.) Langue et littérature arabes, 2ème éd., Paris, 1970, P.8.

يضـاف إلى ذلك أن مستعربـا إيطاليـا كبيرا أيضـا هو ليـوني كايتـاني (١٩٢٦م) L.Caetani استعمل طريقة خاصة به في تعديل الحروف اللاتينية لتعبر عن الأصوات العربية مـوضوع المشكلة، في كتابـه المشهور كذلك: حـوليات الإسلام Annali del Islam، وكان قد بدأ بنشره قبل صدور المجلد الأول من الموسوعة الإسلامية.

وهذا جـدول مقارن لهذه التعديلات الثـلاثة التي اصطلح عليها عنـد مستعربي أوربا لخدمة التعبير عن الأصوات العربية بالحروف اللاتينية:

الحرف العربي	الموسوعة الإسلامية	تاريخ الأدب العربي لبروكلمان	حوليات الاسلام لكايتاني
ـَ ، آ ، ـْ	a, ā, ـْ	a, ā, ـْ	a, ā, ـْ
أَ ، أُ ، إِ	'i, 'u, 'a	'i, 'u, 'a	'i, 'u, 'a
ب	b	b	b
ت	t	t	t
ث	t̲h̲	t̲	t̲h̲
ج	d̲j̲	ǧ	ǵ
ح	ḥ	ḥ	ḥ
خ	k̲h̲	ḫ	k̲h̲
د	d	d	d
ذ	d̲h̲	d̲	d̲z̲
ر	r	r	r
ز	z	z	z
س	s	s	s

الحرف العربي	الموسوعة الإسلامية	تاريخ الأدب العربي لبروكلمان	حوليات الاسلام لكايتاني
ش	s͟h	š	š
ص	ṣ	ṣ	s̲
ض	ḍ	ḍ	d̲
ط	ṭ	ṭ	t̲
ظ	ẓ	ẓ	z̲
ع	ʿ̲	ʿ̲	ʿ̲
غ	g͟h	ġ	g̲h
ف	f	f	f
ق	ḳ	q	q
ك	k	k	k
ل	l	l	l
م	m	m	m
ن	n	n	n
هـ	h	h	h
وْ ، ـُ	u, ū	u, ū	u, ū
يْ ، ـِ	i, ī	i, ī	i, ī

ويعبر عن الواو غير الممدودة بحرف (w) ، ويصبح في حالات (النصب والرفع والكسر) على التوالي كما يلي : wi, wu, wa .

كما يعبر عن الياء غير الممدودة بحرف (y)، ويصبح في حالات النصب والرفع والكسر) على التوالي كما يلي :

yi , yu, ya

ويعبر عن صوت (أو) بـ (aw) وعن صوت (أيْ) بـ (ay)، الخ.

وقد استعمل المستعرب الفرنسي شارل بيلا في كتابه: اللغة العربية وآدابها Langue et Littérature arabes بعض الحروف اللاتينية المعدلة الأخرى لاستعماله الخاص الذي يتوجه به إلى جمهور القراء والمثقفين الفرنسيين في التعبير عن الأصوات العربية، مثل: ش = ch

ص = ç

â = i

وْ = û

يْ = î

وقد حاول ثلاثة من خريجي كلية الآداب بجامعة القاهرة هم:

١ ـ ابراهيم زكي خورشيد.

٢ ـ أحمد الشنتناوي.

٣ ـ عبدالحميد يونس.

أن ينقلوا هذه (الموسوعة الإسلامية) إلى اللغة العربية من طبعتها الأولىء بعنوان: (دائرة المعارف الإسلامية)، وقد أنجزوا ترجمة القسم الممتد من حروف (الألف) إلى حرف (الطاء)، مابين سنتي ١٩٣٣ و١٩٦٥. وأخذوا، سنة ١٩٦٩، يعيدون طبع هذه الدائرة، مع إضافة ترجمة للمواد الجديدة أو المنقحة التي وردت في الطبعة الأوربية الثانية في مواضعها من ترتيب المواد وفق الهجائية العربية، وقد ظهر منها ثلاثة عشر مجلداً وقعت في قرابة ستة آلاف وسبعمئة صفحة.

ولم يكن جهد المترجمين الثلاثة وقفا على ترجمة مواد الموسوعة، وإنما امتد إلى إثبات تعقيبات مفيدة على آراء محرري هذه المواد لعدد من أعلام الكتابة والفكر البارزين على الصعيد الثقافي آنذاك، من أمثال: مصطفى عبدالرازق، وأحمد أمين، وأمين الخولي، وابراهيم مدكور، ومهدي علام، الخ [1]. وكان القصد من هذه

(١) انظر مقالة: دائرة المعارف الإسلامية للدكتور سيد نوفل، في مجلة الهلال المصرية عدد يناير (كانون الثاني) ١٩٧٦، ص ٦ ـ ١٣

التعقيبات تفنيد الآراء المنحرفة التي انجر إليها أو تَقَصَّدَها بعض المستشرقين المغرضين، أو تصويب أخطاء علمية وقع فيها بعضهم الآخر سهوا وعن غير قصد، أو دفع شبهة أو تهمة باطلة اخترعها بعض الدساسين وألصقوها بالعرب أو الإسلام بغية التشهير بهما أو الطعن فيهما.

وتعد هذه الموسوعة ـ سواء في طبعتها الأولى التي تجاوز الزمن كثيرا من موادها، أو في طبعتها الثانية المنقحة والمزيدة، أو في ترجمتها العربية ـ مصدرا من مصادر البحث العامة والهامة للدارسين والباحثين الغربيين والشرقيين في الشؤون والدراسات العربية والإسلامية، بل لا غنى لهم عنها البتة.

وإننا لنشعر اليوم بحاجة ماسة إلى (موسوعة إسلامية) تُحَرَّر موادها بأيدي باحثين عرب ومسلمين، تصدر باللغة العربية على الأقل، إن لم نحاول إصدارها بعدد من اللغات الكبرى الأساسية للشعوب الإسلامية في هذا العالم. كما أننا بحاجة ماسة كذلك إلى موسوعة أخرى تعنى بشؤون العرب وحضارتهم من جميع النواحي وتعرف باسم (الموسوعة العربية) ويشارك في وضع موادها وتحريرها كل الكتاب والباحثين والعلماء والمفكرين والشعراء والأدباء والخبراء العرب داخل البلدان العربية وخارجها، كل في نطاق اختصاصه وحقله الذي برز فيه وأبدع. وقد صدر في سورية بالفعل مرسوم تشريعي (رقمه ٣ لسنة ١٩٨١) يقضي بإحداث (هيئة الموسوعة العربية) وكل ما يتعلق بشأنها أو يخدم هدفها أو ينظمها. وهذا مشروع طموح لا يمكن أن تنجزه جهود الأفراد القلائل مهما أوتوا من طاقة، ولابد فيه من مشاركة كل القادرين على الكتابة ومن العمل الجماعي المنظم ومن إسهام المؤسسات الثقافية والعلمية في الأقطار العربية قاطبة.

٤ ـ تأليف الجمعيات الاستشراقية والاستعرابية والإسهام في أنشطتها:

كان الهدف الأول من إنشاء مثل هذه الجمعيات العلمية تجميع جهود العلماء في الميدان الذي يعملون فيه، وتوفير التعاون فيما بينهم، ومنع هدر الجهود في تكرار بحوث قد طرقت من قبل، وتوجيهها نحو أعمال جديدة لم تطرق بعد. ونجد

المستشرقين الفرنسيين تلبية لذلك يسارعون إلى إجابة دعوة سلفستر دوساسي إلى إنشاء جمعية علمية للدراسات الشرقية في باريس سنة ١٨٢٢ أطلقوا عليها اسم: الجمعية الآسيوية Société Asiatique وقد أصدرت هذه الجمعية منذ إنشائها صحيفة لنشر دراسات أعضائها هي: (المجلة الآسيوية) le Journal Asiatique وقد ساعدت هذه الجمعية على ترسيخ قدم الدراسات الشرقية عامة، والعربية خاصة، وعلى استمرارها في مؤسسة ثابتة متجددة، بعد أن كانت هذه الدراسات عرضة للانقطاع في الفترات السابقة، نظرا لخضوعها للظروف والتيارات والأمزجة المتقلبة باستمرار في أغلب الأحيان، ونظرا أيضا لاعتمادها على الجهود الفردية المتفرقة. وقد نال الدراسات العربية من هذه الجمعية وأعضائها نصيب وافر من الاهتمام، إذ أن مؤسسها ورئيسها الأول كان المستعرب المشهور وعميد الدراسات العربية في فرنسا خاصة وأوربا عامة سلفستر دوساسي، والمعرف أنه ترأس هذه الجمعية فعليا حتى سنة ١٨٢٥، وشرفيا بعد ذلك حتى وفاته سنة ١٨٣٨.

وكانت أنشطة المستشرقين والمستعربين في هذه الجمعية كثيرة منها على سبيل المثال: البحث والتأليف، والتحقيق والنشر، وعقد الجلسات، وإلقاء المحاضرات، وتبادل الخبرات والأفكار والآراء فيما بينهم في مختلف الشؤون.

وقد احتفلت الجمعية الآسيوية، سنة ١٩٢٢، بالذكرى المئوية لإنشائها، وكانت دول أخرى مثل: بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة وغيرها قد حذت حذو فرنسا بعد إنشاء تلك الجمعية، فأنشأت جمعيات مشابهة تحمل تسميات قريبة منها، نظرا لما تعود به من فائدة عظيمة على الدراسات الشرقية[1]

ومن بين أعضاء الجمعية الآسيوية الفرنسية من المستعربين الفرنسيين، سنة ١٩٧٥، كل من: كلود كاهن، وهنري لاوست، وشارل بيلا، وجورج فايدا.

ثم راح هذا النوع من النشاط يأخذ نطاقا أكثر تخصصا وأضيق، فنشأت بذلك

---

(١) انظر مقالة: تاريخ دراسة المشرقيات في أوربا لفيليب حتي، في مجلة الهلال المصرية، مج ٣٣، ١٩٢٣، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

جمعيات أو روابط تجمع جهود المهتمين بالدراسات العربية حصرا، كالرابطة الفرنسية للمستعربين L'Association Française des Arabisants، التي تأسست في باريس سنة ١٩٧٣، لتعمل على تطوير تعليم العربية في فرنسا لما لها من أهمية وطنية. وقد أصدرت الرابطة مجلة خاصة بها وبأنشطة أعضائها تسمى: (المستعرب) l'Arabisant[1]

وقد ظهرت في فرنسا رابطة أخرى جديدة تحمل اسم (رابطة تعليم اللغة العربية L'Association de l'enseignement de la langue arabe وواضح أن غايتها المعلنة هي خدمة المؤسسات التعليمية المهتمة بالعربية ومساعدتها في تقديم المشورات أو الخبرات لتطوير أدائها.

٥ ـ إصدار المنشورات وتحريرها:

هناك أنواع عديدة من المنشورات التي تعبر عن التعاون الوثيق في العمل بين المستشرقين أو بين المستعربين الفرنسيين، وهي مجتمعة وسيلة من وسائل الدراسة، ومصدر من مصادر البحث يعتمد عليها في كثير من الأحيان لأهمية ما تحويه من جهود كتابها.

ويمكن أن نسمي ماينشر في هذه المنشورات (الدراسات القصيرة)، في حين أن الدراسات الطويلة تنشر عادة في كتب أو مجلدات قائمة بذاتها. وبعبارة أخرى نقول: إن هذه المنشورات تعتمد أساسا على ما نسميه (المقالة).

وبوسعنا أن نقرر هنا أن هذا النوع من الأنشطة كان أكثر شيوعا وتداولا بين المستعربين الفرنسيين، إذ لم يتأخر واحد منهم عن الإسهام في هذا النشاط كثيرا أو قليلا طيلة حياته العلمية، ولذا فإننا نجد منهم من كان غزير الإنتاج كثير المقالات أو الدراسات القصيرة، ومنهم في الوقت نفسه من كان شحيح الإنتاج قليل المقالات. وفي المدة الأخيرة نجد مريدي هذا المستعرب أو ذاك من تلاميذه ينشرون له

---

(١) انظر عدد كانون الثاني (يناير) من تلك المجلة سنة ١٩٧٤: p.2

بعد وفاته، من باب الوفاء لذكراه في نفوسهم وصونا لتراثه أو آثاره، مجموعة لأهم مقالاته التي كان قد نشرها في مختلف أنواع المنشورات، فيما يعرف بـ: «المنتخبات» ويطلق عليه الفرنسيون اسم: Analecta. وكان آخرها مجموعة «منتخبات بلاشير» التي تضم مقالاته الهامة ودراساته القصيرة التي كان قد نشرها أو بعض مقالاته التي لم يتح لها أن ترى النور، وقد أصدرها المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة ١٩٧٥ ضمن منشوراته.

وكانت جملة هذه المنشورات تصدر عن هيئات علمية أو مؤسسات دراسية أو مراكز بحوث قادرة على التنفيذ، فهي إذن تعبير عن الجهد الجماعي لا الفردي، وأهم أنواع هذه المنشورات:

١ ـ الصحيفة (le journal):

مثل (الصحيفة الآسيوية) المشهورة من باب التجاوز باسم (المجلة الآسيوية): JA. وتصدرها الجمعية الآسيوية بباريس منذ تأسيسها سنة ١٨٢٢ إلى اليوم. ويظهر منها عدد واحد كل ثلاثة شهور، وتجمع أعداد السنة الواحدة الأربعة في مجلد واحد مستقل في نهاية السنة.

وهنالك صحيفة أخرى كانت تصدر مطبوعة على الآلة الكاتبة في بداية الأمر، وتهتم بالقضايا الاستعرابية، بعنوان: (المستعرب) L'Arabisant وكانت تصدر عن الرابطة الفرنسية للمستعربين الفرنسيين ويشترك في تحريرها كل من المستعربين أو العرب المقيمين في فرنسا التالية أسماؤهم: كلود كاهن، وجاكلين شابي، وفوزية كليمان بلخياط، وبيلانوا (ج)، وريمون (أ.)، وسيمون فان رييه Riet، وشارل فيال.

٢ ـ المجلة (la revue):

وهي نشرة دورية كبيرة الحجم تحتوي على جملة مقالات أو دراسات قصيرة في المجال الذي اختصت به. ومن أشهر المجلات الاستعرابية التي كانت تصدر فيما مضى من الزمان ثم انقطعت عن الصدور أو مازالت تصدر إلى اليوم:

أ ـ المجلة الأفريقية (la Revue africaine): وكانت الجمعية التاريخية في الجزائر تصدرها منذ سنة ١٨٥٦، وتنصب اهتماماتها على الموضوعات المتعلقة بالمغرب العربي أو ما كان الفرنسيون يسمونه (شمال أفريقيا)، إلى جانب الدراسات العربية عامة، ثم انقطعت عن الصدور بعد استقلال الجزائر، أي بعد سنة ١٩٦٢.

ب ـ مجلة العالم الاسلامي (la Revue du Monde Musulman):

وكانت تصدر مابين سنتي ١٩٠٦ و١٩٢٦. ثم ورثتها في اختصاصها (مجلة الدراسات الإسلامية) La Revue des Études Islamiques، بإشراف ماسينيون. وقد شارك في إصدارها معهد الدراسات الإسلامية في باريس، والمعهد الفرنسي في دمشق، وتظهر مرة كل ثلاثة شهور، ولها ملحق يدعى: Abstracta Islamica، وهو ثبت للمراجع يصدر كل سنة مرة. وتهتم هذه المجلة، كما يبدو من اسمها، بدراسة الشؤون المتعلقة بالإسلام وحضارته ماضيا وحاضرا ومستقبلا. وهي تعرج في اهتماماتها، بطبيعة الحال، على الدراسات العربية.

جـ ـ مجلة أرابيكا (Arabica): وقد تخصصت بالدراسات العربية. وكان المستعرب المعروف ليفي ـ بروفنسال قد أنشأها سنة ١٩٥٦ بباريس. وهي تصدر مرة كل أربعة شهور، وتجمع أعدادها الثلاثة في نهاية كل سنة في مجلد واحد. وقد تولى رئاسة تحريرها، بعد وفاة مؤسسها سنة ١٩٥٦ أيضا، ريجيس بلاشير، الذي تخلى بدوره عنها سنة ١٩٦٢، لأسباب صحية، للمستعرب جيرار لوكونت. ومن أبرز المستعربين الذين كانوا يشاركون في تحريرها أو لا يزالون يشاركون اليوم في ذلك: كاهن، وايليسييف، ولاوست، ولوسرف، ومارسيه، وبيلا، وسورديل، وتروبو، وفايدا، الخ. ولعل هذه الصحيفة من ألصق ما أصدر المستعربون الفرنسيون من صحف بالدراسات العربية، لأنها تهتم بنشر كل ما يتعلق بتأثير الثقافة العربية في الثقافات الغربية ولاسيما الفرنسية.

د ـ مجلة الدراسات الإسلامية (Studia Islamica): وتصدر في باريس مرتين في السنة منذ سنة ١٩٥٣.

هـ ـ كراسات الدراسات العربية والإسلامية Cahiers d'Études arabes et islamiques) : صدر العدد الأول منها في كانون الثاني من سنة ١٩٧٦ عن «وحدة التعليم والبحث في لغات الهند والشرق وشمال أفريقيا وحضاراتها» ، ومن أسرة تحريرها : كلود كاهن وأندريه ميكيل .

و ـ مجلة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية La Revue de l'École Nation-ale des Langues Orientales Vivantes : بدأ صدورها سنة ١٩٦٤ ، وتوقف سنة ١٩٦٨ . وقد ظهر منها أربعة أعداد فقط ، أي بمعدل عدد في السنة الواحدة، وقد كانت تخص الدراسات العربية بحيز ملحوظ على صفحاتها .

٣ ـ النشرة (le bulletin) :

وهي من الناحية الشكلية مجلة دورية وإن كانت تحمل اسم (نشرة) ، ومن أبرز هذا النوع من المنشورات :

أ ـ نشرة معهد مصر (le Bulletin de L'institut d'Égypte) : وكان نابليون قد أسس هذا المعهد في القاهرة إبان حملته على مصر، وقد أصدر المعهد نشرته هذه منذ سنة ١٨٥٩ . ومن الواضح أن اهتمامات هذه النشرة كانت منصبة على الدراسات العربية والمصرية منها على وجه الخصوص .

ب ـ نشرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية le Bulletin de L'Institut Français d'Archéologie Orientale) : ويصدرها المعهد الفرنسي في القاهرة منذ سنة ١٩٠١ . وهي كما نرى تهتم بعلم الآثار الشرقية (الحضارات القديمة والحديثة)، وتتناول كذلك الفنون العربية الإسلامية المختلفة ، وتصدر سنويا .

جـ ـ نشرة الدراسات الشرقية (le Bulletin d'Études Orientales) : وقد بدأ المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق بإصدارها سنة ١٩٣١ ، وهي حولية لا تزال تصدر إلى اليوم .

د ـ نشرة الدراسات العربية (le Bulletin d'Études Arabes) : وكانت تصدر

في مدينة الجزائر منذ سنة ١٩٤١ .

٤ ـ الحوليات (annales) أو السنويات (annuaires) :

وهـذا النوع من المنشـورات يصدر بهذا العنـوان نفسه مـرة كل سنة، ومن هـذه الحوليات على سبيل المثال :

أ ـ حـوليات معهـد الدراسـات الشرقية بـالجزائر (Annales de L'Institut d'Études Orientales d'Alger) : وقـد كـانت تنشر في بـاريس عـادة منـذ سنـة ١٩٣٤ . وتتناول بالبحث والمعالجة موضوعات تتعلق بالدراسات العربية .

ب ـ سنوية معهـد فرنسا (Annuaire du Collége de France) : وتضم هـذه السنـوية في صفحـاتها دراسـات تتعلق بما تناولـه أسـاتذة هـذا المعهـد طوال العـام الـدراسي من دروس ومـا قـامـوا بـه من أنشطـة في مجال الكـراسي المتخصصـة على اختلافها، ومن بينها مـا يتعلق بالدروس والشؤون العربية الإسـلامية، وتصدر هذه السنوية في باريس منذ سنة ١٩٠٠ إلى اليوم. ويمكن أن نضيف إلى هاتين الحوليتين بعض المنشورات السـابقة التي لم تحمل اسم (حـولية) بصراحة، لأنها كـانت تصدر عمليا مرة كل سنـة، كنشرة الدراسات الشرقية ونشرة الدراسـات العربية وغيرهما على سبيل المثال .

٥ ـ الدوريات (les périodiques) :

وهي مجلات تصدر دوريا في وحدات زمنية متساوية (كل شهر، أو شهرين، أو ثلاثة وتسمى في هذه الحالة فصلية، أو كل أربعـة شهور وتسمى ثلثية لصدورها كل ثلث سنة، وكل ستة شهور وتسمى نصف سنـوية، أو كل سنة بالتمام والكمال وهي تعرف كما رأينا آنفـا باسم الحولية لصدورها مرة كل حـول أي سنة. ومن هذا المنطلق تدخل في نطاق الدوريات كل أنواع المنشورات ذات الطابع المنتظم في صدورها .

٦ ـ المنوعات (les mélanges) :

اعتاد المستشرقون والمستعربون الفرنسيون على أن يصدروا دراسات وبحوثا قصيرة

يشاركون بها في تكريم أحد كبار زملائهم، ممن كافح طويلا في ميدان الدراسات وقدم جهودا مشكورة ذات نفع عميم للثقافة الفرنسية، ويكون إصدار هذه المنوعات التكريمية في حياة ذلك الزميل أو بعد وفاته لتخليد ذكراه والإقرار بفضله، وتُهدى مجموعة المنوعات عادة إلى روحه إن كان ميتا (أو بتعبير آخر إلى ذكراه)، وإليه مباشرة إن كان حيا. وتنشر هذه المنوعات بعد أن يتم إلقاؤها من قبل كتابها في جلسة تكريم، أو تجمع من غير إلقاء وتنشر مباشرة في مجلد واحد أو أكثر، ومن أمثلة هذا النوع من المنشورات ـ وهي كثيرة ـ نذكر:

أ ـ منوعات مهداة إلى ديمومبين

Mélanges offerts à G. Démombynes, 1935-1945.

ب ـ منوعات ماسينيون

Mélanges L.Massignon, 3t., 1956 - 1957.

٧ ـ **الذكريات** (les mémoires):

ويتعلق هذا النوع من المنشورات إما بمؤسسة، فينشر مجلد في ذكرى تأسيسها المئوية أو في ذكراها المئة والخمسين مثلا، كالذي صدر في الذكرى المئة والخمسين لتأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية، بعنوان: «الذكرى المئة والخمسين للمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية» الذي صدر سنة ١٩٤٨ . Cent cinquantenaire de L'E. N. L. O. V., 1948. وإما أن ينشر في ذكرى أحد المستشرقين أو المستعربين وفاء له وتكريما بعد وفاته، ومن ذلك مجموعة (دراسات في الاستشراق مهداة إلى ذكرى ليفي ـ بروفنسال): Études d'orientalisme, dédiées à la mémoires de Lévi-Provençal, 2t.

٨ ـ **الأعمال** (les actes):

وهذا النوع من المنشورات يطلق على مجموعة الدراسات والبحوثة التي يتم إلقاؤها في مؤتمر ما من مؤتمرات المستشرقين الدولية أو مؤتمر ما من مؤتمرات المستعربين الدورية أو العرضية غير المنتظمة، ويتم جمع هذه الأعمال ونشرها بعد انفضاض

المؤتمر واختتام جلساته المخصصة لتلك الدراسات.

ونحن نلحظ من خلال ما تقدم، أن بعض هذه المنشورات يتشابه من حيث الشكل على الرغم من إطلاق تسميات مختلفة عليه: كالصحيفة، والمجلة، والنشرة، والدورية، لأنها تكاد تصدر بحجم واحد متقارب من جهة، وتظهر في أوقات دورية منتظمة من جهة ثانية، مما يجعل التفريق بينها في بعض الأحيان إجرائيا محضا لا علاقة له بالجانب الوظيفي لها.

٦ ـ وضع إحصاءات للكتب العربية المنشورة أو المؤلفة عن العرب:

كان هذا النشاط الإحصائي يشغل حيزا من اهتمامات المستشرقين المهتمين بكل ما يتعلق بالعرب وتراثهم وما كتب عنهم في أي مجال من المجالات، ويهدف مثل هذا النشاط إلى حصر الكتب المنشورة عن العرب تحقيقا وتأليفا، تسهيلا على الباحثين وتوفيرا لجهودهم وأوقاتهم التي يمكن أن يبذلوها في قضايا غير إجرائية تكون أكثر مردودا وأنفع لهم في ميدان البحث.

وكان فكتور شوفان V. Chauvin من أبرز من قام بمثل هذه الإحصاءات لما يمكن تسميته بالمكتبة العربية Bibliotheca arabica، إذ وضع إحصائية فريدة من نوعها بعنوان: (مرجعية المؤلفات العربية أو المتعلقة بالعرب المنشورة في أوربا المسيحية من سنة ١٨١٠ إلى سنة ١٨٨٥) la Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes publiés dans L'Europe chrétienne de 1810 à 1885.

وقد وقع هذا العمل الخطير والمهم في اثنى عشر مجلدا تم نشرها بين سنتي ١٨٩٢ و١٩٢٣. وهذا العمل بطبيعة الحال نوع من الفهرسة والتوثيق لمثل هذه الكتب. وقد سجل في هذا الجرد الشامل كل ما وصل إليه علمه من معلومات عن المؤلفات العربية المنشورة في أوربا، أو عن المؤلفات التي تتناول العرب بالبحث والدراسة من قريب أو بعيد. وقد أفنى في إنجاز هذا العمل عشرين سنة من عمره، إذ كان يستغل أوقات فراغه لإشباع نهمه إلى هذه الهواية عظيمة الفائدة. وقد تمكن خلال

هذه المدة المديدة التي لا يستهان بها من الاطلاع على عدد كبير جدا من الكتب، وقلب صفحات أكثر من سبعة آلاف مجلد من المجلات العلمية أو الفهارس أو المرجعيات (البيبليوغرافيات)(١).

يقول شوفان عن دوافعه إلى انجاز إحصاء مرجعي كهذا: «إن كثيرا من العلماء يكررون أعمالا سبقوا إليها، فينشرون كتبا منشورة من قبل لعدم توفر معلومات مرجعية (بيبليوغرافية) كافية»(٢). ونستشف من ذلك أن غايته التي يهدف إليها كانت توفير الجهود والأوقات على هؤلاء الباحثين بالحيلولة دون تكريرهم العمل في كتب بذلت فيها جهود العلماء قبلهم فأخرجوها، لأن في هذا التكرير هدرا على غير طائل في معظم الأحوال، وهذا هو عينه ما دعا غوستاف دوغا أيضا إلى وضع كتابه المشهور: (تاريخ المستشرقين في أوربا) Histoire des orientalistes de L'Europe، إذ كان يترجم في هذا الكتاب للمستشرق، ثم يتبع هذه الترجمة بالحديث عن آثاره، وهو يقول في ذلك: «كم من العلماء الذين انشغلوا في وقت واحد بموضوع واحد، وتناولوا أعمالا قد بحثت من قبل في مؤلفات يجهلونها.. ومن ثم كم من الأوقات المهدورة والاستعمالات المزدوجة قد بذلت؟»(٣)

٧ ـ ترجمة دراسات أجنبية عن العرب إلى الفرنسية:

وهدف مثل هذه الترجمة هو الاطلاع على ما كتبه المستشرقون والمستعربون في البلدان الأخرى عن موضوعات عربية للاستفادة منها، ففي الدراسات اللغوية مثلا ترجم جان كانتينو J. Cantineau كتاب (العربية) للمستعرب الألماني المعروف يوهان فوك J. Fück، ونشرت هذه الترجمة سنة ١٩٥٥. وفي ميدان الدراسات الأدبية ترجم المستعرب الفرنسي المعروف شارل بيلا Ch. Pellat كتاب (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية) للمستعرب الإيطالي المشهور كارلو نالينو C. Nallino، ونشرت هذه الترجمة في باريس سنة ١٩٥٠.

---

(١) انظر كتابه المذكور أعلاه. T.I,p.XXXI

(٢) انظر: م.س. T.I,p.VI

(٣) انظر كتابه المذكور أعلاه: p.I

٨ ـ الرحلة إلى البلدان العربية وتسجيل الانطباعات والمشاهدات:

لم يَكُفَّ عدد لا بأس به من المستعربين والمستشرقين الفرنسيين وغيرهم من الأدباء والشعراء والرحالـة الهواة عن القيام برحلات إلى المشرق العربي خـاصة يزورون خلالها مدنها الكبيرة وموانئهـا ومعالمها الأثرية، ويتعـرفون طبيعة البلاد وأجـواءها وعادات أهلها وأخلاقهم وأزياءهم، إلى غير ذلك من وجوه يرون فيها مظاهر دالة على حقيقة الناس في المجتمعات العـربية المشرقية. وكانوا يسجلون أثنـاء زياراتهم تلك ما يصل إلى علمهم من معـارف ومعلومات عن كل مـا يمرون بـه، كما يسجلون مشـاهداتهم وانطبـاعاتهم الشخصيـة، وربما سجلوا ذلك في خطـوط عامـة وأفكار رئيسيـة وفق مخططات معينة لخدمة غاية ما، ثم لا يلبثون بعد عودتهم إلى فرنسا أن يتوسعوا فيها، مطلعين بذلك أبناء جلدتهم على بلاد لا يعرفـونها، ويقربون إليهم صورتها الغامضة تقريبـا يتيح لهم أن يتصوروها في خيـالهم، وكأنهم يعيشون فيهـا. ومن المسلم به أن لهذا النوع من الكتابـات جمهوره الذي يهتم له ويتأثر به كل التأثـر ويلتذ كل الالتذاذ في قراءته لما له من سحر خاص في نفوسهم.

وبما يعثر المرء عليه، في هذا المجال من الأنشطة، هذه الأمثلة البارزة:

١ ـ كتاب (رحلة إلى مصر والشـام) للكونت دو فولني de Volney، سنـة ١٧٨٣، وقد كان نابليون بونابـرت قائد الحملة الفرنسية الشهيرة على مصر والشام يتخذه دليلا للمنطقة وأهلها عند نزوله بمصر سنة ١٧٩٨.

٢ ـ كتاب (رحلة إلى سورية ولبنان وفلسطين ومصر) للانغليس سنة ١٧٩٩.

٣ ـ كتاب (رحلة من بغداد إلى حلب) للقنصل الفرنسي روسو L.J. Rousseau ونشر بباريس سنة ١٨٠٨.

٤ ـ كتـــاب (دليل المسافـر بين طرابلس ومصر) لموتيلنسكي، وهـو وصف لـرحلته بينهما، ونشر في الجزائر سنة ١٩٠٠.

ومن الشعـراء والكـــتاب الفـرنسيين الـذيـن زاروا المشرق وتـركـوا آثـارا في هـذا المجـال:

١ ـ شاتوبريان (١٨٤٨م) Chateaubriand الذي كتب (عبقرية المسيحية)، وكان قد رحل إلى القدس وخلدها في هذا الكتاب الذي نشر سنة ١٨٠٢.

٢ ـ لامارتين (١٨٦٩م) Lamartine الذي وصف رحلته إلى لبنان بكتاب من مجلدين نشرا سنة ١٨٣٢ و١٨٣٣ .

٣ ــ دونرفال (١٨٥٥) de Nerval الذي وصف حياة الشرق في مجلدين أيضا بعنوان: (رحلة إلى الشرق)، سنة ١٨٥١ .

وقد جمع كاريه Carré أخبار عدد من هؤلاء الرحالة الفرنسيين، على اختلافهم، في كتاب بعنوان: (الرحالة والكتاب الفرنسيون في مصر من الاحتلال العثماني سنة ١٥١٧ إلى افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩)، ونشره في جزءين ضمن منشورات المعهد الفرنسي بالقاهرة، سنة ١٩٣٧ .

٩ ـ الإشراف العلمي على الأطروحات الجامعية :

كان الإشراف العلمي على الأطروحات الأكاديمية التي يتقدم بها طلاب الدراسات العليا في الجامعات الفرنسية، لنيل الدرجات العلمية المختلفة، ولاسيما درجتا دكتوراه الحلقة الثالثة Doctorat du 3 éme cycle ودكتوراه الدولة Doctorat d'État، من الأنشطة البارزة جدا والملازمة لحياة أكثر المستعربين الفرنسيين الذين كانوا يمارسون التعليم في الجامعات والمعاهد الفرنسية العليا .

ولاشك في أن هؤلاء الأساتذة كانوا يؤثرون تأثيرا عميقا ومباشرا في طلابهم عبر هذه الفعالية العلمية المتميزة، ذلك لأن دائرة اهتمام المستعرب المشرف على أطروحة جامعية ما كانت تدعوه إلى حصر قبول الإشراف ــ في أغلب الأحوال ــ بمواضيع تدخل ضمن تلك الدائرة، ويتيح هذا الاختيار مبدئيا تأثير الأستاذ في جملة أفكار الطالب ومواضيع بحثه وحدودها . ويعد هذا التأثير الأول في أطروحات الطلاب، يضاف إليه تأثير ثان في طبيعة تصور الطالب «هيكلية» الموضوع المطروح للمعالجة على بساط البحث، وأعني بها «المنهج» الذي يفضل المشرف اتباعه ويؤثره على غيره من المناهج . ولكل أستاذ، بطبيعة الحال، «منهجيته الخاصة» التي يرتاح لها ويعمد إلى المحافظة عليها ويحاول أن يعدي بها طلابه الذين يشرف عليهم، بغية نشر هذه المنهجية بين الباحثين .

وإذا نظرنا في أنواع الطلاب الذين يشرف هؤلاء المستعربون الفرنسيون عليهم، من حيث انتماءاتهم القومية، فإننا نستطيع حصرهم عموما في:

١) الطلاب الفرنسيين.

٢) الطلاب الأجانب ماعدا العرب: ونسبة هؤلاء قليلة جدا عادة.

٣) الطلاب العرب: وكان تخرج الطلاب العرب على يد المستعربين الفرنسيين في الجامعات الفرنسية، في اللغة العربية وآدابها، والتاريخ الحضاري للعرب، معروفا منذ مطلع النهضة العربية الحديثة إلى حدود نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥. ثم أخذت هذه الموجة تنحسر شيئا فشيئا بعد تلك الحرب مباشرة، نظرا لنشأة عدد من الجامعات العربية وتطورها وازدهارها إلى الحد الذي نراها عليه اليوم في كل عاصمة عربية، بل في مراكز المحافظات والأقاليم أيضا، فلم يبق نتيجة ذلك كله سوى ذيول قليلة متفرقة هنا وهناك آخذة طريقها إلى الاضمحلال لأنها تتنافى مع طبيعة الأشياء ومع طبيعة التطور الأكاديمي في الجامعات العربية المختلفة اليوم. ونذكر على سبيل المثال أن كلا من الدكتورين طه حسين وزكي مبارك قد تخرج من جامعات فرنسية، وقد تحولت البعثات لدراسة الأدب العربي عن فرنسا وغيرها إلى مصر أولا ثم إلى غيرها من البلدان العربية.

ونضرب هنا بعض الأمثلة على هذا الإشراف وأثره.

أ ـ الإشراف على طلاب فرنسيين:

أشرف شارل بيلا ـ الذي كان قد درس الجاحظ الكاتب الناثر وآثاره ـ على أطروحة لنيل درجة دكتوراة دولة سجلها المستعرب مارك برجيه M. Bergé، في جامعة السوربون (كلية الآداب)، سنة ١٩٦١، بعنوان: (أبوحيان التوحيدي الناثر والمفكر العربي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي: حياته، ووسطه، وآثاره»، وقد تمت مناقشتها سنة ١٩٧٤، ووقعت في ثلاثة مجلدات ضخمة. والتأثير واضح جدا من خلال عدة وجوه:

١ ـ اختيار برجيه ناثرا كبيرا هو (التوحيدي) كما اختار بيلا من قبل ناثرا كبيرا متقدما

هو (الجاحظ).

٢ ـ ركـز برجيه في أطروحتـه على دراسة (الوسط) الذي تـرعرع فيه التوحيـدي وجال في أرجـائه، وهذا تأثـر جلي بتركيـز بيـلا في أطروحتـه عن الجاحظ على مسألـة الوسط حتى طغت على العنوان فكان: (الوسط البصري وتكوين الجاحظ).

٣ ـ تشابـه خطة العمل في كل من التـوحيدي والجاحظ في كثير من نقـاط الدراسـة الأساسية.

ب ـ الإشراف على طلاب عرب:

أشرف شارل بيـلا أيضا على أطـروحة لنيل درجـة دكتوراة جـامعة من بـاريس، سجلها الطـالب العربي سعيـد البستاني سنة ١٩٦١ بعنـوان: (ابن الرومي: حيـاته وآثاره)، وقـد نشر الجزء الأول من هذه الأطروحـة بالفرنسيـة في بيروت سنة ١٩٦٧، ضمن منشورات الجامعة اللبنانية، وقـد جاء بعنوان: (ابن الرومي في وسطه). ومن الواضح مـافي كلمة (وسطه)، هنا، مـن آثار منهج الأستاذ المشرف، وقد رأينـا هذه الكلمة في أطروحة برجيه آنفا.

كما أشرف ريجيس بـلاشير على أطـروحـة للطـالـب العـربي صـالح الأشتر التي سجلها سنة ١٩٥٠ معه لنيل درجة الدكتوراة، وكان عنوانها: (شاعر عربي من القرن الثالث الهجـري: البحتري ـ حياته وإنتـاجه)، وواضح جدا وجه الشبـه بين صيغة هـذا العنوان وصيغـة عنوان أطـروحة بـلاشير لنيل الـدرجة العلميـة نفسها، وكـان عنوانها: (شـاعر عربي من القـرن الرابع للهجرة: أبـوالطيب المتنبي). وقد كتب إلى الأستاذ الـدكتور صالح الأشتر حـول ذكريـاته عن هذا الإشراف الـذي دام من سنة ١٩٥٠ إلى سنـة ١٩٥٤ رسالـة قال فيهـا بعد وصفـه الطريقـة التي اتبعها في دراسـة البحتري: «هذه الطريقـة في دراسة الأدباء موصـولة بمنهج الاستاذ بـلاشير في كتابه الجامع عن (المتنبـي)،.. وقـد اهتـديت في دراستـي للبحتري بهذا المنهج بإشراف الأستاذ بلاشير نفسه»(١).

---

(١) هذا المقطع من تلك الرسالة المؤرخة في ٢٤/ ٣/ ١٩٧٦.

وربما تعدت هـذه التأثيرات المنهجية الطلاب العـرب المتقدمين بأطـروحاتهم إلى جامعـات فرنسية لنيل الدرجـات العلمية، إلى الباحثين العـرب أنفسهم بطريق غير مباشرة، بل ربما كان للمناهج التي اتبعها طلاب عرب في أطروحاتهم تلك، بإشراف بعض المستعربين الفرنسيين تأثيرات في طلاب فرنسيين جاؤوا بعدهم، كما يتضح لنا من أخذ المستعـرب الفرنسي مارك بـرجيه المذكـور آنفا، في أطروحتـه عن أبي حيان، منهج أستاذنا الدكتور ابراهيم الكيلاني، في تبويب أطروحته التي تقدم بها لنيل درجة الدكتـوراة، بإشراف المستعـرب الفرنسي المعروف لـوي ماسينيـون، وكانـت بعنوان: (أبو حيان التـوحيدي البحاثة العـربي في القرن الرابع الهجـري / العاشر الميلادي)، وقـد نشرهـا في بيروت، سنة ١٩٥٠، ضمـن منشورات المعهـد الفـرنسي بـدمشق. ونستطيع القول، من خلال المقـارنة بين العملين، إن مادة كتاب الـدكتور الكيلاني الوجيزة المكثفة قـد استوعبت في أطروحة برجيه الضخمـة، كما أنه أفاد من كل الآراء التي طرحها والنتائج التي توصل إليها، ومن المصادر التي استقى منها مادته أو رجع إليها، ولكن يبقى الفضل في كل ذلك للمتقدم والرائد المنتجع[1].

ونحن نـرى، عمومـا، أن المستعربين الفـرنسيين قد أنفقـوا، في هذا الميـدان من ميادين أنشطتهم، أوقاتا كثيرة، وبذلوا فيه جهودا لا تقدر بثمن، سهروا خلالها على رعـايـة طــلابهم والإشراف عليهم في المراحل المختلفـة من عملهم في أطــروحــاتهم الجامعية التي اختاروها وارتضوا العمل فيهـا طائعين، خدمة للبحث العلمي وكشفا للحقيقـة، وسعيـا وراء المجهول. وهـم لا يـزالـون إلى اليـوم يمارسون هـذا النـوع من النشـاط الـذي يتمثـل فيـه التجـديـد والتطـويـــر والإبـداع في مجال الفكـر البشري الخلاق.

(١) هـذا غيض من فيض من أمثلة التأثير والتأثـر المتبادلين بين المستعـربين أنفسهـم، أو بينهم وبين الباحثين العـرب، أوردناها لـلإشارة فقط إلى وجود الظاهـرة، ولم نتوسع فيها لأن ذلك مـوضوع بحث خاص مستقل كنا قد عكفنا عليه منذ حين.

الفصل السادس :
من أعلام الاستعراب الفرنسي

تكـاد حركـة الترجمة في أوربا، إبـان ثـلاثة قـرون هي الثاني عشر والثـالث عشر والرابع عشر، تكون محصورة في الترجمة من العربيـة إلى اللاتينية، وهذه حقيقة خطيرة وهامة جـدا في تاريخ التواصل بين الحضارات المتوسطية، وهـذا دليل كاف على قوة انفتـاح الأوربيين، في أواخــر العصر الـوسيط، على العــرب والحضـارة العــربيـة الإسلامية.

وأخـذت أوربـا، في مطلع عصر النهضـة وبعـد اتسـاع الكشـوف الجغـرافيـة والاختراعـات العلمية والثـورة الصنـاعية، تتجـه بأنظـارهـا إلى خارج القـارة لبسط سلطانها على العالم الجديد في غربي المحيـط الأطلسي، أو لتدور حول العالم مكتشفة طرقـا جديدة تـوصلها إلى المحيط الهنـدي ـ بالـدوران حول أفـريقيا ـ ومـا يمتد على سواحله من بلدان تقطن فيها شعوب ضعيفـة أو متخلفة ترزح تحت أعباء حكومات إقطاعيـة أو شبه عبودية. وقـد كانت الأوضاع المتفـاوتة جدا بين قوة الـدول الأوربية وواقع هـذه البلدان عـامـلا حاسما بل حـافـزا لاحتلالها احتـلالا عسكـريا مبـاشرا والسيطرة على إدارتها ومـواردها الاقتصـادية لاستنـزاف خيراتها وموادهـا الأولية الخام لتشحن إلى بلـدان أوربا لتغـذي بها أبناءها ومصـانعها ومصـارفها وجيـوبها والتمتع بأفضل الأشياء وأغلاها. ونحن لا نقصد هنا كل البلدان الأوربية، وإنما تلك الدول العـريقـة في تـاريخهـا الاستعماري منهـا، كما أننـا لانقصـد كل أبنـاء تلك الـدول الاستعمارية، وإنما تلك الطبقات الحاكمة التي كانت تستغل تلك البلدان المستعمرة أبشع استغـلال كما كـانت تستغل في الـوقت نفسه الطبقـات الفقيرة في المجتمعـات الأوربية نفسهـا. وقد تمثـل استغلال الشعـوب في آسيا وأفـريقيا وأمـريكا الـلاتينية بشكل آخـر أيضا هـو تصديـر المواد الأولية التي تم تصنيعهـا في بلدانهم إلى أسـواق البلدان المستعمرة لتصريفها وجني الأرباح الطائلة من ورائها.

وقـد دفعت كل هذه الظـروف وهـذه الثروات الأوربيين دفعـا إلى ازدهـار حركـة الاستعمار المباشر لهذه البلـدان الضعيفة والمتخلفة عـن ركب التطور العلمي والتقني

في أوربا الغربية على وجه الخصـوص، ولم يلبث التنافس على امتلاك المستعمرات أن قـام بين الـدول الأوربيـة نفسهـا وولـد صراعـا مـريـرا على المسرح الأوربي أولا، وفي المستعمرات ثـانيا، فانقسمت هـذه الدول الأوربية إلى دول مستعمرة وأخـرى محرومة من هذا الاستعمار ومحصورة قهرا في إطار أوربا أو داخل حدودها نفسها.

وكان طبيعيا أن تفكر هذه الدول الاستعمارية في التعرف على شعوب تلك البلدان المستعمرة، ولا يتم مثل هـذا التعرف عادة إلا بتعلم لغات تلك الشعـوب الشرقية في آسيـا وأفريقيـا. وكـان ذلك تمهيـدا طبيعيا أيضـا لسـائر المعارف الأخـرى عن هـذه البلـدان. كالمواقع الجغـرافيـة، والحاضر السياسي فيهـا وتـاريخها الماضي، وثـرواتها الحضارية التي تتمثل بـالتراث القديم وثقافتها القائمة، وأديـانها ومذاهبها وعادات الناس وتقـاليدهم. وباختصار شـديد، اتجه هؤلاء الأوربيون إلى اكتشـاف عقليات هذه الشعوب وطرائق تفكيرها وسلوكها ومعرفة أسباب التأثير فيها، والاطلاع الدقيق على نقـاط القوة والضعف في البنيـة العامـة لهذه العقليات لتتمكن من ضرب نقـاط القوة وتفتيتها وإبطال مفعـولها من جهة، ولتتمكن من استغلال نقاط الضعف خير استغلال لأحكام طوق السيطرة على هذه الشعوب وبلدانها من جهة أخرى.

ولم يقتصر المستعمـرون الأوربيون على هـذا وحـده، وإنما تجاوزوه إلى حمل لغتهم وثقافتهم ومعارفهم الخاصة إلى هذه الشعـوب لتحل شيئا فشيئا محل لغات الشعوب المستعمـرة وثقـافـاتها ومعارفهـا الخاصـة بها، لتتمكّن السيطـرةُ عليهـا من الـداخل ويسهل عليهم بـالتـالي شدهـم إلى فلكهم بتبعية دائمـة لا تـزول، فيما اصطلح على تسميته في أيـامنا بــ «غزو العقول» أو «الغـزو الثقافي». يضـاف إلى ذلك أنهم حملوا معهم كثيرا من فنـونهم، وعاداتهم، وأخـلاقيـاتهم، وفلسفاتهم، وأزيـائهم، وحتى ألوان طعـامهم إلى الشعوب المستعمرة لعلهم يغـرسونها في نفوسهم ويحلـونها محل ما يقابلها عندهم من خصوصيات. وربما حملوا معهم كذلك الديانة المسيحية بحسب المذاهب المنتشرة في بلـدانهم إلى الشعوب الـوثنيـة التي ليس لها ديـانات قـويـة، بل عمدوا إلى نقل المسيحية إلى كثير من البلـدان التي تنتشر فيها ديانات قويـة كالإسلام والبـوذية والهنـدوسية على أيـدي المبشرين المبعوثين خصيصـا لهذا الغرض: غـرض

التبشير والدعوة، ليتم بذلك ضمان ربط المستعمرات روحيا أيضا بالمراكز الدينية العليا في أوربا. وهذه هي الحال التي آل إليها كثير من الشعوب الأفريقية والآسيوية بانتصار السيطرة اللغوية(وعلى سبيل المثال انتصار اللغتين الفرنسية والإنكليزية)، وبانتصار السيطرة الروحية.

وكان من أهم الشعوب التي لفتت انتباه المستعمرين الأوربيين إليها في وقت مبكر: العرب الذين كانت بلدانهم - فيما عدا المغرب الأقصى - تابعة للسلطان العثماني ابتداء من أواخر العقد الثاني من القرن السادس عشر، وكانت تشكل أكبر جزء من أراضي السلطنة العثمانية التي كانت تؤمن بالإسلام دينا رسميا للدولة، وتتخذ التركية في الوقت نفسه لغة للسيادة (أي الحكم والإدارة على وجه الخصوص)(١).

وقد كانت علاقات الأوربيين مع العرب - في الفترة التي كانت الدولة العثمانية فيها قوية عسكريا وكان الأوربيون عاجزين عن الدخول في حرب مباشرة معها - تقتصر على العلاقات السياسية والتجارية على الأغلب، وكانت العلاقات السياسية تتم عن طريق الباب العالي ومن خلال السلطان العثماني وجهازه الحاكم. وكان العثمانيون آنذاك يفرضون على المنطقة العربية طوق عزلة شبه محكم عن العالم الخارجي ومايجري فيه من تيارات، فعاش العرب في قوقعة السلطان التركي منغلقين انغلاقا تاما عن تطور ركب الحضارة والتطور العلمي والتقني إلى أن هبت نسماتها مع بزوغ فجر النهضة الحديثة.

وكان هؤلاء الأوربيون الطامحون إلى تمزيق هذه الدولة وتقاسم أجزائها ينشطون للعمل فيها إبان فترات الضعف والانحطاط، وكانوا يتدخلون حسب مصالحهم: تارة مع الدولة العثمانية ضد أعدائها في الداخل أو الخارج، وتارة أخرى مع أعدائها هؤلاء، حتى كانت حملة نابليون العسكرية على مصر والشام أواخر القرن الثامن عشر وأوائل

(١) ولعل هذه المفارقة هي التي كانت وراء انهيار الدولة العثمانية وانحسار إمبراطوريتها تماما، بعد الحرب العالمية الأولى، إلى حدود الرقعة المعروفة اليوم باسم (تركيا).

التاسع عشر، وهي الحملة التي فتحت الصفحة الأولى في تاريخ العرب الحديث، وكانت خطوة عملية لدحر السلطان العثماني، بعد أن كانت هنالك محاولات إسبانية لاحتلال سواحل الشمال الأفريقي، ومحاولات برتغالية لاحتلال سواحل بحر العرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وتلت تلك المحاولات محاولات إنكليزية وفرنسية كتب لبعضها الإخفاق (حملة فريزر على مصر سنة ١٨٠٧) ولبعضها الآخر النجاح (الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠، الخ) في القرن التاسع عشر. ثم كان استعمار سائر البلدان العربية في العقد الثاني من القرن العشرين (إذ استعمرت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١ ـ واستعمرت فرنسا المغرب الأقصى سنة ١٩١٤، ثم الساحل السوري سنة ١٩١٨ والداخل سنة ١٩٢٠ ـ واستعمرت بريطانيا العراق سنة ١٩١٤، ثم فلسطين ١٩١٧، ثم الأردن سنة ١٩٢٠).

وهكذا نلحظ أن اللغة العربية كانت، بحكم هذه الأطماع الاستعمارية الأوربية في البلدان العربية، على رأس قائمة اللغات المهمة للقوى المستعمرة المؤثرة فيها (وهي: إسبانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا على وجه الخصوص). وكانت فرنسا، في الواقع، من أكثر هذه الدول اهتماما باللغة العربية منذ وقت مبكر: إذ قام الملك فرانسوا الأول سنة ١٥٣٠ بإصدار أوامره بالاهتمام بها وتعليمها في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس). وقد تابع الملك ـ الشمس لويس الرابع عشر اهتمامه بتعليمها في مدرسة فتيان اللغات إلى جانب التركية والفارسية، بوصفها جميعا لغات إسلامية بارزة ومفيدة آنذاك لخدمة الصلات والمصالح والمطامع الفرنسية بدول الشرق الأدنى القريبة إلى الساحة الأوربية أكثر من غيرها من البلدان الشرقية. ثم تابعت الثورة الفرنسية هذه الجهود وأضفت عليها طابع الجدية والعمق والاستمرارية والرسوخ أكثر من أي وقت مضى من قبل، وذلك بتأسيسها المدرسة الشهيرة باسم (المدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية)[1] سنة ١٧٩٥، أي قبل حملة نابليون بثلاث سنين فقط.

---

(١) وقد مرت بنا من قبل دراسة مفصلة عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث في الفصل الثالث من هذا البحث.

وكـانت ثمرات المدرسـة الأخيرة أنضج وأحلى من ثمرات المدرستين الأخـريين، نظرا لإرساء أسس ثـابتة ودائمة لتعليم العربية الفصحى واللهجات العـربية العامية من مشرق الوطن العربي ومغربه على حـد سواء، ولظهور عدد من المستعربين الكبار المتمكنين من العربيـة والدراسات العـربية بأنواعهـا كافة، ولنشأة تيـارات ومدارس استعرابية متعددة وقوية في فرنسا كان لها تأثيرات ملحوظة في أوربا عامة.

وقد ظهـرت في فرنسـا ـ إثر مـدرسة اللغـات الشرقية هذه ـ مؤسسـات علمية وأكاديميـة ثابتـة وراسخة ومستمرة، ولها تقـاليدهـا الواضحـة، فحلت محل الجهود الفردية الضعيفـة والمتناثرة التي كانت تخضع للرغبات والنـزوات الآنية وتتحكم فيها جملة من الظروف والأهـواء السياسية المتباينة، وانتهى بذلك عهـد وبدأ عهد آخر في تـاريخ الاستعراب يقـوم على سيـاسة ثـابتـة عند الـدولـة والمجتمع الفرنسي في هـذا المجال.

وجاء احتلال الفرنسيين الجزائر، سنة ١٨٣٠، دفعا قويا جدا للدراسات العربية في فرنسـا، إذ ازدهرت ازدهـارا عظيما، إلى حد أن معظم المستعـربين الذيـن برزوا في ميدان الاستعراب الفـرنسي، كانوا قد تكـونوا كليا أو جزئيـا في المدرسة الجزائرية، أو درسوا على أيدي من تكـونوا فيها على أقل تقديـر، ذلك لأن المستعربين أصبحوا على اتصال مباشر بالتراث العربي وعلى احتكاك قوي بجزء من الأمة العربية وجها لوجه. وقد عبر المستعرب الفرنسي هنري ماسية H.Massé، في مقالة طويلة جدا له[١]، عن جوانب هـذا الازدهار في الذكـرى المئوية لاحتلال الجزائر، وكشف النقـاب فيها عن محاولات الفرنسيين فرنسة الشعب العربي في الجزائر والمراحـل التي كانت مرسومة لتنفيذ هـذه السياسة. وفي الحقيقة، تشكـل (المدرسة الجزائرية في حركـة الاستعراب الفرنسي) مـوضوعا قيما لدراسـة مستقلة قائمة بـرأسها نظرا لأهميتها الخاصـة في هذا الميدان.

وقد مر بنا في فصل سابق أن المستعربين الفرنسيين وبعض عملائهم من المشارقة

---

(١) انظر بعض المعلومات عن هذه المقالة المطولة في: ص ٩٨ هـ ١ من هذا البحث.

كانوا يعاونون الجيوش الفرنسية الغـازية للبلدان العربية في أعمال الترجمة والوساطة في التفاهم بينها وبين الشعوب العربيـة في تلك البلدان. ويتضح لنا، من ذلك، مدى التـداخل بين الأهـداف العلميـة والأهـداف السيـاسية والاقتصـاديـة والعسكـريـة لـلاستعراب، وهـذا أمـر مفروغ منـه في نظـرنا، لأن المستعـربين، أغلبهـم إن لم نقل كلهم، كانوا يـرون في ذلك خدمة وطنية أو واجبا قوميا لشعـوبهم ودولهم يؤدونه عن طيب نفس وخاطر.

وكان المستعـربون عمومـا يتفاوتـون عادة كما هي طبيعة الأشيـاء في قدراتهم على التعامل مع اللغة العربية، ولذا نجدهم يتدرجون مثلا: من مستعرب يتكلم العربية بطـلاقة كأهلهـا ويقرأ بها النصـوص وينشيء بها البحـوث والدراسـات ويفهم من أهلهـا ما يلقى على أسماعـه منهم ويحاورهم(كما هي حـال مـاسينيون، وبـلاشير، وجاك بيرك، وميكيل على سبيل المثـال)، وهؤلاء يعـدون في الدرجـة العليا من سلم الاستعراب، إلى مستعـرب لا يجيد الكلام بالعـربية ولا فهم الحوار فيها ولكنـه يكون قادرا على فهم نصـوصها فهما تـاما وينشيء بها بعض مـا يضطر إلى إنشـائه اضطرارا عند الحاجة الماسـة، ويمكنه قراءة نصوصهـا بصوت عال من الكتب والأوراق التي بين يـديـه (كما هي حـال الغـالبيـة العظمى من المستعـربين الفـرنسيين حتى اليـوم ونموذجهم المجلى في ذلك دوساسي).

وهنالك تفاوتـات أخرى بين المستعربين تتعلق بميول كل منهـم واهتماماته التي تستقطب جهوده وتستغـرقها وتـوجهها. وتكون هـذه الميول خـاضعة لتأثيرات شتى ذات صلـة بعوامل نفسيـة أو استعدادات فطـرية وبتـوجيهـات تربـوية عن طـريق التلقين أو الإيحاء أو القـدوة والتقليد، وربما كـانت ذات صلـة أيضـا بظروف البيئـة والنشأة التي تحيط بـالمرء، فتتحكم في تكوين اهتمامـاته وفي رسم طـريقه المستقبلي، ذلك لأن البيئة قد تضع بين يدي مستعرب مـالا تضعه بين يدي مستعرب آخر، وقد تجعلـه يتفتح على موضـوعـات لم تتوفـر لغيره، ولـذا فإننـا لا نجد مستعـربين اثنين متشابهين أو متطابقين تمام التطابق في الميول والاهتمامـات مهما كانت الظروف، وهذا يعني أن كلا من المستعربين كـانت له موضوعاته التي يهتم بها، واتجاهـاته الخاصة،

وطريقته في العمل والفهم، ومنهجه في البحث، وشخصيته المستقلة في الأداء.

وسوف نلحظ كل ذلك في الفصل الراهن الذي نتناول فيه ترجمة خمسة من أعلام المستعربين الفرنسيين من أيام الثورة الفرنسية إلى يومنا هذا، كنا قد انتقيناهم ليكونوا نماذج لحركة الاستعراب الفرنسي بخطوطها العريضة، وذلك من بين أكثر من مئتي مستعرب ظهروا في الفترة الراسخة والمستمرة من تاريخ الاستعراب الفرنسي، أي منذ مطالع القرن التاسع عشر إلى اليوم. ومن الجدير بالذكر هنا أن من هؤلاء المستعربين الكثر من قَصَر اهتمامه على الدراسات العربية والإسلامية، ومنهم من كان يمد هذا الاهتمام إلى الدراسات التركية والفارسية أو يمزجها بدراسات مقارنة بالحضارات العربية القديمة العريقة التي كانت قائمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ومن شاء الاطلاع على تراجم هؤلاء المستعربين الذين ظهروا في فرنسا جملة عبر هذا التاريخ للتعرف على حياتهم وآثارهم عموما، فليعد إلى مظان هذه التراجم بالعربية أو الفرنسية أو الألمانية، ومن أبرزها:

١ ـ «تاريخ المستشرقين في أوربا» (ومن بينهم الفرنسيون) لغوستاف دوغا:
G.Dugat, l'Histoire des orientalistes de l'Europe, 2 t., Paris, 1868-1870

٢ ـ «تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا»: وهو كتيب وضعه بالعربية المستعرب النمسوي يوسف جيرا، ونشره في القاهرة سنة ١٩٢٩.

٣ ـ «الأعلام»: وهو بحسب العنوان الفرعي التوضيحي الذي وضعه له مصنفه وجامع تراجمه خير الدين الزركلي (قاموس لأبرز أعلام العرب والمستعربين من رجال ونساء) ويقع في ١١ جزءا رتبت الأعلام فيها ترتيبا هجائيا متسلسلا.

٤ ـ «الدراسات العربية في أوربا»: وقد ألفه المستعرب الألماني المشهور يوهان فوك: J. Fück, Die arabischen Studien in Europa, Leipzig, 1955

٥ ـ «المستشرقون»: وقد جمعه وصنفه نجيب العقيقي، ووضع تحت عنوانه توضيحا نصه (موسوعة في تراث العرب، مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنهم، منذ ألف عام حتى اليوم)، وقد وقع هذا الكتاب بطبعته الثالثة الصادرة عن دار

المعارف بمصر في ثلاثة مجلدات ذات ترقيم متسلسل: الأول سنة ١٩٦٤، والثاني والثالث سنة ١٩٦٥ (بلغ عدد صفحاته ١٤١٤ صفحة). وقد استقى المصنف مادته من مختلف المصادر الاستعرابية والاستشراقية بلغاتها الأصلية أو عن طريق ماترجم منها إلى العربية، ويعد المصدر الثر والواسع الوحيد في بابه. وعلى الرغم من سعة هذا الكتاب وغنى مادته وتنوعها وتغطيتها غالبية البلدان الأجنبية في العالم، فإن لنا عليه ملاحظات ربما كان أكثرها عائدا إلى طبيعة الموضوع وتشعب آفاقه تشعبا مريعا ومنها: إغفاله قائمة المصادر التي اعتمد عليها في جميع مادته. وعدم تمييزه في آثار المستشرق الواحد بين كتبه ومقالاته بحدود فاصلة ترفع اللبس بينها. وعدم إثبات عناوين الكتب أو المقالات بلغتها الأصلية لتدقيق الإفادة منها. وعدم إلمامه بكل آثار المؤلف الواحد منهم، وإغفال كثير من تفاصيل حياة المستشرق والمناصب التي شغلها في حياته. وذكر تراجم لمستشرقين ليس لهم أي صلة قريبة أو بعيدة بالعرب والتراث العربي. إلى جانب بعض الأخطاء في التواريخ والأرقام أحيانا. إلا أن عذر المصنف في كل ذلك قوي وواضح، لأن ما أنجزه بجهوده الفردية تكاد المؤسسات الكبيرة في وطننا تنوء بحملة. ومما يذكر أن طبعة الكتاب الأولى كانت في مجلد واحد عادي الحجم ثم توسع في طبعته الثانية إلى أن آل إلى حجمه الضخم في الطبعة الثالثة ويمكن أن يبلغ حجمه عشرة مجلدات على سبيل المثال حتى تتم الإحاطة الوافية بمادته أو تكون قريبة من ذلك.

يضاف إلى هذه المصادر بعض الدراسات المفردة لدراسة مستعرب بعينه وتتبع مراحل حياته وآثاره بالتفصيل والتدقيق والنقد والتحليل الوافي لكل جزئية منها وكل فكرة كانت تنتشر متفرقة من حين لآخر، إلى جانب المقالات التي كانت تنتشر في بعض المناسبات، ولاسيما المناسبات التأبينية منها، في بعض الدوريات الاستعرابية أو الاستشراقية على حد سواء. وفي مثل هذه الأعمال مواد وافية أو مختصرة عن هذا المستعرب أو ذاك.

ومن أبرز المعايير التي راعيناها في اختيار الأعلام الخمسة من المستعربين الفرنسيين للترجمة لهم هنا: (الشهرة)، نظرا لتمايزهم في هذا المعيار، ذلك أن منهم

العلم المعروف في أوساط العلماء من المستشرقين والمستعربين والعرب داخل فرنسا وخارجها، كما أن منهم المغمور الخامل حتى في أضيق الأوساط الثقافية. وهذه الشهرة غالبا ما تكون ناجمة من المعايير الأخرى كـ (غزارة الإنتاج العلمي) وأهميته، و(تعدد الاتجاهات والجوانب) التي يتطرق إليها ويتناولها في آثاره. و(العمق) في معالجة موضوعاته ومايتعلق بذلك من (أصالة) و(إبداع) من خلال امتلاكه منهجا خاصا به ومتميزا و(تكوين تلاميذ ومريدين) في فرنسا وخارجها يكونون معجبين بشخصيته وآثاره ومنهجه، ويكنون له الاحترام والتقدير، لأن هؤلاء هم الذين يرسمون لأستاذهم هالة الشهرة وذيوع الصيت مع الزمن.

ولاشك في أن المتتبع لجهود كل مستعرب من هؤلاء الذين تنطبق عليهم هذه المعايير، سيجد أن لكل منهم اهتماما رئيسيا يدور حوله في عظم آثاره، لايكاد يبتعد عنه حتى يثوب إليه، وهذا الاهتمام أشبه بالمحور أو المركز أو النواة بالنسبة للأشياء. وسنرى هذه الحقيقة ماثلة فيمن سنترجم لهم في هذا الفصل بكل وضوح:

١ ـ سلفستر دوساسي (١٧٥٨ ـ ١٨٣٨)(١):

ولد (أنطوان ـ إسحاق سلفستر دوساسي) في باريس في الحادي والعشرين من شهر أيلول سنة ١٧٥٨. وكان أبوه أبرهام ـ جاك سلفستر دوساسي يعمل كاتب عدل، وقد توفي هذا الأب سنة ١٧٦٥، مخلفا ابنه صغيرا في حضانة أمه التي كان لها دور كبير في رعايته وتربيته وتثقيفه، وكان هذا الابن هزيل الجسم ضعيف البنية معتل الصحة.

---

(١) اعتمدنا في كتابة هذه النبذة على جملة مصادر من أبرزها:
Derenbourg (H.), Silverstre de Sacy (1758-1838), Paris, 1895. Salmon (G.), Silvestre de Sacy, 2t., le Caire (1905, 1923). Fück (J.), Die arabischen Studien in Europa, Leipzig, 1955, p.140-157.
وانظر كذلك: الدروس العربية في فرنسة لكليمان هوار، ترجمة: عبدالله رعد، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٥، ١٩٢٥، ص ١٦٠ ـ ١٦١ وأثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في: م.س، مج٧، ١٩٢٧، ص ٤٠٤ وتاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ليوسف جيرا، ص ٢٦.
أما المصادر الأخرى فقد أشرنا إليها في مكانها من هذه النبذة.

وقد أظهـر دوساسي منذ نعـومة أظافره ميـلا إلى الدراسة ، وربما كـان ذلك ناتجا عن إشباع أمـه لرغباته القلبيـة وتهيئة الجو لتفتح قدراته العقليـة الكامنة ، وكانت ميـوله الأولى تكشف عن اهتمام بالشـؤون الدينية ، ويروى أنـه كان متأثرا بطريقـة دير (بور رويال) Port - Royal، معقل المذهب اليانسيني[1] Jansénisme ولذا فقـد بدأ بدراسـة اللغة العبرية ليحقق الترجمات اللاتينيـة والفرنسية لـ (لكتـاب المقدس) La Bible أي : التوراة أو مايعرف عند علماء اللاهوت بالعهد القديم. وكان يلتقي في أحد الأديرة برجل دين يهودي ويطرح عليه أسئلة ويتلقى عنها الإجابات[2].

كـانت هذه الخطـوة بدايـة رحلة دوسـاسي في عالم الاستشراق والاستعـراب ، إذ اندفع بعـدها إلى محاولة التعرف على اللغـات القريبة للغـة العبرية ، وهي التي أطلق عليها خطأ آنذاك بتأثير الدراسات التوراتية اسم (اللغات السامية) [3]، ولذا اتصل بباحث في النصـوص العربية يدعى دوم بـرترو Dom Berthereau كـان لـه الفضل الأكبر في توجيه الشـاب دوساسي إلى دراسة اللغة العربية وتشجيعـه ، إذ كان يتنبأ له بقدرات هائلة على البحث .

ولم تكن اللغـات الشرقية ، مع ذلـك ، تستقطب اهتمام دوساسي ولا جهـوده في

---

(١) وهو مذهب ينسب إلى اللاهـوتي الهولندي يانسينيوس (١٦٣٨م) Jansénius، وهو يقـوم على فكـرة الحد من الحرية الإنسـانية انطلاقـا من مبدأ يقـول إن (العنـاية الإلهيـة) ممنوحـة لبعض الكـائنـات منـذ الـولادة وبعضهـا الآخـر محروم منهـا . وهـو مـذهب مستمـد من كتـابـه : (أغسطينوس) الذي يعـالج مذهب القديس أغسطينوس القائل بتدخل تلك العنـاية الإلهية في مواجهة حرية الإنسان .

(٢) كان عند الأوربيين ـ حتـى اكتشاف نصوص اللغة السنسكريتية وصلتهـا باللغات الأوربية على يد العالم جونز W.Jones اعتقاد راسخ بأن (العبرية) ، هي لغة الإنسان الأولى ، وعنها تفرعت كل لغات البشر في العالم ودفع هذا الاعتقاد الناتج عن التأثيرات التوراتية في التدين المسيحي ، إلى دراستها والاهتمام بها على أنها لغة (مقدسة) من نحو ، وأم للغات العالم من نحو آخر.

(٣) والأحرى أن يطلق عليها جميعا اسم (اللغات العربية القديمة) لكون العربية في جزيرة العرب أما لها ، بحكم الهجـرات التي كـانت تفيـض بها إلى الشمال في كل من العـراق والشـام ، كما أنها أحدثهـا أيضا لبقائهـا دونها جميعا لغـة حضارية متصلـة وحية إلى يومنـا الراهن ، ويـرى رينان E.Renan، في كتابه : (تاريخ اللغات السامية) ، أن تسمية هذه اللغات بـ (السامية) خطأ ، وأن الأصح تسميتها (اللغات السورية ـ العربية) .

فترة شبابه الأولى، إذ اتجه إلى تعلم لغات أوربية حية كالألمانية والإنكليزية والإسبانية والإيطالية، وانتظم في دروس مدرسة الحقوق بباريس.

وقد نشر دوساسي، سنة ١٧٨٠، ملخصا لمخطوطة سريانية في المكتبة الملكية (الوطنية اليوم) بباريس، ضمن المجموعة المسماة (الفهرسة) أو (الفهارس) Repertorium، ثم نشر فيها، سنة ١٧٨٣، نص رسالتين من القرن السادس عشر مبعوثتين من السامريين[١] إلى يوليوس سكاليجر[٢] J. Scaliger مع ترجمة لهما. وقد أدت مثل هذه الأعمال الأولى والمبكرة إلى شهرته في ميدان البحث، مما دفع بالملك إلى أن يستدعيه سنة ١٧٨٥ لشغل واحد من ثمانية أمكنة للأكاديميين الأحرار المقيمين، التي أسست في أكاديمية النقوش والآداب، فظل وفيا لمنصبه هذا طيلة حياته.

وكان دوساسي قد عين، سنة ١٧٨١، في وظيفة مستشار بديوان النقود، واستمر فيها إلى أن عينه الملك مفوضا عاما للنقود، وبقي فيه إلى أن استقال منه بعد الثورة سنة ١٧٩٢.

ونستطيع أن نلم بالتكوين العلمي لدوساسي من خلال أحاديثه واعترافاته، إذ نراه يقول مرة في كلمة كان قد ألقاها، سنة ١٨١٠، أمام الهيئة التشريعية، لتقديم كتابه في (النحو العربي): «كانت دراسة الآثار الأصلية للدين هي الموضوع الأول الذي دفع بعض العلماء إلى أن يقفوا جهودهم على اللغة العبرية التي كتبت بها أقدم آثار العصور الأولى في العالم. وقد ارتأيت بعد ذلك أنه لدخول هذا الحرم وتذليل صعابه كان يجب أن تضاف إلى تلك اللغة دراسة لغات تم حفظها في كثير من الآثار، أو مازالت مستعملة في بعض أنحاء آسيا...، وهكذا كانت دراسة اللغة العربية»[٣]. وإذا كان في هذه الأحكام مغالطة تاريخية، فعذر صاحبها أن الكشوف

---

(١) وهم فرقة من اليهود ذات مذهب خاص بها.

(٢) سكاليجر: واسمه يوسف يوستوس، انسانياتي وفيلسوف بروتستنتي، من أصل إيطالي، عاش بين سنتي ١٥٤٠ و ١٦٠٩. انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا ليوسف جيرا، ص ٢١.

(٣) انظر: Derenbourg (H.), op.cit., p.17.

الأثرية لم تكن معروفة بعد حين أطلقها ، ولأن هذا هو ما كان سائدا في أيامه من أفكار وآراء ، قبل أن تكتشف الكتابات والأبجديات القديمة في المشرق العربي ، وخاصة الشام والعراق ومصر.

ويبين دوساسي ، في رسالة جوابية يبعث بها إلى أحد المشرقيين المعجبين بعمله ، جوانب أخرى من تكوينه العلمي إذ يقول : «وأنت تريد أن تعلم إذا ما كان لي شيوخ علموني اللغة العربية . . ، وإني استطيع أن أؤكد لك أنه لم يكن لي من معلم سوى الكتاب . وأنا لا استطيع أن أحفظ بالعربية شيئا ، ولا أفهم مايقال بها ، إذ لم تتح لي في شبابي أي فرصة لممارسة الكلام أو الاستماع للأحاديث بالعربية . وقد أطريتني كثيرا بما قلته لي عن مؤلفاتي ، وعليّ أن أقر لك بأنني آسف لأني لم أرحل في شبابي إلى مصر أو الشام ، وبأنني بعيد جدا عن امتلاك معرفة تامة بهذه اللغة الواسعة كالمحيط»(١) .

نستنبط من هذا النص أن دوساسي كان يقرأ النصوص المكتوبة ويفهمها ويترجمها إلى الفرنسية ، إلا أنه لم يكن قادرا على تبادل الحديث بها مشافهة مع محاور من العرب أو غيرهم ، كما أنه غير قادر كذلك على فهم حديث يستمع إليه ، وقد وصفه الشيخ رفاعة الطهطاوي حين كان مع البعثة الدراسية المصرية بباريس بقوله : «وحين يقرأ ينطق كالعجم ، ولا يمكنه أن يتكلم بالعربية إلا إذا كان بيده الكتاب»(٢) .

كان دوساسي قد تزوج سنة ١٧٨٦ ، وانسحب إلى الريف سنة ١٧٩٢ بعد أن قدم استقالته من عمله ، بسبب الاضطرابات الثورية العنيفة التي كانت تجري في باريس ، وأقام في منزل بقرية هادئة تدعى (لابرى) La Brie ، وانصرف فيها إلى الراحة ، وانكب على القراءة والتأليف . وكان من ثمار هذه الفترة كتابه : (بحوث حول العاديات الفارسية القديمة)Mémoires sur Les antiquités de La Perse .

---

(١) انظر: Derenbourg (H.), op.cit., p.22.

(٢) انظر كتابه : «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» ، ضمن كتاب : أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي ص ٢١٨ .

وكـان دو ساسي، من النـاحية السيـاسية، معـارضا للثورة الفرنسيـة، وكارهـا تعـاليمها وإجـراءاتها وأعمالها الفـوضـوية كما كـان يـراهـا من وجهـة نظر معـاصرة للأحداث، وكان في دخيلته يحن إلى العهد الملكي البائد، ويحتفظ له في قلبه بالمحبة والوفاء، وظل متمسكا بموقفه هذا طيلـة حياته، غير مبال بالمناصب والألقاب التي حبته بها حكومة الثورة من جهة وحكومة نابليون الإمبراطورية من جهة أخرى.

وقد اختير المواطـن سلفستر دوساسي ــ بحسب التعبير الثوري آنـذاك ـ عنـدما أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية، في الثلاثين من آذار سنة ١٧٩٥، مرسوم تأسيس مـدرسة اللغـات الشرقيـة الحيـة، لشغل كـرسي اللغة العـربيـة فيهـا، وابتدأ فعـلا بتدريسها في حـزيران من سنة ١٧٩٦. وقد رفض أداء اليمين السيـاسية التي كانت الحكومة تفرضها على موظفيها، قبل مباشرتهم العمل، ولهذا قرر أن يستقيل من هذا المنصب، وأن يشغله مؤقتـا حتى يعثر على بديل له يحل محلـه في تعليم العربية، غير أن هذا البديل لم يتوفر في هذه الفترة، ثم تغيرت الظروف، فاستمر في منصبه إلى آخر حياته.

كانت العـربية، في بداية حياة دوسـاسي، واحدا من اهتماماتـه المتنوعة، إلا أنها قفزت فجأة لتحتل المرتبة الأولى والأساسيـة بين هذه الاهتمامات، حين عين في كرسي العـربية المذكـور آنفا، فأخـذ يجمع جهوده حـولها، وراح يعب المعارف المتعلقـة بها وبالأدب العربي عبا وبنهم شديد استغرق منه أكثر أوقاته وجهوده تقريبا.

ورشح دوسـاسي، سنـة ١٧٩٩، لشغل كـرسي اللغة العبريـة في المعهـد الملكي (كوليج دو فـرانس)، غير أنه لم يبـاشر العمل فيه. وعين، سنـة ١٨٠٦، في كرسي اللغة الفارسية في المعهد نفسه، فزاول التدريس فيه إلى سنة وفاته.

وبإمكـاننا أن نقـول إن التـدريس كـان محور كل الأنشطة العلميـة التي قـام بها دوساسي، منذ تعيينه مـدرسا للعربية إلى أن حانت وفاتـه سنة ١٨٣٨، وأنه من هذا التدريس كان ينطلق وإليه كان يعود. ولذا فإننا نكاد نلمس الطابع التعليمي في كل أثـر من آثـاره التي أنتجهـا عبر مسيرتـه العلمية، وبـه حقق شهـرة واسعـة في عـالم

الاستشراق عامة والاستعراب خاصة، كما سنرى لاحقا في هذه النبذة الترجمية.

عمل دوساسي، في سنتي ١٧٩٧ و١٧٩٨، على إملاء دروس في قواعد اللغة العربية على طلابه، فكانت تمهيدا عمليا لتأليف كتابه: (النحو العربي) La Grammaire arabe الذي وقفه على طلاب المدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية بباريس، وقد وقع هذا الكتاب في مجلدين، وظهرت طبعته الأولى سنة ١٨١٠، والثانية سنة ١٨٣١، بعد أن أضاف إليه بحثا في «علم العروض العربية»، وقد وضع لهذا الكتاب عنوانا عربيا على الطريقة السجعية التي كانت متبعة في العصور المتأخرة في تسمية الكتب، وهو: (التحفة السنية في علم العربية)، وقد أطلع على هذا الكتاب القيم، ذي الأثر الكبير في عصره، الشيخ رفاعة الطهطاوي، حين كان في باريس يطلب العلم، وهو الذي أغراه بتأليف كتابه النحوي الذي أسماه تسمية قريبة منه هي: (التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية)، متأثرا بطريقة دوساسي في ترتيبه وتبويبه، وقد صدر سنة ١٨٦٩ في مصر.

وكان دوساسي قد ألف، سنة ١٧٩٩، كتابا بعنوان: (أصول النحو العام الموضوعة في متناول الأولاد والمستعملة مدخلا إلى دراسة جميع اللغات) Principes de grammaire générale، وكان للعربية فيه نصيب قليل جدا، وطبع هذا الكتاب مرارا: الطبعة الأولى سنة ١٧٩٩، والرابعة سنة ١٨٢٤.

وكان كتاب دوساسي في النحو العربي، في الحقيقة، استجابة للمادة الرابعة من مرسوم الجمعية الوطنية القاضي بتأسيس مدرسة اللغات الشرقية، وتنص على ضرورة تأليف أساتذة المدرسة كتبا في نحو اللغات التي يعلمها كل منهم.

ولم يكن نشاط دوساسي مقصورا على هذه الأعمال المذكورة حتى الآن، وإنما صاحبها أو أعقبها بأعمال عديدة في ميادين شتى، فقد نشر، سنة ١٨٠٦، مجموعة مختارات أدبية شهيرة عرفت باسم: Chrestomathie arabe، وقد وضع لها عنوانا مسجوعا هو: (كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد)، ووقعت في ثلاثة مجلدات، متنا وترجمة فرنسية، وشملت مختارات من آداب العرب وعلومهم المختلفة، وقد أعيد

طبعهـا سنـة ١٨٢٧ ، وهي كما نلحظ مـوجهــة إلى وسط تعليمي يتمثل في طـلاب العربية خصوصا .

ونشر ، سنة ١٨٢٩ ، كتـابا يهتم بـالقضايـا النحويـة اختار نصوصـه من كتب النحويين العرب القـدماء، وأسماه : (مختارات نحويـة عربية) Anthologie grammaticale arabe.

وكـان قد نشر، سنـة ١٨١١ ، كتـاب : (الإفـادة والاعتبار) لمؤلفـه عبـداللطيف البغدادي، وهو في وصف مصر، متناوترجمة معا ، وقد أفـاد من مادته مؤلفو الكتاب المشهور بـاسم : (وصف مصر) Description de l'Égypte، الذي تم وضعـه بعد العودة من الحملة على مصر.

وترجـم إلى الفرنسيـة ، سنة ١٧٩٩ ، بحوثـا متعلقة بـالنقود والأوزان والمكـاييل الرسمية في الإسلام من كتاب : (الخطط) للمقريزي .

وحقق دوساسي نصوص (مقامات الحريري) مقـابلة على مخطوطات عدة، وعاد إلى شروحها العـربية المختلفة وجمع منها شرحـا مختارا لها ، ونشرها متنـا فقط بموجب مرسوم إمبراطوري سنة ١٨١٢ ، وتم طبعها بالمطبعة الإمبراطورية ، وكتب لها بالعربية مقدمة مسجوعة أدهشت الطهطاوي، فنقلها في كتابه : (تخليص الإبريز في تلخيص بـاريــز)[١] . وكان دوسـاسي قد اختار في مختـاراته (الأنيس المفيد) عـددا من هذه المقامات وترجمها إلى الفرنسية .

ونشر دوساسي، بحكم اهتماماته بالنحو العربي، (ألفية ابن مالك)، متنا وترجمة معا، إضافة إلى الشرح والتعليق، وذلك سنة ١٨٣٤ .

وكـان قـد نشر من قبل، بين سنتـي ١٨١٦ و١٨٢٢، القصص المنسـوجـة على ألسن الحيوانـات والطيور: (كليلة ودمنة) مـع مقدمة تعرف بهذا الأثـر الأدبي الذي

---

(١) انظـر نصها في ذلك الكتـاب، ضمن كتـاب : أصول الفكـر العـربي الحديث عند الطهطـاوي للدكتور محمود فهمي حجازي ، ص ٢١٨ ـ ٢٢١ .

بات أثرا عالميـا بعد أن مر برحلة طويلـة من الأدب الهندي إلى الأدب الفارسي، ومنه إلى الأدب العربي، وقد فقـدت كل الأصول الهندية والفارسية لـه، ونقل عن العربية وحدها إلى الآداب العـالمية المختلفة. وكانت له آثار واسعـة وعميقة في أدب الأطفال على وجه الخصوص.

وقد أدرج جورج سلمون G. Salmon ، في كتابه الذي نشره عن دوساسي ضمن منشـورات المعهد الفـرنسي بـالقـاهرة، في مجلـدين سنـة ١٩٠٥، ثبتا بـأعماله بعـد إحصائهـا وحصرها، فوجـدها تبلغ أربعمئة وثلاثين عمـلا منشورا في حياتـه ما بين سنتي ١٧٨٣ و ١٨٣٨، إضـافة إلى أربعـة أعمال نشرت بعـد وفـاته. وتتراوح هـذه الأعمال مـا بين مـؤلفـات، وتحقيقـات، ومترجمات، واختيـارات، وتلخيصـات، ومقالات. وكـان معظم هذه الأعمال يتعلـق بالعربيـة وآدابها والباقي يتعلـق بلغات أخرى كالفارسية.

وقد شغل دوساسي مناصب هامة وكثيرة في حياته المديدة بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليـه آنفا، ولنذكـر منها مثلا شغله منصب رئاسـة جامعة بـاريس، في عهد عودة الملكية البوربونية في فرنسا حتى بدايـة حكم الأيام المئة النابليونية، وبعد انتهاء هذه الفترة القصيرة عين في لجنة التعليم العام، وأصبح مديرا لمعهد فرنسا (كوليج دو فرانس) مـن سنة ١٨٢٣ إلى سنة وفـاته ١٨٣٨، كما شغل منصب مـدير للمـدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية أيضا سنة ١٨٢٤ وبقي فيه إلى سنة وفاته أيضا.

وتم تأسيس (الجمعية الآسيوية) La Société Asiatique ، في باريس، سنة ١٨٢٢، بمبادرة من دوساسي وبالتعاون مع آبل ريموزا A.Rémusat، لتكون رابطة للمستشرقين الفـرنسيين تنظـم جهـودهم وتنسق فيما بينهـم في تعـاون تـام وتبـادل للفائدة، من أجل تكوين معـرفة موحدة شاملـة لجميع فروع الاستشراق الموجودة في باريس، وكانت الدراسات العربية آنذاك من أبرز الدراسات الشرقية في هذه الجمعية عند تأسيسها، وأخذت فروع أخرى من الاستشراق تزاحمها في هذه الجمعية مع مرور الوقـت، وقد شغل دوسـاسي منصب رئاسة هـذه الجمعية من سنـة ١٨٢٢ إلى سنة ١٨٢٩، ثم خلفه فيـه يموزا من سنة ١٨٢٩ إلى سنة ١٨٣٢، ثم عـاد دوساسي إلى

هذا المنصب ثانية من سنة ١٨٣٢ إلى سنة ١٨٣٤ ، ثم استقال منه لأسباب صحية . ومما يذكر هنا أن هذه الجمعية الباريسية كانت النموذج الذي سرعان ما احتذته دول أوربية عديدة لخدمة حركة الاستشراق فيها مثل هذه الخدمة .

وكان دوساسي قد حمل كذلك عبء مسؤولية المطبعة الملكية ، وشغل منصب أمين المخطوطات الشرقية في المكتبة الملكية (الوطنية اليوم) ، وعمل أمين سر في أكاديمية النقوش والآداب مدى الحياة ، ومنح عدة ألقاب وأوسمة ، وانتخب لمختلف الدرجات العلمية في المجامع والجمعيات العلمية في عدد من مدن أوربا ، وعمل ممثلا لمقاطعة السين في الجمعية الوطنية الفرنسية .

وكان ، إلى جانب ذلك كله يشارك في تحرير المجلة الآسيوية Le Journal asitique ، التي أنشئت سنة ١٨٢٢ في الجمعية الآسيوية لتستقطب أنشطة أعضائها العلمية ، ولاتزال تصدر عنها إلى اليوم ، كما كان يحرر المقالات في عدد من الدوريات والمجموعات الأخرى في فرنسا .

ولم يكن دوساسي يكن للامبراطور نابليون أي حب ، على الرغم من سعي نابليون إلى صداقته وتقريبه إياه ومنحه لقب (بارون) ، بل كان من أبرز معارضيه ، وكان من المنقلبين عليه سنة ١٨١٥ . وكانت عودة الملكية من أمانيه الدائمة ، فلما عادت فعلا رحب ترحيبا حارا بها وأبدى حماسة شديدة للملك الجديد لويس الثامن عشر . وكان نابليون يوجه إلى دوساسي ، كلما لقيه في حدائق التويلري ، سؤالا أصبح تقليديا ، وهو : كيف حال العربية؟ Comment va l'arabe?[(١)] .

ويمكن القول ، إجمالا ، إن دوساسي قد وصل إلى أعلى المراتب العلمية وتبوأ أرفع المناصب الإدارية ، فحقق لنفسه بذلك مجدا عظيما ، وربما كان هذا المظهر من نشاطه العام أحد أسباب شهرته في بلاده وخارجها ، في أوساط العلماء والباحثين من المستشرقين عامة ، والمستعربين خاصة ، وفي أوساط العلماء أو المثقفين العرب المعاصرين له ، وحتى اليوم أيضا .

---

(١) انظر : Derenbourg (H.), op.cit., p. 23.

كانت حياة دوساسي غنية إذن، وكانت أعماله غزيرة متنوعة، مما جعله شخصية متميزة أصبحت مثالا يحتذيه طلبته ومريدوه الذين راحوا يتتبعون آثاره ويسيرون على خطاه: فكانوا يعتنون بالعربية عنايته في مجالات التدريس، والتأليف، والتحقيق، والنشر، وجمع المختارات، والترجمة، وكتابة المقالات. وأهم من هذا كله أنهم كانوا يتبعونه في الروح الخلاقة المبدعة التي تضيف جديدا إلى أعمال الأستاذ ولا تظل أسيرة إنتاجه ولا حبيسة في إطاره. ولعل أعظم أثر لدوساسي المستعرب في طلابه هو أنه غرس في نفوسهم حب تكوين الطلبة والمريدين، فتكون له بذلك تلاميذ لتلاميذه، وتتالت هذه الموجات إلى يومنا هذا، حتى تكونت بذلك صورة فريده من نوعها لهذا الأستاذ في عالم الاستشراق، لم يحظ بمثلها من بعد غير قلة من المستشرقين إلى اليوم.

كان دوساسي يحترم الشباب الجاد والمبدع ويقدره ويشجعه على الوصول إلى غايته وطموحه، ولذلك كان يقف إلى جانب كل من يشق طريقا جديدة في العلم أو المعرفة، ومن ذلك أنه طلب إلى الملك استحداث كرسي في معهد فرنسا للسنسكريتية لغة البراهمة الهنود الأدبية والدينية المقدسة، ليشغله الشاب النشيط شيزي Chézy، كما دعم أوجين بورنوف Eug. Burnouf مكتشف الفيلولوجيا المقارنة، وشامبوليون Champollion الذي توصل إلى فك رموز الكتابة المصرية المقدسة القديمة (الهيروغليفية)، وفتح الطريق بذلك لاكتشاف حضارة مصر القديمة العريقة، وأشاد بأعمالهما وباكتشافاتها المهمة.

قال الفرد موري A. Maury فيه: «الفيلولوجيا علم حديث تماما، ودوساسي هو الممثل الأكثر روعة للغات (السامية)، وكان بإمكانه أن يتوصل إلى اكتشاف هذه الفيلولوجيا المقارنة»(١)

ويقول عنه دوق بروغلي Broglie: «عزم على تأليف الكتب الأكثر ضرورة للتعليم... إذ كان كل شيء ناقصا: الأساتذة، والطلاب، والكتب، والدروس.

---

(١) انظر op.cit., p.34.

وكـانت المدرسة القـديمـة في الاستشراق تعمل على هـواها، إلى أن أسس دوسـاسي المدرسـة الجديـدة»[1]. وقام هـذا التأسيس فعلا على توفير الأدوات الأولية الـلازمة للتعليم، وتوفير الطـريقة العلمية في هذا التعليـم كـالملاحظة المتأنية والدقـة الصارمة والتفاني في العمل، ذلك لأن دوساسي كان ولوعـا بالتعليـم وبمهنة الأستاذية، فكان الأستاذ عنـده يسيطر على العالم، وكان يتحـرى الحقيقة دوما في كل بحوثـه. وهكذا كان دوساسي فـاتحة عصر جديد في تاريخ حـركة الاستعراب والدراسـات العربية في فرنسا خاصة، وفي أوربا عامة.

لم تتأثر دروس دوساسي بالاضطرابات التي عاشتها أوربا إبان الحروب النابليونية وما نجـم منها من أحـداث سياسية وتغييرات في كـل مكان، وظلت هـذه الدروس هدفا لأولئك الطلاب الذين صرفـوا النظر عن الصراعات بين الشعوب، ليركزوه على الدراسات الشرقية، فكنـت ترى حول دوساسي طلابا قدمـوا من مختلف أنحاء أوربا لتلقي هذه الدراسات عليه والعودة من ثم إلى بلدانهم وقد نعموا بالخير الوفير من زاد أستـاذهم العلمي، ليفيدوا بـه العلم والوطـن. وكانت بـاريس في عهد دوسـاسي، بإقـرار عـام من المستشرقين والمستعـربين الأوربيين، تحتل المكـانـة الأولى في حـركـة الاستشراق في أوربـا، ويعـود الفضل في ذلك إلى هــذا الأستـاذ القـديـر بـلا أدنى شك.

كان دوسـاسي يترجم لطـلابه في دروسه مـن مختاراته العـربية (الأنيـس المفيد)، وبعض أجـزاء من (القرآن الكـريم) مع تفسيرات البيضاوي، وكـان يدرس كـذلك كتاب (حياة تيمور) لابن عربشاه (طبعة مانجيه Manger)، وكتاب (فاكهة الخلفاء) لابن عربشاه أيضا، كما كان يدرسهم كذلك (معلقة لبيد) بشرح الزوزني.

ظهر دوسـاسي على مسرح الدراسـات العربيـة في أوربا وهي تعـاني من التشتت والضعف وتغط في سبات عميق وتخضع للأمزجـة والأهواء وتتعرض للانقطاع فترات من الزمن، لأنها لم تكن تملك مقومات الاستمراريـة والثبات. ويعطينا هذا الوصف

---

(١) انظر: .Ibid

الاجمالي لحالة هذه الدراسات قبل ظهور دوساسي، صورة جلية لمكانته الرفيعة في بث هذه الدراسات وترسيخ قدمها لا في فرنسا وحدها فقط، بل في أوربا كلها، فانتقلت الدراسات العربية بذلك من العيش في العراء الذي يعرضها لكل أنواع التقلبات في الأجواء العامة إلى حصن حصين يحميها من هذه التقلبات وينظمها ويضمن لها العيش المطمئن والازدهار.

ففي فرنسا، كان كاردون Cardonne أبرز المستعربين، وهو لم يكن يعنى بتكوين طلاب أو مريدين له يحملون عنه علمه ويؤدون رسالته، فمات من غير أن يرث علمه أحد قادر على دفع الدراسات العربية وتعليم العربية إلى الأمام خطوة واحدة، فانتهى ذلك بـ (قتل هذه الدراسات) بحسب تعبير بلاشير.

وفي ألمانيا، مات رايسكه Reiske، قبل عشرين سنة من افتتاح كرسي العربية في باريس سنة ١٧٩٥، وكان هو نفسه يسهم بأعماله في إبعاد الطلاب عن الدراسات العربية أكثر من إسهامه في استقطابهم حولها.

وفي هولندا، توفي شولتنس Schultens من غير أن يخلف مريدين قادرين على مواصلة العمل المجدي في ميدان الدراسات العربية، إذ كان الاعتماد هناك قائما على كتاب النحو الذي وضعه أربينيوس Erpenius الذي أعاد تلميذه غوليوس Golius طبعه في القرن السابع عشر، وهو كتاب كثير الثغرات نظرا لقدمه.

إذن لم يكن في الساحة الأوربية، قبيل ظهور دوساسي، أستاذ بارز للعربية، ولم تكن الكتب التعليمية المفيدة متوفرة، ولم يكن هناك منهج واضح في العمل ولا معاجم ولا قواميس ذات بال، ولم تكن هناك استمرارية في الدراسات العربية بل انقطاعات بين الحين والآخر، فجاء دوساسي بجهوده ومثابرته ورمم هذا الواقع المرير وقلبه واقعا جديدا مختلفا كل الاختلاف، فكان عشاق العربية والآداب الشرقية لا يملون الاستماع لدروسه، والإفادة من روح أستاذهم العلمية، والمواظبة على الأخذ عنه وتقليده حين يصبحون أساتذة في المعاهد العلمية في بلدانهم إثر عودتهم إليها، مع حرصهم على أن يضيفوا إلى كل ذلك إبداعات جديدة خاصة بهم لتكون مسيرتهم

العلميـة صحيحة وخطـاهم في دروبها سـديـدة. ولذا فقـد عـد جمهور المستعـربين الأوربيين دوساسي المؤسسس الحقيقي للـدراسات العـربية في فرنسـا خاصـة وأوربا عـامة، إذ اقـام بناءهـا على أسس علمية متينـة أولها الأساس اللغـوي الذي وضعـه بكتابه : (النحو العربي)[1].

وقد مني هذا المستعـرب المتميز، سنة ١٨١٩، بوفـاة أمه التي كان لها فضل كبير في تـربيته الأولى وتكـوينه ذلك التكـوين الذي أدى بـه إلى رحاب الاستعـراب، ثم أصيب ثانية، سنة ١٨٣٥، بوفاة زوجته التي كـان فقدها ضربة قوية تحملها بصبر، وإن زعزعت كيانه، فلحق بها بعد ثلاث سنين فقط، في التاسع والعشرين من شهر شباط سنة ١٨٣٨، بعد حيـاة مديدة غنية قاربت الثمانين سنة وكـانت حافلة بألوان النشـاط العلمي والإداري، وبـالمجـد والشرف وذيـوع الصيت. وقـد بلغ من احترام الأوربيين له أن صدر أمر خـاص للجيوش التي دخلت فرنسا إثر هـزيمة نابليون في معركة واترلو بالمحافظة على ممتلكاته وعدم مسها بأي سوء.

وكان ابنه صمويل ـ أسطى زاد يحمل كثيرا من صفات أبيه، ولكن في غير ميدان الاستشراق، فكان عضوا في الأكاديمية الفرنسيـة. وكان لدوساسي حفيد من إحدى بناته، يدعى بافيه دو كورتي Pavet de Courteille، وقد اختط لنفسـه الاستعراب سبيلا كجده.

وممـا يدل على مكـانة دوسـاسي المحترمة هـذه أيضا مـا ذكره المستشرق الفـرنسي كاريير عنـه في النبذة التاريخية التي كتبهـا عن مدرسة اللغات الشرقيـة بباريس حين قال: «وشعر الناس، عندما توفي هذا المستشرق الشهير، بأن المدرسة قد دفنت معه، لأن شخصيته كانت مسيطرة عليها»[2].

ولكن الحقيقة كـانت غير ذلك، لأن دوساسي، وإن ترك فراغـا كبيرا بعده، فقد خلف من بين تلاميذه من كان قادرا على القيام بأداء رسالته العلمية في ميدان العربية

(١) انظر وصف حالة الدراسات العربية قبل دو ساسي في:
Blachére (R.), L'arabe littéral, in 0 : 150e de L'E.L.O., paris, 1948, p.47-49.

(٢) انظر: Carriére (A.), op.cit,p.XXIII

والدراسات العربية، وهؤلاء التلاميذ هم الذين أعادوا للمدرسة حياتها بعد موت الأستاذ ووفروا لها مقومات الاستمرار من غير أن تحدث فيها انتكاسة أو تتعرض لانقطاع، والصولجان الذي سقط من يد الأستاذ توزع بين خلفائه أيضا من كل الأمم الأوربية. ومن أبرز هؤلاء الخلفاء الذين كانوا تلاميذ مباشرين له داخل فرنسا وخارجها على سبيل المثال:

في فرنسا: رينو Reinaud، وسيديو الأب والابن Sédillot، وغارسان دوتاسي G. de Tassy، وغرانجريه دو لاغرانج G. de Lagrange، وبيلان Belin، وبرينييه Bresnier، ودوسلان De Slane، الخ.

وفي ألمانيا: كوزغارتن Kosegarten، وفلايشر Fleischer، وفولرز Vollers، وفلوغل Flügel، الخ.

وفي السويد: هولمبويه Holmboe، وتورنبرغ Tornberg، الخ.

وفي إسبانيا: دي غيانغوس de Gayangos، الخ.

وقد أدى دوساسي بتكوين هؤلاء التلاميذ إلى نثر بذور الدراسات العربية القائمة على أسس علمية راسخة وواضحة في كل أنحاء أوربا تقريبا، وهذه خدمة جلى أسداها للعربية تحمد له بغير جدال.

٢ ـ موريس غودفروا ـ ديمومبين (١٨٦٢ ـ ١٩٥٧)(١):

ولد ديمومبين في أميان Amiens سنة ١٨٦٢. وتلقى في شبابه دروسا حقوقية في البداية، مما جعله، فيما بعد، يميل إلى دراسة موضوعات تتعلق بالنظم. وقد انتظم، خلال إقامته في الجزائر التي أصبحت مرتعا خصبا يترعرع فيه المستعربون الفرنسيون ويتكونون بسبب السيطرة الاستعمارية الفرنسية عليها آنذاك، في دروس

---

(١) استخلصنا هذه النبذة من جملة مصادر أبرزها:

Blachère (R.), L'arabe littéral ... Blachère (R., Maurice Gaudefroy-Démombynes (1862-1957), in: Journal asiatique, t.CCXXXXV, 1957, p.309-311. Massé (H.), Maurice Gaudefroy-Démombynes (1862-1957), in: Arabica, t.IV, 1957, p.225-229.

كليـة الآداب في مدينـة الجزائر، وكـانت تسمى يومئـذ (مـدرسة الآداب) حتى سنـة ١٩٠٩ . وكان لأستـاذه في تلك المدرسة، رنيه بـاسيه R. Basset، أكبر الأثـر في تـوجيه ميـولـه وتحديدهـا، فهو الـذي دفعـه نهائيا إلى ميـدان الاستعـراب، فسافـر ديمومبين إلى بـاريس، والتحق بدروس مـدرسة اللغـات الشرقية الحيـة فيها وتضلع هناك من العربية، ثم عاد، سنة ١٨٩٥، مرة أخرى إلى الجزائر، ليعمل مديرا لمدرسة تلمسان، وأقام هناك ثـلاث سنوات كان لها أثرها في كتابـاته التي نشرها، فيما بعد، عن التقـاليد والعـادات الشعبية، وعـاد، سنة ١٨٩٨، إلى بـاريس ليتسلم منصب أمين مكتبة مدرسة اللغات الشرقية.

وتسلم، سنـة ١٩٠٥، دروس تعليم العربيـة في المدرسة الاستعمارية L'École coloniale التي كانت قد أنشئت سنة ١٨٨٩ لخدمة الشؤون الاستعمارية.

وعين ديمـومبين، سنـة ١٩٠٨، إثـر وفاة هـرتـويغ ديـرنبـورغ Hartwig Derenbourg، في كرسي العربية الفصحى الذي كان يشغله في مدرسة اللغات الشرقية، فكان ترتيبـه رابعا بين من تولوا هـذا الكرسي منذ إنشائه سنـة ١٧٩٥، بعد كل من: دوسـاسي، ورينـو، وديـرنبـورغ. وقد استمـر في هـذا المنصب التـدريسي إلى سنـة ١٩٣٥ . وكان قد ترك تعليم العربية في المدرسة الاستعمارية منذ سنة ١٩١٢ .

وعين، سنة ١٩٢٣، بعد متابعته أطروحتي الدكتوراه في الآداب، محاضرا في كلية الآداب بباريـــس. ثم انتقـــل، سنـة ١٩٢٧، لشغـــل منصب مديـــر الدراسـات الإسلامية، في القسم الخامس من مـدرسة الدراسات العـالية L'École des Hautes Études التي كانت قد أنشئت سنة ١٨٦٨ .

وشارك، سنة ١٩٢٩، كـلا من وليم مارسيه W. Marçais ولوي مـاسينيون L. Massignon، في تأسيس (معهد الـدراسات الإسـلامية) l'Institut d'Études Islamiques في رحاب جامعة باريس.

وأحيل ديمـومبين على التقاعـد سنة ١٩٣٥، إلا أن هـذه الإحالـة لم تكن لتعني انتهاء نشاطـه العلمي بأي حال، بل إنها وفرت له وقت الفـراغ الكـافي لممارسة هذا

النشـــاط، وتدل على ذلك آثاره التي سنذكرها عما قليل في هذه النبذة.

وقد تم انتخابه، لمكانته العلمية، عضـوا في معهـد فرنسـا l'Institut de France، وهو معهد يضم النخبة المصفاة من العلماء والكتـاب والأدباء والفنانين الأكابـر من الفرنسيين في مختلف الميادين(١)

وقد تحدث هنري ماسيه عن أجواء عمل ديمومبين فقال: «استقبلني ديمومبين يوم وفاته ـ في الثاني عشر من شهر آب سنة ١٩٥٧ ـ لبعض الوقت، في غرفة مكتبه، وهو يتأمل الأفق المألوف لديه، وهو وادي نهر السين الهادىء، وكنت أقول لنفسي أن ظلال هذه الأمكنة هي التي صقلت مواهب أوغست دو بيير كورني Corneille، قـرب منزل غوستاف فلوبير G. Flaubert، والنصب التذكاري الذي يشير إلى المكان الذي دفن فيه تابوت الامبراطور العائد من سانت هيلين(٢)، وكان منطقيا أن يخصص رجل ذو ثقافة رفيعة، ومستشرق كبير، الجوانب الإخيرة من مواهبه ومعرفته، لمؤسس واحدة من الثورات الحاسمة في التاريخ(٣)»(٤).

كان ديمومبين يتمتع بمزايا عقلية فريدة: كإيمانه الشديد بالواجب، وفطنته

---

(١) وهو يشتمل على خمس أكاديميات هي:
١ ـ أكاديمية النقوش والآداب: وكان الوزير كولبير قد أنشأها سنة ١٦٦٣ لإنجاز النقوش على الميداليات والآثار الملكية، واهتمت كذلك بالمعارف التاريخية والأثرية وشيء من الآداب.
٢ ـ أكاديمية العلوم.
٣ ـ الأكاديمية الفرنسية: وكان الكاردينال ريشليو قد أنشأها سنة ١٦٣٥ (من أربعين عضوا) لإنشاء معجم للغة الفرنسية.
٤ ـ أكاديمية الفنون الجميلة: وتضم التصوير، والنحت، والحفر، والموسيقى، وكانت قد أنشئت سنة ١٧٩٥ بعد الثورة.
٥ ـ أكاديمية العلوم والأخلاق السياسية: وقد أنشأتها الثورة سنة ١٧٩٥ أيضا للاهتمام بدراسة مسائل الفلسفة والقانون وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي، والتاريخ.
(٢) والمقصود به نابليون بونابرت الذي عاش بين سنتي ١٧٦٩ و١٨٢١.
(٣) ويقصد به النبي الكريم محمد (ص). وقد وصف ماسيه كتاب ديمومبين عن حياة النبي ودعوته بأنه عمل ضخم ونموذج لترجمة الحياة وعرض الدعوة ثم خلص إلى القول إنه يشكل «فخرا للاستشراق الفرنسي». انظر. Massé (H.), op.cit., P.229.
(٤) انظر: Ibid.

الإدارية، وإنصافه في التعليم، ومزجه حبه التعليم بولعه بالبحث العلمي، ودقته في العمل، والحماسة للاطلاع، ومعرفته كيف يبين للناشيء المبتدىء الطريق التي ينبغي له أن يسلكها، وتعلقه بتلاميذه ودعمهم في أعمالهم، وكانت بساطته تجلب له ودهم، وكان ديمومبين كذلك متشككا في كل جزئية من جزئيات بحوثه حتى يثبت له وجه الصواب فيها، وكان يصغي لأحاديث الآخرين وآرائهم ثم ينطلق في تساؤلاته، ويظهر اعتراضاته، ويبدي شكوكه. وهو لم يكن يخشى الوقوف أحيانا عند نقطة من النقاط ليقول بصراحة: «هذا غير واضح لي»، ليغلق بهذه العبارة باب الجدل في مسألة من المسائل التي تعرض عليه أو التي تعرض له. وكان من مزاياه أيضا أنه يعد الاستنتاج في البحث من أصعب المهام وأخطرها، لأنه كان يفضل دائما إبقاء هامش يمكّنه من تصحيح نتائجه غير الحتمية وغير النهائية باستمرار، كلما بدت له وجهة نظر جديدة من الصواب كان غافلا عنها أو كانت غائبة عنه. وهذه جميعا بلا شك هي صفات العالم والباحث والأستاذ المعلم الذي يظل متواضعا وإنسانا عاديا مهما علت به درجات العلم ومهما حاز من شهرة وصيت.

ولم يكن ديمومبين، مع هذا كله، يفصل بين ذوقه باحثا والتزاماته أستاذا، بمعنى أنه كان يسخر بحثه لتعليمه وعلمه في وقت واحد، لأن الميدانين متداخلان في شخصيته.

وقد حقق كل ذلك لهذا المستعرب الجاد الدؤوب مجدا عريضا وسمعة طيبة في الأوساط العلمية التي كان يعمل فيها وينتمي إليها.

وقد كان إنتاجه العلمي غزيرا، وواسعا، وخصبا، تدلنا عليه قائمة أعماله الطويلة التي نشرت في المنوعات التكريمية les Mélanges التي نشرت له في القاهرة مابين سنتي ١٩٣٥ و١٩٤٥، وكذلك القائمة الملحقة بها والتي أعدتها جانين سوردل ـ تومين J. Sourdel-Thomine، وأثبتتها في آخر مقالة هنري باسيه التي اعتمدناها في كتابة هذه النبذة، وهذه القوائم كلها تبين لنا توزع اهتمامات ديمومبين بين تأليف الكتب والترجمات والمقالات.

كانت الموضوعات التي طرقها ديمومبين متنوعة، وبدأت ببعض الأعمال التي

يستشف منها الميل إلى الدراسات الفولكلورية، والاتنوغرافية، واللهجية التي تتعلق ببلدان المغرب العربي، ولاسيما الجزائر التي عايش شعبها وتعرف عاداته وتقاليده عن كثب، ودرس أخلاقه الوطنية والقومية، وتمرس بلهجته العربية العامية. وقد تمخضت ملاحظاته ومشاهداته كلها عن كتب أربعة، هي:

١ ـ حكاية باللهجة التلمسانية Récit en dialecte tlémcénien: بالتعاون مع عبدالعزيز زناغي Zenagui سنة ١٩٠٤.

٢ ـ مختصر العربية المراكشية Manuel d'arabe marocain: نشره سنة ١٩١٣ بالتعاون مع لوي مرسييه L. Mercier، فكانت له أهمية كبيرة في دراسة اللهجة العربية في مراكش.

٣ ـ مراسم الزواج عند أهل الجزائر Les Cérémonies du mariage chez les indigènes de L'A lgérie: نشره سنة ١٩٠٠، وقد درس فيه مراحل الزواج وتقاليده، وعاداته دراسة منهجية في مناطق جزائرية هي: تلمسان، وقسنطينة، والقبائل، مع بعض المقارنات بالعادات المتبعة في مثل هذه المناسبة في بعض البلدان العربية الأخرى. وقد كتب، في مقدمة هذه الدراسة، يقول: «ليس هذا العمل غير إسهامة في التقصي الذي يجب القيام به يوما ما حول أخلاق أهل المغرب وعاداتهم، إذ يصبح ممكنا أن نستخلص النتائج من دراسة إجمالية، ويمكننا أن نعرف، من خلال دراستنا العادات المغربية، العادات البشرية العامة في المغرب، والعادات المستمدة من الإسلام، والعادات التي تنتمي عموما إلى السكان (الساميين) كافة، وتلك التي تعد عادات مغربية محضة»[1].

٤ ـ ترجمة قصص (مئة ليلة وليلة): وقد ترجمها ترجمة دقيقة وساحرة، وأضاف إليها تعليقات غنية عن أصول هذه القصص الشعبية، وقد نشرها سنة ١٩١١.

ودخل ديمومبين كذلك ميدان الدراسات التاريخية، فأعطى بعض الآثار فيه،

(١) انظر: op.cit., p.226.

وكان أولها ترجمته لكتاب: (تاريخ بني الأحمر أواخر ملوك غرناطة)، نقلا عن (تاريخ ابن خلـــدون)، وقد نشــرها سنة ١٨٩٨ . وكان الثاني بحثـه: (بلاد الشام في عهد المماليك بحسب المؤلفين العرب La Syrie a l'époque des Mamelouks d,après les auteurs arabes، وقد تناول فيه بالدراسة التنظيم الذي قام به المماليك في الشام من الناحيتين السياسية والإدارية: فدرس علاقة السلطان بالخليفة العباسي الشكلي، وعلاقتـه بالجيش، وأحوال الوظـائف الإدارية والموظفين. وأما أثره التـاريخي الثالث فهو: (العالم الإسلامي والبيزنطيون حتى الحروب الصليبية) le monde musulman et byzantins jusqu'aux Croisades، الذي نشره سنة ١٩٢٣ ، وقد تناول في هذه الدراسة أربعة قرون من التاريخ الإسلامي راصدا عـلاقاته الخارجية بالدولة المجاورة له في الشمال والشمال الغربي، أي: الدولة البيزنطية. وتحدث على التوالي عن: جزيرة العرب الـوثنية في الجاهليـة، والدعـوة الإسلاميـة فيها، وتنظيـم الخلافة الأمـوية في دمشق. ثم تحدث عن الـدولة الإسـلاميـة وتنظيمها الإداري. وقـد تميز هـذا العمل بتحليله لكل من الحياة السياسية، والحيـاة الإقتصادية، والحياة الإدارية. كما وردت في كتابه هـذا صفحات ممتازة عن الأدب العربي، مما جعل دراسته أقـرب إلى الدراسة التاريخية الحضارية منها إلى دراسة الحوادث السياسية والحربية وحدها.

وطرق ديمومبين كـذلك باب النظم الحضارية في الإسـلام بكتابه القيم: (النظم الإسلاميـة)[1] les institutions musulmanes، فعّرف بجوانب مختلفـة من هذه النظم، وتناول في طرف من دراسته هذه بالحديث الأدب العربي.

وأسهم في ميدان الأدب الجغـرافي والرحـلات بترجمة كتاب: (مسـالك الأمصار) للعمري المصري سنـة ١٩٢٧ ، وقد أغنـاها بتعليقـات كثيرة وذيلها بـاقتباسـات من الكتّاب العرب الآخرين، وكتب لها مقدمة مستفيضة درس فيها التنظيمات السياسية والعسكرية في بلدان شمال أفريقيـا. ثم نشر، سنة ١٩٥٣ ، ترجمة: (رحلة ابن جبير) من القرن الثاني عشر للميلاد، فكانت لها فائدة كبيرة للقراء الفرنسيين.

---

(١) وقد ترجمه بالعنوان نفسه كل من صالح الشماع وفيصل السامر ببغداد سنة ١٩٥٢ .

وكانت لـه، في مجال النقد الأدبي العربي القديم، إسهـامة هامة بنشره مقـدمة كتاب (الشعـر والشعراء) لابن قتيبـة متنا وتـرجمة مع التعليق عليها سنـة ١٩٤٧، فساعـد بـذلك في تعـرف الفـرنسيين هذا الجانـب من النشاط الأدبي عنـد العـرب بما يـروى الغليل، لأن أحـدا مـن المستعـربين الفـرنسيين قبلـه لم يقتحم ميـدان النقـد الأدبي العـربي، وربما كـان الحذر من اقتحـامه نـاتجا عن ضعف قـدرتهم على فهم الشعـر العـربي وتـذوق معانيـه واستسـاغـة صوره، وأدى بهم ذلك إلى العجـز عن إصـدار الإحكام عليـه أو تقويمه في دراسـة نقدية منهجية خـاصة به، ممـا جعلهم ميالين في الغالب إلى التأريخ الأدبي وتراجم الشعـراء، ذلك لأن روح الشعر تظل متصلة بروح الشعب الذي ينتجه، وهـي تظل بالتالي عصية الفهم من الخارج، ولابـد لإزالة عقبة هذا التـواصل من الـدخول في رحابـه من الداخل حتما، ومـن المسلم به أن الـروحية العامـة تختلف من شعب إلى آخر، بسبب الاختـلاف في طريقـة التفكير، والتصور، والبيئـة، والأخلاق، والمثل، والقيم، والعـادات والتقاليـد التي تكونت عبر أجيـال طويلة من تاريخ هذا الشعب أو ذاك.

وأصدر ديمـومبين، سنة ١٩٣٧، بالتعاون مـع بلاشير، كتاب: (نحو العـربية الفصحى) Grammaire de L'arabe classique، وكان ثمرة الأفكار والملاحظات والجهود التي بـذلها ديمومبين في سنـوات تدريسـه اللغة العربيـة في مدرسـة اللغات الشرقية الحيـة، حيث كان يطبق المنـاهج الحديثة في علم اللغـة على دراسته العـربية وعلى تدريسها، مخالفا بذلك طريقتي دوسـاسي وديرنبورغ اللذين كانا يعتمدان، في تدريسهما النحو العربي، على مناهج النحـويين العرب، مع استغلالهما أحيانا بعض المقـارنات بـاللغات التي تسمى (السـاميـات). وقد كـان دوساسي، مثـلا، يحاول التوفيق في كتابه (النحو العربي) بين مقولات النحو الفرنسي في نحو بور رويال Port-Royal ومناهـج النحويين العـرب. وقد قدمـت طريقـة ديمومبين هـذه فوائد كثيرة لتدريسه، فلم تعـد العربية تظهر لطلابه محكـومة ـ بحسب زعمه ـ بقواعـد مقدسة دقيقة وغـامضة، فازداد بـذلك وضوحها، وخصوصـا أنه كان يستغل أحيـانا بعض الوقـائع المتعلقة بـاللهجات العربيـة العاميـة الحديثة التي اهتم بها في مطلع حيـاته

العلمية من أجل مقارنتها بوقائع العربية الفصحى القديمة، مما أدى به إلى إدخال الوضوح والبساطة على علم كان يعده صعبا ومعقدا في ذلك الحين. وقد كان ديمومبين يؤمن بالمبدأ الذي يرى أن دراسة اللغة تكون مفيدة بقدر ما تقدم من معرفة بالحضارة التي تعد هذه اللغة وسيلة التعبير عنها، وهكذا فإن التعمق في اللغة كان عنده وسيلة دائما لا غاية لذاته.

وتناول ديمومبين ركنا هاما من أركان الإسلام، وهو الحج، في كتابه: (الحج إلى مكة) le pélerinage à la Mekke، سنة ١٩٢٣، وقد بحث فيه الطابع الديني لهذا الركن الإسلامي، وقد استند في وصفه الدقيق للأماكن المقدسة على ما كتبه عنها الكتاب الشرقيون والغربيون من القدماء والمحدثين، وتطرق إلى دراسة الشعائر التي يقوم بها المسلمون في الحج من الإحرام إلى الإحلال. وقد توصل في نهاية دراسته هذه إلى نتيجة تقول: «إن أساس شعائر الحج جاهلي - كما يتضح - لم تحصل فيه إلا تغييرات في التفاصيل والترتيب والابتداء»(١)

وكان ديمومبين يطمح دوما، في ميدان السيرة، إلى تأليف كتاب عن حياة الرسول ﷺ وعن الإسلام، وقد استطاع أن ينجز هذا العمل العظيم قبيل وفاته، وقد أهله للقيام بهذه المهمة تدريسه القرآن وتفسيره أمام تلاميذه لسنوات طويلة، وقراءته كتب السيرة النبوية التي كتبها العرب أنفسهم، وتفحصه النصوص العربية الإسلامية في كل ميدان، واستعداده لتفهم التجارب الدينية وتعمقه في الموضوع، وانسحابه إلى بلدة هادئة في ضواحي روان Rouen تدعى (هوت - سور - سين) Haute -sur- Seine، حيث كان يخلو في غرفة بحثه، ويعمل بجد وصمت، إلى أن انتهى من العمل الذي جاء فخرا للاستشراق الفرنسي عامة، وللاستعراب منه خاصة، وقد صدر بعنوان: (محمد) Mahomet، في باريس سنة ١٩٥٧.

(١) ينبغي أن ننبه هنا إلى مُسَلَّمة هامة يبدو إن ديمومبين تجاهلها هي أن الإسلام كان قد ألغى نظما شتى من الجاهلية إلغاء تاما، وأبقى نظما أخرى على قلتها، كما أنه هذب أو طور نظما أخرى كثيرة، كما أتى بنظم لم تكن من قبل قط، وهكذا ينبغي أن يفهم استنتاج ديمومبين من دراسته، لا كما يمكن أن يكون قد وظفه على طريقة بعض المستشرقين في الطعن في الإسلام بتصويره مستمدا عناصر عقيدته من أديان ونظم وشعائر وأفكار كانت قبله فجمعها في إطار واحد. انظر تلك النتيجة في: Massé (H.), op.cit., p.227.

لم تكن هذه الآثار المكتوبة تشكل وحدها أعمال ديمومبين، إذ نجد له عددا كبيرا من الإسهامات الأخرى في الصحف والدوريات الاستشراقية تتناول جوانب مختلفة من هذه الميادين التي طرقها طوال حياته العلمية الزاخرة بالنشاط والجهد المتواصلين إلى آخر لحظة من لحظات حياته.

وخلف لنا ديمومبين، إلى جانب ذلك، طبقة ممتازة من التلاميذ والمريدين الذين ظهروا في ميدان الاستشراق أو الاستعراب، وذاع صيتهم فيه، وقدموا فيه عطاء يعد من المرتبة الأولى، فكان كل تلميذ من تلاميذ ديمومبين - بهذا المعيار - أثرا حيا من آثاره. ويكفي أن نستعرض من هؤلاء على سبيل المثال: هنري ماسيه H. Massé ولوي ماسينيون L. Massignon، وغاستون فييت G. Wiet، وروبير برونشفيغ R. Brunschvig، وكلود كاهن Cl. Cahen، وهنري لاوست H. Laoust، ولوي مرسييه L. Mercier، وجان سوفاجيه J. Sauvaget، وجان كانتينو J. Cantineau.

٣ - غاستون فييت (١٨٨٧ - ١٩٧١)[1]:

ولد غاستون فييت Gaston Wiet في باريس في الثامن عشر من شهر كانون الأول من سنة ١٨٨٧، وهو ينتمي إلى أصول إنكليزية قدمت إلى فرنسا في أواخر القرن السابع عشر. أنهى دراسته الثانوية في المعهد الحر بمقاطعة يون Yonne الفرنسية. وانتظم، سنة ١٩٠٥، في دروس مدرسة اللغات الشرقية الحية التي كان باربييه دو مينار B. de Meynard، عالم الإسلاميات والتركيات، يديرها. وقد تابع فييت الشاب دروس كليمان هوار Cl. Huart بالفارسية. وكان يتعلم العربية والتركية أيضا، كما كان يتابع دروسا في الجغرافيا، والتشريع، والتاريخ المتعلق بالدول الإسلامية التي كان بول رافيس P. Ravisse، المختص بمصر في العصر الوسيط، يلقيها. وكان فييت يتابع، إلى جانب دروس مدرسة اللغات الشرقية هذه، دروسه في الحقوق.

---

(١) اعتمدنا في كتابه اكثر ما ورد في هذه النبذة على المعلومات الواردة في:
Élisséeff (N.) Gaston Wiet (1887-1971), in: Journal asiatique, t.CCL X, 1972, p.1-9.

وحصل، سنة ١٩٠٨، على ليسانس الحقوق، ونال معه دبلوم مدرسة اللغات الشرقية الحية في اللغة العربية الفصحى والعامية، وفي التركية والفارسية أيضا. ثم قرر مدير المدرسة آنذاك، بول بوير P. Boyer، إرساله إلى المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة مبعوثا، فبقي هناك من أوائل سنة ١٩٠٩ إلى أواخر سنة ١٩١١، وكان من جملة رفاقه في المعهد لوي ماسينيون، وقد التقى، خلال وجوده في القاهرة، المستشرق السويسري ماكس فان برشيم Max Van Berchem، الذي أطلعه على علم النقوش العربيةL'épigraphie وحببه إليه، فتعلق به طوال حياته، وأنتج فيه أعمالا كثيرة سنذكرها في مواضعها من هذه النبذة.

صادق فييت هنري ماسيه، وتتلمذ خارج مدرسة اللغات الشرقية على رنيه باسيه R. Basset، وعلى رنيه دوسو R. Dussaud، عالم الآثار المهتم ببلاد الشام، وعلى ديمومبين ووليم مارسيه أيضا.

وقد أعد فييت، خلال إقامته في مصر، كتاب (الخطط والآثار) للنشر، وهو من تأليف المقريزي، ويعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، ويتناول جغرافية مصر وتاريخها. وقد نشر المجلدين الأول والثاني في سنتي ١٩١١ و١٩١٤، ثم نشر المجلدين الثالث والرابع في سنتي ١٩٢٢ و١٩٢٤، ونشر المجلد الخامس في سنة ١٩٢٨.

وقد أسهم ظهور المجلد الأول من خطط المقريزي في اختيار ناشره الشاب فييت للمنصب الذي استحدث سنة ١٩١١، وهو منصب محاضر باللغتين العربية والتركية في كلية الآداب بمدينة ليون Lyon، ولكنه اقتصر، عند مباشرته التدريس، على محاضرات اللغة العربية وحدها دون التركية.

واستدعى الأمير فؤاد، رئيس الجامعة المصرية بالقاهرة، في أواخر سنة ١٩١٢، غاستون فييت لالقاء محاضرات باللغة العربية عن الأدب العربي في كلية الآداب من تلك الجامعة، فباشر فييت العمل في ذلك الحين واستمر فيه إلى آخر نيسان من سنة ١٩١٣، وكان الشيخ مصطفى عبدالرازق، الذي أصبح فيما بعد شيخ الجامع

الأزهر، يقوم مقام فييت في ذلك العام الدراسي في كلية الآداب بليون.

وعاد فييت إلى ليـون في العام الجامعي ١٩١٣ ـ ١٩١٤، وهناك قامت صـداقة بينه وبين زميليه: بول هازار P. Hazard، وهو أكبر منه بتسع سنوات، وكان مكلفا بمحاضرات في الأدب الحديث المقارن. وهنـري فوسيون H. Focillon، وهـو أكبر منه بست سنوات، وكان أستاذا لتاريخ الفن، وكان له تأثير كبير في فييت المستشرق الشاب، إذ أيقظ في نفسه الإحساس بالفن وتذوق الآثار القديمة، فاتجه فيما بعد إلى دراسة الفنون والآثـار الإسلامية، وأعطى فيها بعض الآثـار التي سنتحدث عنها في هذا السياق.

والتحق فييت، عنـدما ثـارت رياح الحرب العـالمية الأولى سنـة ١٩١٤، بفيلق للمشاة برتبة ملازم. وقد منحه فيلقه هذا، خلال معاركه، ثناء وصليبا حربيا ونجمة برونـزية، تقديرا لشجـاعته فيها، كما منحـه أيضا مدلاة ذهبية في حملـة الصرب سنة ١٩١٥. ورفع في آخـر السنة المذكـورة إلى رتبـة مـلازم أول. وأصيب في أواخر سنـة ١٩١٦ بالبرداء، وظل مريضا إلى نيسان من سنـة ١٩١٧، فأبعد عن جبهة القتال، وعين في وظيفـة ضـــابط مترجم حتى أيلــول من سنـة ١٩١٨. والتحـق، في هـذا التاريخ، بالمفوضية العليا للجمهورية الفرنسية في سورية، فالتقى فيها برفيقه القديم في المعهد الفرنسي بالقاهرة لوي ماسينيون، وشارك في بعثة جورج بيكو G. Picot في المباحثـات التي أجرتها مع الانكليـز والزعماء العـرب. ورفع فييت، في تشرين الأول من سنة ١٩١٨، إلى رتبـة نقيب وهو في بيروت. ثم سرح أخيرا في الثـالث من شهر تموز من سنـة ١٩١٩، بعد خـدمة في الجيـش الفرنسي دامت خمس سنـوات تقريبـا خلال الحرب العالمية الأولى.

وعـاد فييت في اليـوم التالي لتسريحه إلى وظيفتـه المدنيـة في كليـة الآداب بجامعـة ليون، وتسلم تعليم العربية في بدايـة العام الجامعي التالي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠، واستمر في منصبه هذا إلى سنـة ١٩٢٦، وكان من بين طلابه سنـة ١٩٢٠ المستعرب الفرنسي ماريوس كنار M. Canard الذي كان يتمرن على العربية ويعمل تحت اشرافه، وهذا

التلميذ الشاب هو الذي أصبح بعد عدة سنوات واحدا من أفضل المختصين بتاريخ العرب فيما يعرف عند الغربيين بالعصر الوسيط.

وأما عن برنامج محاضرات فييت في العام الجامعي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠، على سبيل المثال، فقد كان يشمل: القرآن الكريم (الأجزاء ١٢، و١٤، و١٩)، وديوان طرفة (طبعة سيلغسون Seligson)، وديوان عامر بن الطفيل (طبعة ليال Lyall). ومروج الذهب للمسعودي (طبعة باربييه دومينار، المجلد الخامس، ص ١٤ ـ ١٦٨)، وكتاب الأغاني (طبعة بيروت، الجزء الأول، ص ٣٤ ـ ١٨٨).

وقد تمكن فييت، بمنشوراته المختلفة، من نيل شهرة طيبة في الأوساط العلمية والثقافية أهلته لأن يعين عضوا مراسلا في أكاديمية النقوش والآداب منذ سنة ١٩٢٥، ومن أبرز هذه المنشورات: خطط المقريزي التي مرت بنا من قبل، وكتابه: (مواد لمدونة النقوش العربية) Matériaux pour un Corpus Inscriptonum Arabicarum وتناول منها بنفسه قسم سورية الجنوبية والقدس، وكان أستاذه برشيم السويسري قد بدأ بها من قبل، وكان فييت قد بدأ بطباعة هذه المدونة سنة ١٩٢٢.

ودعاه الملك فؤاد، سنة ١٩٢٦، وهو الذي عرفه منذ مدة طويلة، ليكون مديرا لمتحف الفن العربي في القاهرة، فوضعته وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية تحت تصرف الحكومة المصرية في بعثة استمرت حتى سنة ١٩٥١، وقد أتاحت له هذه الوظيفة الجديدة أن يتابع بحوثه ويتخصص بدراسة فنون البلاد الإسلامية. وقد انتخب أثناء ذلك عضوا في لجنة المحافظة على الآثار العربية إلى جانب عالم الآثار البريطاني المعروف بمنشوراته ذائعة الصيت في العالم عن الآثار الإسلامية كريزول Creswell.

ووضع فييت، خلال عمله المذكور، الفهرس العام للمتحف العربي le Catalogue général du Musée arabe، مفتتحا بذلك سلسلة من المجلدات التي درس فيها المصابيح، وقوارير الزجاج المزخرف، والتحف النحاسية مع إعطاء صور لكل منها.

وعين فييت، سنة ١٩٣٠، أستاذا لكرسي جغرافية البلدان الإسلامية وتاريخها

وأنظمتها، في مـدرسة اللغات الشرقية الحيـة بباريس، مع احتفاظه في الـوقت نفسه بوظيفته في مصر، غير أنه استبدل به آخرون بعد ذلك في تلك المدرسة.

وبدأ فييت، سنـة ١٩٣١، بنشر الفهرس التـاريخي لعلم النقوش العـربية Ré-pertoire chronologique d'Épigraphie arabe، بـالتعاون مع اتيين كـومب Et. Combe وجان سـوفاجيـه J. Sauvaget. وقد وصلت سلسلـة هذا الفهـرس سنة ١٩٥٨ إلى المجلد الثالث عشر.

ونشر فييت، سنة ١٩٣٣، مجلدا هاما عن الفن الإسلامي الذي ظهر في المعرض الذي أقيم في لندن سنة ١٩٣١ للفن الفارسي. وأصدر بعد ذلك مجلدا عن (مساجد القاهرة) les Mosquées du Caire، بالتعاون مع لوي هوتكور L. Hautecour.

ونظم فييت، في كانون الثـاني من سنة ١٩٣٥، معرضا للفن الفارسي بـالقاهرة، فأدى به ذلك إلى الاهتمام بـالأنسجة والبسط والسجاجيد، وقـد أقيم في باريس، في أواخـر السنـة نفسها، معـرض لأنسجـة المتحف العـربي وبسطه وسجـاجيـده من العصور الإسلامية المختلفة، وقام فييت بوضع فهرس له.

ودعت مدرسة اللوفر l'École du Louvre فييت، بصفته أستاذا لتاريخ الفنون الإسـلامية، لإلقـاء محاضرات في هـذا الموضـوع استمرت مـن سنة ١٩٣٦ إلى سنـة ١٩٣٨، مع احتفاظه أيضا بعمله في القاهرة.

ونشر فييت، سنـة ١٩٣٣، في سلسلـــة تـاريخ (الأمـــة) المصريـة، التي تنشر بـالفرنسيـة، المجلد الثـاني فيهـا بعنوان: (مـوجز تـاريخ مصر) Précis d'histoire de.l'Égypte. ثم نشر، سنة ١٩٣٨، المجلد الرابع في هـذه السلسلة، وكان يتناول فيه تاريخ مصر الإسلامية. وكان هذان العملان مخصصين للجمهور الواسع.

وقد شارك، فيما بعد، في المجلدين الثاني والثالث من (التاريخ العام في موسوعة البلياد) l'histoire universelle de l'Encyclopédie de la Pléiade. كما شارك كذلك في المجلد الثالث من (تاريخ الإنسانية) Histoire de l'humanité من سنة

٤٠٠ إلى سنة ١٣٠٠ للميلاد، وقامت بنشره منظمة (اليونسكو) التابعة لهيئة الأمم المتحدة.

وترجم فييت كتاب (البلدان) لليعقوبي، ونشره في المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٣٧. كما ترجم كذلك كتاب (الاعلاق النفيسة) لابن رسته سنة ١٩٥٥، مع التعليق عليه. ونشر أيضا (مختصر الإدريسي) متنا وترجمة.

وبدأ فييت، عندما نشبت الحرب العالمية الثانية، بإنجاز سلسلة ترجمات كان القصد منها تعريف الجمهور الفرنسي بالكتاب المصريين المحدثين، وكان ينشرها في: «مجلة القاهرة» Revue du Caire، التي قام بتأسيسها سنة ١٩٣٨، فظهرت ترجمته لكتاب (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم، ثم ترجمته لكتاب (الأيام) لطه حسين، ثم مجموعة (بنت الشيطان) القصصية لمحمود تيمور، وغيرها. وذلك لأن فييت بقي مقيما في القاهرة طوال فترة الحرب، فشغل نفسه خلالها بهذا الميدان الميسر له بحكم عيشه في الوسط المصري الذي ينقل شيئا من أدبه إلى لغته الفرنسية بغية إطلاع جمهور المثقفين والقراء على هذا الأدب.

وقد استجاب فييت، سنة ١٩٤٠، لنداء الجنرال ديغول، خلال الحرب العالمية، وأصبح نائب رئيس لجنة فرنسا الحرة في مصر، ثم أسهم في تأسيس لجنتي فرنسا الحرة في كل من اليونان وتركيا. ونشر في «مجلة القاهرة» سلسلة من المقالات السياسية جمعها في مجلد بعنوان: (أوضاع) Positions. وألف كتيبا بعنوان (صفحة من التاريخ) Une page d'Histoire. واستمر فييت في جهوده العلمية، على الرغم من ظروف الحرب، فنشر سنة ١٩٤٣ فهرسا محققا للمنمنمات الفارسية والتركية والهندية من مجموعة شريف صبري باشا. ونشر كذلك بعض الوثائق المتعلقة بالحملة الفرنسية على مصر، وبعض الوثائق المتعلقة بمحمد علي باشا.

وقد عين فييت مكان جان سوفاجيه، في العام التالي لوفاته سنة ١٩٥٠، في كرسي اللغة العربية وآدابها الذي كان يدعى كرسي «تاريخ العالم العربي» في عهد سوفاجيه، في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس). وقد ظل فييت يشغل هذا الكرسي

إلى سنة ١٩٦٠ ، ثم تحول إلى أستاذ فخري له . وكانت محاضراته في معهد فرنسا تعتمد على نقوش مكة والمدينة وأسواق القاهرة ، وعلى دراسة الشام ومصر عند ابن حوقل ، وعلى الاحتلال العثماني لمصر بحسب ما يذكره ابن اياس ، وأتاحت له المحاضرة عن العثمانيين الفرصة لنشر كتاب : (يوميات برجوازي من القاهرة) لابن إيـــاس[1] ، مع ترجمته والتعليق عليه ، في مجلدين . كما نشر مجلدا عن (تاريخ سلاطين المماليك) .

واستمر فييت ، بعد إحالته على التقاعد ، في نشاطه العلمي ، فشارك في كتابة بعض مواد «الموسوعة الإسلامية» .E.I ، ومواد «الموسوعة الشاملة» l'Encyclopédia Universalis . ونشر ، سنة ١٩٦٦ ، في مجموعات منظمة (اليونسكو) كتابا هامكا بعنوان : (مدخل إلى الأدب العربي) Introduction à Ia Littérature arabe تناول فيه دراسة الأدب العربي على أساس المعرفة الكاملة للثقافة باللغة العربية ، وهو قائم على مفهوم كلمة (الأدب) بمعناها الواسع الذي كان يراه العلماء العرب القدماء ، في العصور العباسية ، وهو «الأخذ من كل علم بطرف» ، وكان صاحب هذه الثقافة الشمولية يدعى (أديبا) ، وهو يعرف في أيامنا بـ(المثقف) ، في حين أن المختص بعلم واحد والمتعمق فيه كان يدعى في الماضي وفي الحاضر على حد سواء (عالما) ، فجاء هذا الكتاب شاملا ومركزا في آن واحد .

ونشر فييت ، في مجموعات جامعة أوكلاهوما Oklahoma ، في الولايات المتحدة ، مجلدا بعنوان : (القاهرة مدينة الفن والآثار) . ونشر سنة ١٩٦١ مجموعة نصوص تحت عنوان : (عظمة الإسلام من محمد «صلى الله عليه وسلم» إلى فرانسوا الأول) la Grandeur de l'Islam de Mahomet à François 1er .

ولا يغيب عن بالنا أن نذكّر بمشاركته كذلك في كتابة المقالات والبيانات في

(١) ربما كان فييت يعني بهذا العنوان كتاب ابن إياس المسجوع الذي لايبين صراحة عن مضمونه وهو (بدائع الزهور في وقائع الدهور) وهو يتناول فيه تاريخ مصر من أقدم العصور إلى ما بعد دخول العثمانيين إليها .

المجلات والـدوريات الاستعرابية والاستشراقيـة المختلفة، من أمثال مجلة «سـورية» Syria، و«المجلـة الآسيـويـة»، وغيرهما. وكان قـد انتخب سنـة ١٩٥٧ عضـوا في أكاديمية النقوش والآداب.

تلك هي خلاصـة حياة غاستون فييـت وأعماله والمناصب الإدارية التي تـولاها، ويبـدو لنا فيهـا هذا التنـوع الخصب الـذي كان يـدور على وجه الإجمال حـول مصر والإسلام والفنـون والآثار التابعـة لها أو النابعـة منها، إضافة إلى الجوانب التـاريخية والجغرافية والأدبية المتعلقة بالعرب والإسلام. وكانت جهوده في ذلك كله منصبة على التأليف أو التحقيق أو الترجمة أو النشر، ومـا يتصل بكـل ذلك من فهـرسـة وتحليل وتعليق. ويضاف إلى ذلك أيضا أنـه كان عضوا في جمعيات علميـة كثيرة. وقد خدم وطنه في ساحات الحرب وفي ميادين الترجمة العسكرية والسياسية والمفاوضات.

وقـد كـان لنشأة فييت العلميـة الأولى في أحضان القـاهـرة وفي أوسـاط الشعب العربي في مصر وعيشـه فيها فترة طويلة من حيـاته مـدرسا في كلية الآداب أو مـديرا للمتحف العربي بـالقاهرة، أثر عميـق جدا في ترسيخ حبه لمصر وشعبهـا وللحضارة العربيـة الإسلامية في نفسه، وقـد احتفظ بصداقته للمصريين وحبـه لمصر ووفائه لها حتى آخر لحظات حياته.

وأسلم فييت أخيرا روحه إلى بـارئها في مدينـة (نوييى ـ سـور ـ سين)، وذلك في العشرين من شهر نيسان من سنة ١٩٧١، عن عمر ينـاهز الخامسة والثمانين، تاركا في نفوس طلابـه وأهله لوعة وحـرقة، وفي الأوساط العلمية الفـرنسية والعربية فـراغا كبيرا بعد أن جعل من نفسه همزة وصل بين الشعبين العربي والفرنسي، وربما أيضا بين الشرق والغرب، أكثر من ستين سنة من حياته، عاش منها في مصر وحدها أكثر من ثلاثين سنة، كافح خلالها كفاح العـالم والمعلم والباحث والجندى المخلص لوطنه في كل ميـدان نزل فيـه، ولكل حقيقـة آمن بها، فـانطوى بغيـابـه علم من أبرز أعـلام المستعربين الفـرنسيين الذيـن وقفوا حياتهم وجهـودهم على دراسـة الحضارة العـربية الإسلامية من خلال الميادين التي مرت بنا آنفا في هذه النبذة.

٤ ـ ريجيس بلاشير (١٩٠٠ ـ ١٩٧٣)[١]:

ولد ريجيس بلاشير Régis Blachere في الثلاثين من شهر حزيران من سنة ١٩٠٠، في ضاحية من ضواحي باريس تدعى (مونروج) Montrouge. وعندما انتقل أبوه ـ وكان موظفا صغيرا ـ مع أسرته إلى المغرب الأقصى، سنة ١٩١٥، بعد احتلاله من قبل فرنسا، كان بلاشير يرافقه، فأنهى هناك دراسته الثانوية في مدرسة ليوتي Lycée Lyautey، في مدينة الدار البيضاء Casablanca. وقد مال بعد ذلك إلى العمل في وظيفة مترجم، غير أن أساتذته ألفوا فيه استعدادا قويا للدراسات ولتعلم اللغات الأجنبية، فوجهوه إلى تعلم اللغة العربية على وجه الخصوص، ليصبح مستعربا يعلِّم العربية. وكان عيش بلاشير في البيئة العربية في المغرب واختلاطه بأهلها مما غرس في نفسه حب الإطلاع على حياة هؤلاء الناس وتاريخهم وحضارتهم وكل وما يتصل بذلك من عقيدة وأدب. غير أنه لم يتمكن من التفرغ للدراسة في هذا الميدان، بسبب الأعباء المالية التي تفرضها عليه معيشته وضيق حال أسرته، فاضطر إلى العمل في وقت مبكر موجها في معهد مولاى يوسف فى مدينة الرباط، مع مواصلته لدراساته العالية الحرة وقد ساعده على النجاح فيها ولعه الشديد بالمطالعة لما اتصف به من ظمأ لا ينتهي إلى المعرفة.

وقد حصل بلاشير، سنة ١٩٢٢، على ليسانس اللغة العربية من كلية الآداب في مدينة الجزائر، وكان من أساتذته فيها: هنري ماسيه، وايفاريست ليفي ـ بروفنسال[٢] E.Lévi-Provençal. وقد كان الأول منهما يدفعه إلى التعليم، وكان الثاني يريد له أن يصبح دارسا للاتينية ومؤرخا لروما القديمة. وحظي بلاشير هناك بصداقة المستعرب الفرنسي هنري باسيه H.Basset، عميد تلك الكلية، الذي كان يهتم بدراسة الاتنوغرافية المغربية.

---

(١) استقينا هذه النبذة من جملة مصادر من أهمها :

Cohen (D.), Régis Blachére (1900-1973), in: Journal asiatique, T.CCLXII, 1974, p.1-10. Élisséeff (N.), Régis Blachère (1900-1973), in: Arabica, t.XXII, 1976, p.1-15. Julien (Ch.), Analecta de Régis Blachère, Damas, 1975, p.VII-XII.

(٢) ويبدو أنهما أثرا فيه تأثيرا عميقا في توجهه إلى الدراسات الأدبية العربية والدراسات الإسلامية، ولذا نجده يتوجه إليهما في إهداء كتابه : (تاريخ الأدب العربي) بالقول : إلى إستاذيَّ السيدين هـ . ماسيه و إ. ليفي ـ بروفنسال، مع أوفى عرفاني بجميلهما.

ونال، سنة ١٩٢٤، درجة الأغريغاسيون agrégation، وكان أستاذه فيها المستعرب وليم مارسيه W.Marçais. وعاد بعد هذه الدرجة أستاذ للعربية في معهد مولاي يوسف الذي كان يعمل فيه من قبل. وكانت عنده نزعة قوية إلى معرفة العالم العربي والإسلام والتعريف بهما، وكان ذلك أثرا من آثار اجتماع صفة العالِم بصفة المعلِّم في دخيلة نفسه.

وعمل بلاشير، من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٥، أستاذا مديرا للدراسات في معهد الدراسات المغربية العالية l'Institut des Hautes Études Marocaines ثم خلف، في سنة ١٩٣٥، صديقة المستعرب موريس غودفروا ـ ديمومبين في كرسي العربية الفصحى في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، فكان خامس من يتولاه منذ إنشائه، وظل يشغله إلى سنة ١٩٥٠.

وقد أعد، في سنة ١٩٣٥، أطروحتين لنيل درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة السوربون: فكانت «الأطروحة الأساسية» دراسة أحادية بعنوان: (شاعر من القرن الرابع الهجري: أبو الطيب المتنبي)، وكانت «الأطروحة المتممة» ترجمة لكتاب (طبقات الأمم) لصاعد الأندلسي، مع تعليقات عليه.

وانتقل بلاشير، سنة ١٩٥٠، من مدرسة اللغات الشرقية ليشغل كرسي الفيلولوجيا والأدب العربيين في العصر الوسيط في جامعة السوربون، وبقي في هذا المنصب إلى حدود سنة ١٩٧٠.

وقد عمل في مناصب أخرى كثيرة، إلى جانب ما سبق ذكره، فكان يؤدى فيها نشاطات علمية مختلفة، فقد خلف سنة ١٩٤٢ وليم مارسيه مديرا للدراسات الفيلولوجيا العربية في القسم الرابع من المدرسة التطبيقية للدراسات العالية، واستمر في هذا المنصب إلى سنة ١٩٦٨. وأصبح في سنة ١٩٥٦ مديرا لمعهد الدراسات الإسلامية في أكاديمية باريس، وظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٦٥، وكان كل من وليم مارسيه وليفى ـ بروفنسال وديمومبين قد اشتركوا في تأسيس هذا المعهد سنة ١٩٢٩. وشغل، سنة ١٩٦٢، منصب مدير مركز المعجمية العربية التابع

للمركز الوطني للبحث العلمي بباريس .C.N.R.S، لمتابعة الأعمال التى تستهدف إصدار قاموس عربي - فرنسي - إنكليزي معا. كما تولى منصب نائب رئيس لرابطة تقدم الدراسات الإسلامية. وانتخب عضوا مراسلا في مجمعي اللغة العربية في كل من دمشق والقاهرة. وانتخب كذلك عضوا في أكاديمية النقوش والآداب بفرنسا.

وأما الميادين الأخرى التي ظهر فيها نشاط بلاشير، الذي كان وحده علامة بارزة في الدراسات العربية الإسلامية في هذا القرن في ميدان الاستعراب الفرنسي، فقد كانت كثيرة موزعة بين اللغة والأدب والدين والأدب الجغرافي.

وفي ثبت أعماله الكاملة الذي نشرته ايف باريه E.Paret في (المنتخب) من مقالاته Analecta، الذى أصدره المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، يجد المرء خمسة عشر كتابا من تأليفه الخالص أو بالمشاركة مع آخرين، إلى جانب مئة وسبع عشرة مقالة في موضوعات شتى كانت قد نشرت في عدد من المجلات والمنوعات الاستعرابية والاستشراقية(١)، أو في بعض الموسوعات، كالموسوعة الإسلامية(٢)، والموسوعة الكبيرة(٣) La Grande Encyclopédie، والموسوعة الشاملة.

وقد مربنا في ترجمتنا لديمومبين أن بلاشير قد عاونه في وضع كتاب (قواعد العربية الفصحى) الذي نشر سنة ١٩٣٧. وهو الكتاب الذي استطاع عند ظهوره أن يزحزح كتاب نحو العربية الذي كان دو ساسي قد وضعه وظل معتمدا حتى ذلك الوقت عند المستعربين الفرنسيين، وحل محله، لأن المؤلفين اتبعا فيه المناهج الحديثة في علم اللغة في أيامهما، وقصدا به أن يكون مخصصا للمستعربين الفرنسيين، وقد طبع سنة ١٩٥٢ طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة، وهو لا يزال إلى اليوم تقريبا مرجعا

---

(١) منها مقالات عن شعراء من أمثال: ابن دراج القسطلي، وابن زمرك، والمعري، الخ.
(٢) له فيها مثلا نبذ ترجمية لشعراء من أمثال: العباس بن الأحنف، وأبي صخر الهذلي، والأخطل، وعمرو بن كلثوم، وعنترة وذي الرمة، وبشار.
(٣) وله فيها نبذ ترجمية لشعراء من أمثال أبي نواس، والمعري، وشوقي.

أساسيا في موضوعه، وقد أدى دورا كبيرا في تكوين أجيال من المستعربين.

وتابع بلاشير موضوع البحث في اللغة العربية في آثار لاحقه، إذ نشر في سنة ١٩٣٩ كتابا بعنوان: (مبادىء العربية الفصحى) Éléments de l'arabe classique، وقد طبع في سنة ١٩٥٨ طبعة رابعة منقحة ومصححة. ونشر في سنة ١٩٤٦ كتابا بعنوان: (تمارين على العربية الفصحي) Exercices d'arabe classique، بالتعاون مع ماري تشيكالدي M.Ceccaldi، وطبع في سنة ١٩٧١ طبعة سابعة.

وكان بلاشير يفكر، إلى جانب هذه الإسهامات الهامة في دراسة اللغة العربية، في مشروع كبير هو إنجاز قاموس ثلاثي اللغات يدعى (القاموس العربي ـ الفرنسي ـ الإنكليزي)، وقد طرح فكرته الأولى فى المؤتمر الثالث والعشرين للمستشرقين المنعقد في كمبردج سنة١٩٥٤، وجوهر هذا المعجم تاريخي اشتقاقي معا، وقد شكلت لذلك لجنة ثلاثية تتألف من: بلاشير، ومصطفي شويمي، وكلود دينيزو Cl.Denizeau وقد عمد الثلاثة إلى العودة إلى النصوص العربية من مختلف العصور ضمن قراءات واسعة لجمع مادة هذا القاموس، وقد بدىء بطبعة سنة ١٩٦٣، وصدرت منه ثلاثة مجلدات في حياة بلاشير من أصل ستة: وكان الأول قد تم نشره سنة ١٩٦٧، والثاني سنة ١٩٧٠، والثالث سنة ١٩٧٣. وقد أوصي بلاشير، قبيل وفاته، بأن يدير العمل من بعده المستعرب الفرنسي المعروف شارل بيلا Ch.Pellat، الذى كان له باع طويل في ميدان الدراسات العربية أيضا، بغية إنجاز المجلدات الثلاثة المتبقية ونشرها.

ونشر بلاشير، في مجال الأدب الجغرافي، كتابا بعنوان: (اقتباسات من الجغرافيين العرب الرئيسيين في العصر الوسيط) Extraits des principaux géographes arabes du Moyen Âge، في سنة ١٩٣٤، ثم أعاد طبعه دارمون Darmaun مصححا ومنقحا سنة ١٩٥٧. وبلاشير هو الذى دفع بتلميذه المستعرب أندريه ميكيل A.Miquel إلى دراسة الأدب الجغرافي عند العرب في أطروحتيه لنيل درجة الدكتوراه.

وأصـــدر بـلاشير، في مجال التحقيق والترجمة، بـــالتعـاون مع صـــديقـة جـــان سوفاجيـه، كتيبا يحـوى قواعـد التحقيق والتـرجمة ليستعمـله المستعـربون دليـلا لهم في هذين المجالين، وهو بعنوان: (قواعد تحقيـق المخطوطات العربية وترجمتها)[1] Règles pour éditions et de publications des textes arabes، وذلك في سنة ١٩٥٣.

وقدم بلاشير، في مجال الدراسات الإسلامية، آثارا قيمة كان أولها كتابة: (مدخل إلى القرآن) Introduction au Coran، الذي نشره سنة ١٩٤٧، ثم أعاد نشره ثانية سنة ١٩٥٩، وقد تناول فيه تاريخا موجزا للقرآن الكريم توجه به إلى جمهور القراء غير المختصين ليعرفهـم إياه ويقـربهم إليه. وقـد أصدر بعـد هذه الـدراسة تـرجمة دقيقة للقرآن في مجلدين ضخمين: ظهر الأول منهما سنة ١٩٤٩، والثاني سنة ١٩٥٠. وقد رتب السـور في هذه الترجمة بحسب المراحل الأربع التي مـرت بها الدعـوة الإسلاميـة في مكة والمدينـة، وقد زود تـرجمته هـذه بتعليقات وشروح فيلـولوجيـه كثيرة، وذيلها بفهرس كبير للأعلام والمفاهيم التي تحتاج إلى تفسير أو توضيح. وتعد هذه الترجمة، بإقرار المستعـربين أنفسهم، أقرب إلى روح النص الأصلي وأسلوبـه المشرق، وإن كنا نستبعـد ذلك عن أي ترجمة للقـرآن استبعادا مطلقـا لاستحـالة المقـاربة فضـلا عن المطـابقـة، وهـذه الترجمة على أي حـــال أكثـر الترجمات إفـادة للبـاحثين من علماء الإسلاميات في ميدان الاستعراب الفرنسي على وجه الخصوص. وأعاد بلاشير طباعة ترجمته هذه، سنة ١٩٥٧، على ورق ناعم ورقيق، بعد أن أعاد ترتيب السور فيها إلى الترتيب القرآني المعتاد، وتوجه بهذه الطبعة إلى جمهور القراء الفرنسيين أكثر من توجهه إلى العلماء المختصين والباحثين. ثم نشرت هذه الطبعة ثانية في سنة ١٩٧٢. كما قدم بلاشير لجمهـور القراء الفـرنسيين أيضا دراسـة قصيرة ومركـزة سنة ١٩٦٦ بعنـوان: (القرآن)[2] Le Coran، وقد نشرت الطبعة الثالثة منها سنة ١٩٧٣. ولم يفت

(١) وقد عمـدنا إلى تـرجمة هذا الكتيب إلى العـربية بالعنـوان المذكور أعـلاه، ونشرت هذه الترجمة دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق سنة ١٩٨٨.

(٢) تم نشره في سلسلة (كوسيج) المعروفة برقم ١٢٤٥.

بلاشير، في الوقت نفسه، أن يخص شخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) بالدراسة والتحليل والتأريخ، فأصدر كتابا بعنوان (قضية محمد «صلى الله عليه وسلم») Le problème de Mahomet في سنة ١٩٥٢، ليكون عونا على فهم ترجمة القرآن من جهة وتعاليم الإسلام وتاريخه من جهة ثانية. ثم نشر، في سنة ١٩٥٦، كتابا آخر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعنوان: (على خطا محمد «صلى الله عليه وسلم») Dans les pas de Mahomet.

وكان الأدب العربي من الميادين المفضلة البارزة عند بلاشير، ولا سيما الشعر منه. وقد بدأ اتصاله بهذا الأدب بدراسته التي وقفها على المتنبي في أطروحته الأساسية التي قدمها لنيل درجة الدكتوراة في الآداب سنة ١٩٣٥. وقد تناول فيها هذا الشاعر وفنه وفق منهج تاريخي متصاعد ومتسلسل بحسب المراحل، مطبقا فيها نظرية تين Taine عن الوسط (البيئة) والعرق والعصر وأثرها معا في نسج حياة الشاعر وفنه (١).

ثم نشر، سنة ١٩٥٧، ترجمة لـ (مختارات من مقامات بديع الزمان الهمذاني) بالتعاون مع بيير ماسنو P.Masnou، ولعل الغاية من هذه المختارات اعطاء صورة لفن المقامات في الأدب العربي، تكمل ما تكون منها في ذهن القارىء الفرنسي والباحث المستعرب حين قام بترجمة بعض مقامات الحريرى من قبل.

ويعد كتابه: (تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر)(٢) l'Histoire de le littérature arabe des origines à la fin du XVe siècle. الكتاب الهام الذى خلد جهوده ومكانته العلمية بين المستعربين، وكان قد خطط له أن يغطي الأدب العربي، بالمفهوم المحدد والضيق لكلمة (الأدب)، أي: الشعر والنثر الفني، من أقدم عصوره التاريخية (الجاهلية) إلى نهاية القرن الذي شهد انهيار الدولة المملوكية في الشام ومصر وبدايات سقوطها في قبضة العثمانيين، إلا أن

---

(١) انظر: هـ١ ص ١٢٣ من هذا البحث.
(٢) انظر: هـ١ ص ١٢٤ من هذا البحث.

المجلدات الثلاثة التي ظهرت في حياة بلاشير وصلت بهذا العمل الطموح إلى سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٢م، ثم انقطع العمل فيه، لسوء الطالع، بوفاة صاحبة، وكان المجلد الأول منها قد نشر سنة ١٩٥٢، والثاني سنة ١٩٦٤، والثالث سنة ١٩٦٦. وتعد هذه المجلدات أداة عمل لاغني عنها لدى الباحثين من المستعربين على وجه الخصوص.

وكان بلاشير يتبع في دراسته الشعراء، في مقالاته ودراساته المطولة على حد سواء، المنهج النصي، لأنه يعد النصوص شواهد على الوسط (البيئة) الذي أنتجت فيه، كما كان يطبق على الشعراء كذلك منهج تين في تتبع تأثيرات الوسط (البيئة)، والعرق، والعصر، لفهم تلك النصوص على حقيقتها، بالإضافة إلى فهم منتجها فهما أدق بقدر الإمكان، وكان يرى دائما أن دراسة الأدب ليست غاية، وإنما هي وسيلة لفهم الحضارة التي أنتجت هذا الأدب، ونستنبط من هذا الرأى أن بلاشير كان يحاول فهم الحضارة العربية الإسلامية من خلال الأدب الذى تم إبداعه في ظلها، وكان يرى أن الأدب العربى القديم يتمتع بسمة هامة جدا هي أن إنتاج «جماعي» لم يكن للأفراد فيه إلا الاستجابة للرأى العام في الجماعة التي يعيشون فيها. غير أن هذا الرأى مدفوع عندنا ولا يجوز تعميمه على جميع مبدعي ذلك الأدب القديم.

تلك هي أهم آثار بلاشير في الميادين المختلفة، وأما مقالاته فإننا نغض الطرف عنها، لأننا رأينا في هذه النبذة إشارة إلى عدد منها، وهي في غالبيتها المطلقة في موضوعات أدبية شعرية، ولأنها كثيرة، ونحيل المهتمين بها إلى المجموعة المنتقاة منها في مجلد واحد، كان قد جمع مقالاته ثلاثة من مريدى بلاشير وطلابه، وهم؛ أندريه ميكيل، وجيرار تروبو G.Troupeau، وأندريه ريمون A.Raymond، ثم نشروها سنة ١٩٧٥، بعنوان: (المنتخب من مقالات ريجيس بلاشير) Analecta de R.Blachère، ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق.

وقد أسهم بلاشير كذلك في إدارة مجلة (أرابيكا) Arabica، وفي رئاسة تحريرها منذ سنة ١٩٥٦، أثر وفاة مؤسسها وأستاذة القديم المستعرب الفرنسي ليفي ــ

بروفنسال، وكانت قد بدأت بـالصدور سنة ١٩٥٤، ثم تنازل بلاشير عن إدارة هذه المجلة الفصلية، سنة ١٩٦٢، إلى تلميـذه جيرار لوكونت G.Lecomte، وهـو من المهتمين بالدراسات العربية، وقد وقف أكثر اهتماماته على دراسة ابن قتيبة وآثاره.

نضيف إلى كل ذلك أن بـلاشير خـرَّج عـدة أجيال من المستعـربين البـاحثين في مدرسة اللغـات الشرقية، وجامعة السوربـون، ومدرسة الدراسات العـالية، وغيرها من المؤسسات التعليميـة في فرنسا. وأشرف على عـدد كبير من أطروحات الـدكتوراه التي تقدم بها طلبـة فرنسيـون وأجانب وعرب لنيل الـدرجة العلميـة. وقد بقي حتى لحظاته الأخيرة محبـا للعلم وولعا بطلابـه، ولم يكن يبخل على أى منهم بنصيحة أو توجيـه، ولم يتأخر عن إبداء رأى إذا طلب إليـه ذلك. على أنه كان متشـددا جدا في دروسـه في مطلع حياتـه العلميـة، غير أنه أخـذ يتساهـل معهم بالتـدريج من غير مسـاس بحـدود الحق أو الصـواب، إذ لم يعرف عنـه أنـه تسـاهل يـومـا في خطأ أو انحـراف. وكان طـلابه في مـدرسـة اللغات الشرقيـة يعـرفون لـه وضوح العـرض في دروسه، ويتذكرون حـدته وقسوته أحيانا في ملاحظاتـه، ويذكرون تلك العبارة التي كـان يرددهـا على أسماعهم في التحـريض على إيـلاء العربيـة مـا تستحق من اهتمام وهي: «العـربية معشوقـة متشدِّدة تتطلب من المرء أن يخصِّـص لها كلَّ يوم سـاعات عديـدة». وقد كان على من يريـد منهـم النجاح في ميدان الاستعـراب حقا أن يعمل بهذا القـول. وكان طـلاب بلاشير القـدامى يذكـرون أستاذهـم ذا القـامة المديـدة، ويذكرون الصلع المبكر الذى أخـذ يغزو رأسه، وضعف بصره الدائم الذي تحول فيما بعد إلى عمى تـام قبل وفاته بقـرابة عشرين سنة، أي منذ سنـة ١٩٥٣، غير أن هذا العمى لم يكن ليؤثر في نشـاطه العلمي، ولا في إنتاجه، لأنه كان يتمتع بـذاكرة قوية وقدرة كبيرة على استيعـاب المعلومات التي يسمعهـا وعلى تصنيفها، ولذا كـان يتابع نشاطه العلمي بالسـوية السابقة نفسها، وذلك بإملاء ما لا يكـون بحاجة إلى إعادة النظـر فيه أو إلى تنقيحـه. وقـد شغل بلاشير نفسـه في الأسـابيع الأخيرة من حياتـه بـدراسة لم تتم عن الشـاعـر بشار بن بـرد، وكأنما أراد بـذلك أن يقـدم لنا شيئـا من معاناته العمى بإسقاطها على حياة بشـار الأعمى، أو ليجد عزاء عن عماه بتذكر هذا

الشاعر العربى الـذى ولد على العمى وكانت له حياة حافلة مليئة بـالنشاط والحيوية والشعـر والشر، وكـان عنيدا وعنيفـا يـرهب جـانبـه سفلة القـوم وعليتهم على حـد سواء .

كان بلاشير، بحسب ما يصفه معاصروه، يبدو لمن يتعامل معه، للوهلة الأولى، رجلا صارما، بـاردا، ذا وجه هادىء جامد يجعله منفـرا، ولكن من يتقرب إليه أكثر ويعاشره يكتشف فيه إنسانا حساسا جدا، وموهوبا، ومنفتحا على الحياة والصداقة، ومتمتعا بثقافة واسعة. وكان يحب الموسيقى إلى جانب حبه الأدب، وكان يعزف على آلة الكمان معبرا بها عما يحس به من عواطف، وكـان يصطحب في عزلته موسيقى كل من بـاخ وبيتهـوفن، كما أنـه كان يحب مطـالعـة أعمال كل من مـونتيني، وفـولتير، ورينان، وستاندال [1] .

أما شهـرته فكانـت واسعة في أوساط العلماء الفـرنسيين والمستشرقين والمستعربين والعرب وعلماء الإسلاميـات وجمهور المثقفين. ويفخر عدد من البـاحثين بأنهم كانوا يوما مـا من طلابه الذين تلقـوا دروسهم على يديه أو أنه أشرف على بحـوثهم، فنالوا رعـايته وتشجيعـه في أعمالهم. ويتمثل سر شهرتـه الواسعـة هذه في هـؤلاء التلاميـذ والمريدين اللذين جمعهم حوله بتعليمه وشخصيته من نحو، وفي آثاره الكثيرة والمتنوعة التي نشرها خلال مسيرته العلمية وحياته المديـدة، فهو كما يقول عنه تلميذه جوليان Ch.Jullien في تـرجمته لـه بعد وفـاته بثـلاث سنـوات كان «يتمتع بصفـة المعلم من شواطـىء الأطلسي إلى ضفاف دجلـة» وقال أندريـة ميكيل عن اهتمامـه بالعـربية: «كانت العـربية، وربما العربية وحـدها، هي الشغل الشاغل لحياة هـذا العالم، من شبابه المغربي إلى السوربون» [2] .

وقد كـانت مدام ايف باريه، طـوال محنته في بصره، تقف إلى جانبه سـاهرة على خدمتـه وإدارة أعماله باخلاص وتفـان نادرين، فكانت خير معين لـه حتى حانت

(١) انظر : Analecta de Régis Blachére, Damas, 1975,p.IX.
(٢) انظر : op.cit.,p.XII

وفاته في السابع من شهر آب من سنة ١٩٧٣ . وقد دفن في المقبرة التي ثوى فيها قبله أبوه وزوجتـه مرغريت . وقد كتـب إلى تلميذه أندريه ميكيل في ٢٥ حـزيران ١٩٧٦ كتابا ذكر فيه أن بلاشير أوصى قبيل وفـاته بأن يكفن جثمانه بجلبابه المغربي، وأن دل ذلك على شيء فإنما يـدل على حبـه الشـديـد للمغـرب ووفـائه لأهلـه، وهـم الـذين احتضنوه في مطلع شبابه، وكان لهم الفضل الأول عليـه في تكوينه وتوجهه إلى ميدان الاستعراب والدراسـات الإسلامية، إذ عاش في المغرب وبين أهله قـرابة عشرين سنة تمتد من سنـة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٣٥، وهي فترة التفتح والتكـون والنضج والاستقرار في حياة الإنسان. وقد حفظ هذا المستعـرب كل ذلك وعبر عنه بهذا الرمز العميق في دلالته، وهو «الجلباب المغربي».

٥ـ أندرية ميكيل (ولد سنة ١٩٢٩)[1]:

ولد أنـدريه ميكيل André Miquel في قـرية (ميـز) Mèze جنوب فـرنسا في السـادس والعشرين من شهـر أيلول من سنـة ١٩٢٩ . وقـد تلقى العـربية على يـد المستعرب ريجيس بلاشير من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٥٣، وكان في هذه الفترة نفسها طالبا في معهد المعلمين العالي الذي تخرج فيه اختصاصيا بالنحو الفرنسي. وقد أرسل في السنة الـدراسية ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ مبعوثا إلى المعهـد الفرنسي للـدراسات العـربية بدمشق، وكلف وقتهـا بإلقاء دروس فى المدرسة العليا لـلآداب ببيروت، ثم عاد إلى فرنسا ليؤدى الخدمة العسكرية الإلزامية ما بين سنتي ١٩٥٤ و١٩٥٥ .

ولما كان قـد اكتسب معرفـة جيدة بـالبلدان العـربية عن كثب، أثنـاء دراسته في المعهد الفرنسي بدمشق وتدريسه في بيروت، فقد رغب في توسيع دائرة معرفته ببلدان

---

(١) أستقينا مادة هذه النبذة من ترجمة حياة ميكيل وأعماله وألقابه Curriculum Vitae التي كـان قد كتبها بنفسه عند توليه كرسي (اللغة العربية الفصحى وآدابها) في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس) سنة ١٩٧٥، وقد بعثت بها إلي مشكورة السيدة إيف باريه E.Paretمع رسالة مؤرخة في ٣٠ تموز (يوليـو) سنة ١٩٧٧، وهي السيـدة التي كان لها فضـل خدمـة المستعرب بلاشير وتنظيـم أعماله والقراءة له أكثـر من عشرين سنة، أي منذ بدء محنته في بصره إلى وفاتـه سنة ١٩٧٣ . وقد حملت تلك الترجمة عنوان: Titres et travaux d'André Miquel,, p.1 -14.

أخرى في الشرق ذات طابع (سامي) [1]، ولذا فقد سارع إلى تسلم منصب الأمين العام لقسم الآثار في المعهد الأثيوبي للبحوث في أديس أبابا عاصمة أثيوبيا، بين سنتي ١٩٥٥ و١٩٥٦، حين عرض عليه، وشارك هناك ببعض أعمال التنقيب والحفريات الأثرية في منطقة أكسوم.

وعلّم بعد عودته إلى فرنسا في مدرسة بليز ـ بسكال Lycée Blaise- Pascal، في السنة الدراسية ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦. ثم عمل في الإدارة العامة للشؤون الثقافية والفنية في وزارة الشؤون الخارجية (خدمة التعليم، قسم الشرق الأدنى)، وظل يعمل في هذه الوظيفة من سنة ١٩٥٧ إلى سنة ١٩٦١، وكان يستغل أوقات فراغه، خلال هذه السنوات الأربع، في تحضير أطروحته المتممة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، وهي تقوم أساسا على ترجمة جزئية لكتاب: (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي، مع وضع مقدمة وافية وملاحظات وفهارس، وقد نشرها في المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٦٣. وكان لأستاذه بلاشير أثر كبير في توجهه إلى دراسة الأدب الجغرافي عند العرب في هذه الأطروحة التي أشرف عليها المستعرب الفرنسي المشهور شارل بيلا.

وعين ميكيل، سنة ١٩٦١، رئيسا للبعثة الجامعية والثقافية الفرنسية إلى مصر، وكان يفكر، حين وصل في أيلول من السنة نفسها إلى القاهرة لمزاولة مهام عمله الإداري، في جمع وثائق ومعلومات عن مختلف جوانب الثقافة في مصر المعاصرة لتأليف أطروحته الأساسية لنيل درجة الدكتوراة، غير أن الظروف اضطرته اضطرارا إلى أن يعود إلى فرنسا قبل أن يستكمل سنة في مصر، فأدى به ذلك إلى استبعاد الموضوع لصعوبة الحصول على مادته بعيدا عن الوسط الذي يدرسه، وقد دفعه ذلك إلى دراسة اللغة العربية وآدابها في العصور القديمة، واختار لدراسته هذه ما كتبه

(١) سبق لنا أن رفضنا صفة (السامية) التي أطلقت على اللغة العربية وفروعها التاريخية، كما أطلقت على الشعوب المختلفة التي تنتمي إليها في المنطقة العربية، لأنها اصطلاح توراتي يستند إلى ماورد في التوراة من أنساب لا تفسر شيئا ولا تعني شيئا أمام الواقع والحقائق الاتنوغرافية والاتنولوجية للبشر في العالم أجمع، ونرى أن الصواب استبعاد هذا المصطلح كلية ليحل محله صفة (العربية القديمة أو التاريخية)، وصفا للغات والشعوب المقصودة به.

الجغرافيون العرب من آثار عن البلدان الإسلامية المختلفة ومجتمعاتها في القرون التي عايشوها فيها.

وقد عين ميكيل، إثر عودته إلى فرنسا، أستاذا مساعدا للغة العربية وآدابها، في جامعة (اكس ـ آن ـ بروفانس) Aix - en- Provence، من سنة ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٤. ثم أصبح أستاذا مساعدا أيضا لعلم اجتماع اللغة العربية وآدابها، في القسم السادس من المدرسة التطبيقية للدراسات العالية E. P. H. E، من سنة ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٦٨.

وكان خلال الفترة المذكورة آنفا يحضر أطروحته الأساسية بعنوان: (الجغرافيا البشرية للعالم الاسلامي حتى منتصف القرن الحادي عشر للميلاد la géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI^e Siècle بإشراف أستاذه بلاشير نفسه، الذي كان من اهتماماته في الماضي البحث في هذا الجانب من التراث العربي. وقد تم نشر أطروحته هذه في مجلدين: الأول سنة ١٩٦٧، والثاني سنة ١٩٧٥.

وعُيِّن ميكيل، سنة ١٩٦٨، أستاذا محاضرا في جامعة باريس الثالثة، وبقي كذلك حتى سنة ١٩٧٠ التي عين فيها أستاذا محاضرا لمادة «اللغة العربية وآدابها في العصر الوسيط»، ثم عين في الجامعة نفسها أستاذا بلا كرسي للمادة نفسها. ثم عمل، منذ مطلع سنة ١٩٧٤، مديرا لوحدة الدراسة والبحث U. E. R. في «لغات الهند والشرق وشمال أفريقيا وحضاراتها» في جامعة باريس الثالثة أيضا.

وكان ميكيل يلقي، وهو في هذه المناصب، دروسه على طلبة الليسانس والأغريغاسيون والحلقة الثالثة في اللغة العربية، فكانت أعماله فيها تشمل تطبيقات عملية ودروسا نظرية في الأدب العربي قديمه وحديثه، إضافة إلى تكوين الطلاب على أساس متين، بحسب المناهج اللغوية الحديثة، وكذا الأمر في النقد الأدبي، كما كان يلقي على طلبته أيضاً دروسا في أدب الجغرافيين العرب، وفي الأدب الشعبي الذي يتمثل في «ألف ليلة وليلة».

وقد طلب ميكيل، بالتعـاون مع المستعرب دافيد كوهين D. Cohen، إلى المركـز الـوطنـي للبحث العلمي C. N. R. S.، إحـداث فريق للبحـوث المشتركة تكـون أنشطته وقفـا على علم اللغة العـربية وآدابها، وقـد حصلا على هـذا المطلب. وكان ميكيل يعقد الأمل على متابعة وحدة الدراسة والبحث U. E. R. نشر كتاب بلاشير: (تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر) الذي ظهر منه ثلاثة مجلدات توقفت عند سنة ٧٤٢م / ١٢٥هـ.

وكان ميكيل مشاركـا نشيطا في ميدان المؤتمرات والندوات التي تتعلق بـاهتماماته ومهنته في البحث والتعليم، ومن هـذه المؤتمرات والندوات: ما عقد في مـدريد سنة ١٩٦٥، وفي إستنبول سنة ١٩٦٦، وفي تونس سنـة ١٩٦٨، وفي المحمدية بالمغرب سنة ١٩٧٠، وفي المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين الذي عقد في باريس سنة ١٩٧٣ بمناسبـة الذكرى المئوية لانعقـاد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس نفسها سنـة ١٨٧٣، وكان ميكيل أمينـا عامـا مساعدا في مـؤتمر هذه المنـاسبة، وفي عمان سنة ١٩٧٤. وقد لبى الـدعوات التي كانت بعض الجامعات العربيـة توجهها إليه للمحاضرة فيها: كجامعات دمشق، وعمان، وتونس.

تلك هي أهم الأنشطة والمسؤوليات العلمية والتعليمية والإدارية التي قام ميكيل بـالعمل فيها وتـوليهـا، وقد تـوجت سنـة ١٩٧٥ بـانتخابـه لشغل كـرسي العربيـة الفصحى وآدابها في معهد فرنســا (كوليج دو فرانس)، ويعد هـذا الانتخاب شهادة على غزارة آثاره ونوعيتهـا وإفادتها الثقافة الفرنسية، إذ يمكننـا إبراز أنشطته في ميدان البحث والتأليف والترجمة والتحقيق في شكلين: الأول الكتـب، والثـاني المقـالات، والدراسـات القصيرة، والبيانـات، والمواد التي تنشر في الموسـوعات أو المنـوعات أو في مجمـوعـات أعمال المؤتمرات أو النــدوات، وغير ذلك من أشكـال النشر القصيرة والسريعة.

وأبرز آثار ميكيل المنشورة حتى اليوم:

١ ـ ترجمة حكايات (كليلة ودمنة)، مع التعليق عليها: وقد نشرت سنة ١٩٥٧،

وأعيدت طباعتها طبعة منقحة سنة ١٩٧٦ . ومن المعروف أن لهذه الحكايات تأثيرا كبيرا في الأدب الفرنسي خاصة (ولاسيا: أماثيل لافونتين les fables de La-fontaine) [1]، وفي الآداب الأوربية والغربية عامة.

٢ ـ الترجمة الجزئية لكتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي.

٣ ـ الجغرافيا البشرية للعالم الإسلامي: وهي بحث في الأدب الجغرافي العربي الإسلامي [2].

٤ ـ الاسلام وحضارته l'Islam et Sa civilisation: وهو بحث نشره سنة ١٩٦٨ ، ونال عليه جائزة الأكاديمية الفرنسية، وحقق لصاحبه شهرة واسعة في الأوساط العلمية في فرنسا والخارج، بسبب المادة الغزيرة التي حشدها فيه وعرضها بأسلوبه المشرق الجذاب عن الحضارة الإسلامية. ولذا نجد لهذا الكتاب ترجمات إلى لغات أجنبية حية بارزة: كاللغة الألمانية التي نقل إليها بعنوان: (الإسلام من محمد (ﷺ) إلى عبدالناصر) سنة ١٩٧٠ . والبرتغالية سنة ١٩٧١ . والإيطالية سنة ١٩٧٣ .

٥ ـ الأدب العربي [3] la littérature arabe: وهو كتيب يستعرض فيه مراحل التاريخ الأدبي العربي المختلفة إلى العصر الراهن بإيجاز مخل كل الإخلال بالغرض. وكان قد نشر بباريس سنة ١٩٦٩ . وهو مترجم في تونس.

٦ ـ ترجمة قصة (غريب وعجيب): وهي من قصص (ألف ليلة وليلة)، وقد نشرها، سنة ١٩٧٦ ، مع دراسة من أربعة فصول تناول فيها بالتحليل كلا من المكان والزمان والحدث والخطاب في هذه القصة.

---

(١) وقد ترجم نيقولا أبو هنا، أحد آباء دير المخلص، شطرا من هذه الأماثيل إلى العربية شعرا، ونشره في صيدا (بلبنان) سنة ١٩٣٤ ، بعنوان: (أمثال لافونتين).

(٢) وقد ترجم ونشر في وزارة الثقافة بدمشق في ثلاثة مجلدات تحمل عنوان: (جغرافية بلاد الإسلام) سنة ١٩٨٦ .

(٣) وقد نشر في سلسلة كوسيج برقم ١٣٥٥ سنة ١٩٦٩ .

٧ ـ ترجمة ديوان (المعبد الغريق) لبدر شاكر السياب سنة ١٩٧٦ .

وأما مقالات ميكيل فتزيد على مئة مقالة، تناول فيها مواضيع أدبيّة متنوعة تمتد من الأدب الجغرافي العربي إلى الأدب العربي القديم عامة عبر عصوره المختلفة، إلى ترجمات لبعض أعلام الحضارة العربية الإسلامية في مختلف الميادين، إلى الأدب العربي الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى اليوم، إلى البحث في أدوات وردت في القرآن (مثل: حتى، وإنما، وغيرهما)، إلى آخر ما هنالك من بحوث في ميادين أخرى مقاربة .

ويبدو لنا أن مقالات ميكيل إنما كانت استجابة لضرورات البحث والتعليم أو محاولات للإجابة عن بعض التساؤلات القائمة، أو توضيحا لبعض القضايا المُشْكِلة في الأذهان . وقد نشر ميكيل إسهاماته هذه في عدد كبير من الدوريات والموسوعات الفرنسية، ومنها مثلا: مجلة أرابيكا، والمجلة الآسيوية، ونشرة الدراسات الشرقية BEO (التي يصدرها المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق منذ أوائل الثلاثينات)، ومجلة الناقد، ومجلة الإنسان، ومجلة الدراسات الإسلامية REI، وحوليات الدراسات الإسلامية (الصادرة عن معهد الدراسات الإسلامية بباريس)، وحوليات أثيوبيا (الصادرة عن معهد الآثار في أديس أبابا)، ومجلة القاهرة الجديدة (التي كانت استمرارا لمجلة القاهرة التي أسسها فييت في القاهرة)، وكراسات تونس، والموسوعة الإسلامية .E. I والموسوعة العامة لا روس، والموسوعة الشاملة .E. U، وغيرها .

ولايزال هذا المستعرب مجدا وناشطا في عطائه المتواصل في ميدان الأدب العربي والتراث القديم، في ميادين شتى كالتأليف والتحقيق والنشر والترجمة والمقالة . وهو يشغل اليوم منصب المدير العام للمكتبة الوطنية بباريس، وهي من عظميات المكتبات في فرنسا والعالم، وفيها كنوز طيبة من مخطوطات تراثنا العربي العريق .

مصادر البحث

أولا : المصادر الأجنبية والأصلية :

١ ـ الأساسية

1- Annuaire du Collège de France, 1975.

2- L'Arabisant, janvier, 1974.

3- Avant-Propos de l'Encyclopédie de l'Islam, 2ème éd., Paris, 1960.

4- BLACHÈRE (R.), L'arabe littéral, in: 150e de l'École des Langues Orientales, Paris, 1948.

5- BLACHÈRE (R.), Évariste Lévi-Provençal (1894-1954), in: Arabica, t.III, 1956.

6- BLACHÈRE (R.), Jean Sauvaget (1901-1950), in: Journal asiatique, t.CCXXXIX, 1951.

7- BLACHÈRE (R.), Maurice Gaudefroy-Démombynes (1862-1957), in: Journal asiatique, t.CCXXXV, 1957.

8- BLOCHET (E.), Catalogue de la collection de manuscrits orientaux arabes, persans et turcs, par Schefer, Paris.

9- BLOCHET (E.), Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris, 1901.

10- CAHEN (CL.) et PELLAT (CH.), Les études arabes et islamique, in: Journal asiatique, t.CCLXI, 1973.

11- CANTINEAU (J.), Les parlers arabes du Horân, Paris, 1946.

12- CARRIÈRE (A.), Notice historique sur l'École Spécial des Langues Orientales Vivantes, in: Mélanges orientaux, Paris, 1883.

13- Cent cinquantenaire de l'École des Langues Orientale, Paris, 1948.

14- CHAUVIN(V.), Bibliographie des ouvrages arabes ou re tifs aux Arabes publiés dans l'Europe chrétienne de 1810 à 1885, Liège, 1892.

15-COHEN(D.), Régis Blachère(1900-1973), in: Journal asiatique, t.CCLXII, 1974.

16- COLIN(G.S.), L'arabe vulgaire, in: 150e de l'E.L.O., Paris, 1948.

17- Congrès d'études arabes à Cordoue, in: Arabica, t.X, 1963.

18- DENY(J.), L'École Nationale des Langues Orientales Vivantes, in: 150e de l'E.L.O., Paris, 1948.

19- DERENBOURG(H.), Silvestre de Sacy(1758-1838), Paris, 1895.

20- Dictionnaire encyclopédique(Larousse).

21- DRIAULT(E.), La question de l'Orient, Paris, 1898.

22- DRUGEON(O.), Géographie, histoire, institutions des États musulmans, in: 150e de l'E.L.O., Paris, 1948.

23-DUFRÉNOY(M.L.), L'orientalisme romanesque en France, Montréal, 1940.

24- DUGAT(G.), Histoire des orientalistes de l'Europe, 2 t., Paris, 1868-1870.

25- DUPONT-FERRIER(G.), Les Jeunes de Langues ou " Arméniens " à Louis-Le-Grand, in: Revue d'études arméniennes, t.II(1922), et t.III(1923).

26- ELISSÉEFF(N.),Gaston Wiet(1887-1971),in:Journal asiatique,t.CCLX,1972.

27- ELISSÉEFF(N.),Régis Blachère(1900-1973),in:Arabica, t.XXII,1976.

28- ELISSÉEFF(N.),Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits,Beyrouth,1949.

29- Encyclopédie du XX[e] siècle.

30- FILLIOZAT(J.),La Société asiatique d'hier au lendemain,in:Journal asiatique,t.CCLXI,1973.

31- FÜCK(J.),Die arabischen Studien in Europa,Leipzig, 1955.

32- HUART(CL.),Le Centenaire de la Société asiatique (1822-1922),in:Orient et Occident,t.2,1922.

33- LABAT(R.),Avant-Propos du Journal asiatique à la 150[e] de la Société asiatique(1822-1972),t.CCLXI,1973.

34- Larousse du XX[e] siècle.

35- LECLERC(L.),Histoire de la médecine arabe,2[ème] éd., U.S.A.,1971.

36- MASSÉ(H.),Les études arabes en Algérie(1830-1930), Paris,1933.

37- MASSÉ(H.),Maurice Gaudefroy-Démombynes(1862-1957),in: Arabica,t.IV,1957.

38- MEUVRET(C.),La Bibliothèque,in: 150[e] de l'E.L.O., Paris,1948.

39- MIQUEL(A.),TROUPEAU(G.),RAYMOND(A.) :Analecta de Régis Blachère,Damas,1975.

40- MIRAMBEL(A.),L'École des Langues Orientales de Paris et les études d'orientalisme ,in:Revue de l'enseignement supérieur,n°2,1957.

41- MIRAMBEL(A.),L'orientalisme d'hier et d'aujourd'hui, in: Revue de l'E.L.O.,t.I,1964.

42- Problème et besoins de l'École Nationale des Langues Orientales Vivantes,in: Revue de l'E.L.O.,t.II,1965.

43-PELLAT(CH.),Langue et littérature arabes,2ème éd., Paris,1970.

44- RENAN(E.),Averroès et averroïsme,Paris,1852.

45- SALMON(G.),Silvestre de Sacy,2 t.,le Caire(1905-1923).

46- SECRET(F.),Guillaume Postel et les études arabes à la Renaissance,in:Arabica,t.IX,1962.

47- Titres et travaux d'André Miquel,1975.

48- ZOTENBERG(H.),Avertissement du Catalogue des manuscrits arabes à la Bibliothèque Nationale de Paris,par M.G. de Slane,Paris,1895.

٢ـ الثانوية:

49- Actas de primer congreso de estudios arabes e islamicos, Cordoba, 1962 (Madrid, 1964).

50- Annales d'études orientales, Alger, t.I, 1934-1935.

51- BARTHOLD (V.-V.), La découverte de l'Asie (Histoire de l'orientalisme en Europe et en Russie), traduit par B. Nikitine, Paris, 1947.

52- BERGÉ (M.), Essai sur la personnalité morale et intellectuelle d'Abū Ḥayyān at-Tawḥīdī, styliste et humaniste arabe du IV^{e}/ X^{e} siècle (Thèse de doctorat d'État à la Sorbonne, Paris, 1974), 3 vol.

53- BLACHÈRE (R.), Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV^{e} siècle de J.-C., 3 vol., Paris, 1952.

54- BLACHÈRE (R.), Un poète arabe du IV^{e} siècle de l'Hégire (X^{e} siècle de J.-C.): Abou-t-Ṭayyib al-Motanabbi, Paris, 1935.

55- BOUSTANY (S.), Ibn ar-Rūmī et son oeuvre, Beyrouth, 1967.

56- COUR (A.), Un poète arabe d'Andalousie: Ibn Zaïdoun, Constantine (Algérie), 1920.

57- DARMESTETER (J.), L'orientalisme en France, 1883.

58- DERENBOURG (H.), Oumāra du Yemen: sa vie et son oeuvre, Paris, 2 t. (1897, 1902).

59- DERENBOURG (H.), Ousāma Ibn Mounkidh: Un émir syrien au premier siècle de Croisade, Paris, 1893.

60- GAUDEFROY-DÉMOMBYNES (M.), Introduction au Livre de la poésie et des poètes (d'Ibn Qotaiba), Paris, 1947.

61- GAUDEFROY-DÉMOMBYNES (M.), William Marçais (1874-1956), in: Arabica, t.III, 1956.

62- KEILANI (I.), Abū Ḥayyān at-Tawḥīdī, Beyrouth, 1950.

63- HUART(CL.),La littérature arabe,4ème éd.,Paris,1931.

64- LECOMTE(G.),Ibn Qutayba: l'homme,l'oeuvre et les idées, Damas,1965.

65- MIQUEL(A.),La littérature arabe,Paris,1969.

66- Mélanges orientaux offerts à Henri Massé,Téhéran,1963.

67- PEARSON(J.D.),Index Islamicus,England,1958.

68- PELLAT(CH.),Le milieu basrien et la formation de Ǧāḥiẓ,Paris,1953.

69- Pérès(H.),La poésie andalouse arabe classique au XIe siècle,Paris,1937.

70- VADET(J.),L'esprit courtois en Orient dans les cinq premiers siècles de l'Hégire,Paris,1968.

71- WIET(G.),Introduction à la littérature arabe,Paris, 1966.

* ... * ... * ... *

ثانيا : المصادر العربية والمترجمة :

أولا : الأساسية

١ ـ أثر العرب في الفن الحديث للدكتور عفيف بهنسي، دمشق، ١٩٧٠ .

٢ ـ أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٧ ،١٩٢٧ .

٣ ـ الأستاذ كليمان هوار، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج٧، ١٩٢٧ .

٤ ـ أصول التاريخ الأوربي الحديث لهربرت فيشر، ترجمة : د. زينب عصمت راشد، د. أحمد عبدالرحيم مصطفى، ط ٣، دار المعارف بمصر.

٥ ـ أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤ .

٦ ـ أصول النثر الأدبي العربي لوليم مارسيه، ترجمة : د. محمود المقداد، في : مجلة التراث العربي بدمشق، ع١٨ ، ١٩٨٥ .

٧ ـ الاعتبار لأسامة بن منقذ، تحقيق: د. فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون في الولايات المتحدة، ١٩٣٠ .

٨ ـ تاريخ الأدب العربي المعاصر للدكتور إبراهيم أبو الخشب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦ .

٩ ـ تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، ٥ج في ٢ مج، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت.

١٠ ـ تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا للمستعرب النمسوي يوسف جيرا، القاهرة، ١٩٢٩ .

١١ ـ تاريخ دراسة المشرقيات في أوربا للدكتور فيليب حتي، في: مجلة الهلال المصرية، مج ٣٣ ، ١٩٢٣ .

١٢ ـ تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي، ضمن كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤ .

١٣ ـ تراثنا بين ماض وحاضر للدكتورة عائشة عبدالرحمن، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠.
١٤ ـ تعليقات وأقوال مأثورة لطه حسين بقلم الدكتور محمد الدسوقي، في: مجلة العربي بالكويت، ع ٢٠٧، ١٩٧٦.
١٥ ـ الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، ط ١، القاهرة، ١٩٦٣.
١٦ ـ خطط الشام لمحمد كرد علي، ٦ج، دمشق، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م.
١٧ ـ دائرة المعارف الإسلامية للدكتور سيد نوفل، في: مجلة الهلال المصرية، عدد يناير (كانون الثاني)، ١٩٧٦.
١٨ ـ الدروس العربية في فرنسا لكليمان هوار، ترجمة: عبدالله رعد، في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٥، ١٩٢٥.
١٩ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبدالرحمن الجبرتي، تحقيق: حسن محمد جوهر وآخرين، ٤ج، ط ١، لجنة البيان العربي بالقاهرة، ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥.
٢٠ ـ العرب والعثمانيون للدكتور عبدالكريم رافق، دمشق، ١٩٧٤.
٢١ ـ غرائب الغرب لمحمد كرد علي، ١٩١٠.
٢٢ ـ القرآن الكريم.
٢٣ ـ قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها لريجيس بلاشير، وجان سوفاجيه، ترجمة: د. محمود المقداد، دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، ١٩٨٨.
٢٤ ـ المستشرقون لنجيب العقيقي، ط ٣، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.
٢٥ ـ النثر الفني في القرن الرابع الهجري للدكتور زكي مبارك، ٢ ج، ط٢، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
٢٦ ـ يومان في باريس للدكتور فيليب حتي، في: مجلة الهلال المصرية، مج ٣٣، ١٩٢٣.
٢٧ ـ يوميات الجبرتي المعروفة بـ (مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس)، دار المعارف بمصر.

ثانيا : الثانوية

٢٨ ــ أثر العرب في الحضارة الأوربية لعباس محمود العقاد، ط٧، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩ .

٢٩ ـ تاريخ الأدب العربي لريجيس بلاشير، ترجمة : د. إبراهيم الكيلاني، ٣ ج، منشورات وزارة الثقافة بدمشق، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ .

٣٠ ـ الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء لشارل بيلا، ترجمة : د. إبراهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية بدمشق، ١٩٦١ .

٣١ ـ رحلة الأدب العربي إلى أوروبا لمحمد مفيد الشوباشي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨ .

٣٢ ـ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق (الطب والصيدلة) للدكتور سامي خلف حمارنة، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦٩ .

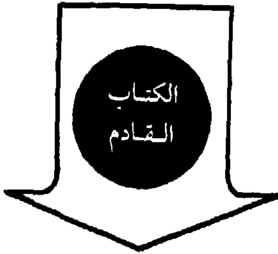
٣٣ ـ المذكرات لمحمد كردعلي، ٣ ج، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٤٨ .

المؤلف في سطور

* د. محمود المقداد
* ولد في مدينة بصرى (سورية) سنة ١٩٥١.
* تخرج في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق سنة ١٩٧٤.
* حاز دبلوم الدراسات الأدبية العليا من نفس القسم سنة ١٩٧٥.
* ونال درجة الماجستير في الآداب من قسم اللغة العربية سنة ١٩٨٢، ثم درجة دكتوراه دولة في الآداب سنة ١٩٨٦.
* عمل منذ سنة ١٩٧٨ معيدا لمادة الأدب في صدر الإسلام والعصر الأموي، ومدرسا لها منذ سنة ١٩٨٦ في قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة دمشق.
* يشرف على عدد من رسائل الماجستير ويشارك في مناقشة أطروحات الماجستير والدكتوراه.
* له من المؤلفات المنشورة:

١ ـ الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي، دار الفكر بدمشق، سنة ١٩٨٨.

٢ ـ ترجمة كتاب (قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها) لريجيس بلاشير وجان سوفاجية (عن اللغة الفرنسية)، دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، سنة ١٩٨٨.



بنية الثورات العلمية

تأليف: توماس كون

ترجمة: شوقي جلال

صدر عن هذه السلسـلة

١ـ الحضارة	تأليف : د/ حسين مؤنس
٢ـ إتجاهات الشعر العربي المعاصر	تأليف : د/ إحسان عباس
٣ـ التفكير العلمي	تأليف : د/ فؤاد زكريا
٤ـ الولايات المتحدة والمشرق العربي	تأليف : / أحمد عبدالرحيم مصطفى
٥ـ العلم ومشكلات الإنسان المعاصر	تأليف : د/ زهير الكرمي
٦ـ الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها	تأليف : د/ عزت حجازي
٧ـ الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية	تأليف : / محمد عزيز شكري
٨ـ تراث الإسلام (الجزء الأول)	ترجمة : د/ زهير السمهوري تحقيق وتعليق : د/ شاكر مصطفى مراجعة : د/ فؤاد زكريا
٩ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة	تأليف : د/ نايف خرما
١٠ـ جحا العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار
١١ـ تراث الإسلام (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ حسين مؤنس ، د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا
١٢ـ تراث الإسلام (الجزء الثالث)	ترجمة : د. حسين مؤنس ، د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا
١٣ـ الملاحة وعلوم البحار عند العرب	تأليف : د/ أنور عبدالعليم
١٤ـ جمالية الفن العربي	تأليف : د/ عفيف بهنسي
١٥ـ الإنسان الحائر بين العلم والخرافة	تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
١٦ـ النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية	تأليف : د/ محمود عبدالفضيل
١٧ـ الكون والثقوب السوداء	إعداد : رؤوف وصفي مراجعة : زهير الكرمي
١٨ـ الكوميديا والتراجيديا	ترجمة : د/ علي أحمد محمود مراجعة : د/ شوقي السكري ، د/ علي الراعي
١٩ـ المخرج في المسرح المعاصر	تأليف : / سعد أردش

٢٠ـ التفكير المستقيم والتفكير الأعوج	ترجمة حسن سعيد الكرمي مراجعة : صدقي حطاب
٢١ـ مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي	تأليف : د/ محمد على الفرا
٢٢ـ البيئة ومشكلاتها	تأليف : رشيد الحمد د/ محمد سعيد صباريني
٢٣ـ الرق	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني
٢٤ـ الإبداع في الفن والعلم	تأليف : د/ حسن أحمد عيسى
٢٥ـ المسرح في الوطن العربي	تأليف : د/ علي الراعي
٢٦ـ مصر وفلسطين	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
٢٧ـ العلاج النفسي الحديث	تأليف : د/ عبدالستار ابراهيم
٢٨ـ أفريقيا في عصر التحول الإجتماعي	ترجمة : شوقي جلال
٢٩ـ العرب والتحدي	تأليف : د/ محمد عماره
٣٠ـ العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة	تأليف : د/ عزت قرني
٣١ـ الموشحات الأندلسية	تأليف : د/ محمد زكريا عناني
٣٢ـ تكنولوجيا السلوك الإنساني	ترجمة : د/ عبدالقادر يوسف مراجعة : د/ رجا الدريني
٣٣ـ الإنسان والثروات المعدنية	تأليف : د/ محمد فتحي عوض الله
٣٤ـ قضايا أفريقية	تأليف : د/ محمد عبدالغني سعودي
٣٥ـ تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي (١٩٣٠ـ ١٩٧٠)	تأليف : د/ محمد جابر الأنصاري
٣٦ـ الحب في التراث العربي	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله
٣٧ـ المساجد	تأليف : د/ حسين مؤنس
٣٨ـ تكنولوجيا الطاقة البديلة	تأليف : د/ سعود يوسف عياش
٣٩ـ إرتقاء الإنسان	ترجمة : د/ موفق شخاشيرو مراجعة : زهير الكرمي
٤٠ـ الرواية الروسية في القرن التاسع عشر	تأليف : د/ مكارم الغمري
٤١ـ الشعر في السودان	تأليف : د/ عبده بدوي
٤٢ـ دور المشروعات العامة في التنمية الإقتصادية	تأليف : د/ علي خليفة الكواري
٤٣ـ الإسلام في الصين	تأليف : فهمي هويدي
٤٤ـ اتجاهات نظرية في علم الاجتماع	تأليف : د/ عبدالباسط عبدالمعطي

٤ـ حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار
٤ـ دعوة إلى الموسيقا	تأليف : د/ يوسف السيسي
٤ـ فكرة القانون	ترجمة : سليم الصويص مراجعة : سليم بسيسو
٤ـ التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان	تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
٤ـ صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي	تأليف : صلاح الدين حافظ
٥ـ التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية	تأليف : د/ محمد عبدالسلام
٥ـ السينما في الوطن العربي	تأليف : جان ألكسان
٥ـ النفط والعلاقات الدولية	تأليف : د/ محمد الرميحي
٥ـ البدائية	ترجمة : د/ محمد عصفور
٥ـ الحشرات الناقلة للأمراض	تأليف : د/ جليل أبو الحب
٥ـ العالم بعد مائتي عام	ترجمة : شوقي جلال
٥ـ الإدمان	تأليف : د/ عادل الدمرداش
٥ـ البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية	تأليف : د/ أسامة عبدالرحمن
٥ـ الوجودية	ترجمة : د/ إمام عبدالفتاح
٥ـ العرب أمام تحديات التكنولوجيا	تأليف : د/ انطونيوس كرم
٦ـ الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الأول)	تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري
٦ـ الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الثاني)	تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري
٦ـ حكمة الغرب	ترجمة : د/ فؤاد زكريا
٦ـ الإسلام والاقتصاد	تأليف : د/ عبدالهادي علي النجار
٦ـ صناعة الجوع (خرافة الندرة)	ترجمة : احمد حسان عبدالواحد
٦ـ مدخل إلى تاريخ الموسيقا المغربية	تأليف : عبدالعزيز بن عبد الجليل
٦ـ الإسلام والشعر	تأليف : د/ سامي مكي العاني
٦ـ بنو الإنسان	ترجمة : زهير الكرمي
٦ـ الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية	تأليف : د/ محمد موفاكو
٦ـ ظاهرة العلم الحديث	تأليف : د/ عبدالله العمر
٧ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) القسم االأول	ترجمة : د/ علي حسين حجاج مراجعة : د/ عطيه محمود هنا
٧ـ الإستيطان الأجنبي في الوطن العربي	تأليف : د/ عبدالمالك خلف التميمي
٧ـ حكمة الغرب (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ فؤاد زكريا

٧٣ـ التخطيط للتقدم الإقتصادي والإجتماعي	تأليف : د / مجيد مسعود
٧٤ـ مشاريع الاستيطان اليهودي	تأليف : أمين عبدالله محمود
٧٥ـ التصوير والحياة	تأليف : د / محمد نبهان سويلم
٧٦ـ الموت في الفكر الغربي	ترجمة : كامل يوسف حسين
	مراجعة : د / إمام عبدالفتاح
٧٧ـ الشعر الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا	تأليف : د / أحمد عتمان
٧٨ـ قضاياالتبعية الإعلامية والثقافية	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
٧٩ـ مفاهيم قرآنية	تأليف : د/ محمد أحمد خلف الله
٨٠ـ الزواج عند العرب (في الجاهلية والإسلام)	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني
٨١ ـ الأدب اليوغسلافي المعاصر	تأليف : د/ جمال الدين سيد محمد
٨٢ ـ تشكيل العقل الحديث	ترجمة : شوقي جلال
	مراجعة : صدقي حطاب
٨٣ ـ البيولوجيا ومصير الإنسان	تأليف : د/ سعيد الحفار
٨٤ ـ المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية	تأليف : د/ رمزي زكي
٨٥ ـ دول مجلس التعاون الخليجي ومستويات العمل الدولية	تأليف : د/ بدرية العوضي
٨٦ ـ الإنسان وعلم النفس	تأليف : د/ عبدالستار ابراهيم
٨٧ ـ في تراثنا العربي الإسلامي	تأليف : د/ توفيق الطويل
٨٨ ـ الميكروبات والإنسان	ترجمة : د/ عزت شعلان
	مراجعة : د/ عبدالرزاق العدواني د/ سمير رضوان
٨٩ ـ الإسلام وحقوق الإنسان	تأليف : د/ محمد عماره
٩٠ ـ الغرب والعالم (القسم الأول)	تأليف : كافين رايلي
	ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري د/ هدى حجازي
	مراجعة : د/ فؤاد زكريا
٩١ ـ تربية اليسر وتخلف التنمية	تأليف : د/ عبدالعزيز الجلال
٩٢ ـ عقول المستقبل	ترجمة : د/ لطفي فطيم
٩٣ ـ لغة الكيمياء عند الكائنات الحية	تأليف : د/ أحمد مدحت إسلام
٩٤ ـ النظام الإعلامي الجديد	تأليف : د/ مصطفى المصمودي

٩٥ ـ تغيّر العالم	تأليف : د/ أنور عبدالملك
٩٦ ـ الصهيونية غير اليهودية	تأليف : ريجينا الشريف ترجمة : أحمد عبدالله عبدالعزيز
٩٧ ـ الغرب والعالم (القسم الثاني)	تأليف : كافين رايلي ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري، د/ هدى حجازي مراجعة : د/ فؤاد زكريا
٩٨ ـ قصة الأنثروبولوجيا	تأليف : د/ حسين فهيم
٩٩ ـ الأطفال مرآة المجتمع	تأليف : د/ محمد عماد الدين إسماعيل
١٠٠ ـ الوراثة والإنسان	تأليف : د/ محمد علي الربيعي
١٠١ ـ الأدب في البرازيل	تأليف : د/ شاكر مصطفى
١٠٢ ـ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية	تأليف : د/ رشاد الشامي
١٠٣ ـ التنمية في دول مجلس التعاون	تأليف د/ محمد توفيق صادق
١٠٤ ـ العالم الثالث وتحديات البقاء	تأليف جاك لوب ترجمة : أحمد فؤاد بلبع
١٠٥ ـ المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي	تأليف : د/ إبراهيم عبد الله غلوم
١٠٦ ـ «المتلاعبون بالعقول»	تأليف : هربرت . أ . شيللر ترجمة : عبدالسلام رضوان
١٠٧ ـ الشركات عابرة القومية	تأليف : د/ محمد السيد سعيد
١٠٨ ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ علي حسين حجاج مراجعة : د/ عطية محمود هنا
١٠٩ ـ العملية الإبداعية في فن التصوير	تأليف : د/ شاكر عبدالحميد
١١٠ ـ مفاهيم نقدية	ترجمة : د/ محمد عصفور
١١١ ـ قلق الموت	تأليف : د/ أحمد محمد عبدالخالق
١١٢ ـ العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث	تأليف : د/ جون . ب . ديكنسون ترجمة : شعبة الترجمة باليونسكو
١١٣ ـ الفكر التربوي العربي الحديث	تأليف : د/ سعيد إسماعيل علي
١١٤ ـ الرياضيات في حياتنا	ترجمة : د/ فاطمة عبدالقادر الما

١١٥ ـ معالم على طريق تحديث الفكر العربي	تأليف : د/ معن زيادة
١١٦ ـ أدب أميركا اللاتينية (قضايا ومشكلات) القسم الأول	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى
١١٧ ـ الأحزاب السياسية في العالم الثالث	تأليف : د/ أسامة الغزالي حرب
١١٨ ـ التاريخ النقدي للتخلف	تأليف : د/ رمزي زكي
١١٩ ـ قصيدة وصورة	تأليف : د/ عبدالغفار مكاوي
١٢٠ ـ سيكولوجية اللعب	تأليف : د/ سوزانا ميلر ترجمة : د/ حسن عيسى مراجعة : د/ محمد عماد الدين إسماعيل
١٢١ ـ الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم	تأليف : د/ رياض رمضان العلمي
١٢٢ ـ أدب أميركا اللاتينية (القسم الثاني)	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى
١٢٣ ـ ثقافة الأطفال	تأليف : د/ هادي نعمان الهيتي
١٢٤ ـ مرض القلق	تأليف : د/ دافيد . ف . شيهان ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة
١٢٥ ـ طبيعة الحياة	تأليف : فرانسيس كريك ترجمة : د/ أحمد مستجير مراجعة : د/ عبد الحافظ حلمي
١٢٦ ـ اللغات الأجنبية (تعليمها وتعلمها)	تأليف : د/ نايف خرما د/ علي حجاج
١٢٧ ـ اقتصاديات الإسكان	تأليف : د/ إسماعيل إبراهيم درة
١٢٨ ـ المدينة الإسلامية	تأليف : د/ محمد عبدالستار عثمان
١٢٩ ـ الموسيقا الأندلسية المغربية	تأليف : عبدالعزيز بن عبدالجليل
١٣٠ ـ التنبؤ الوراثي	تأليف : د/ زولت هارسيناي ريتشارد هتون ترجمة : د/ مصطفى إبراهيم فهمي مراجعة : د/ مختار الظواهري

١٣١ ـ مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الاسلام	تأليف : د/ أحمد سليم سعيدان
١٣٢ ـ أوروبا والتخلف في أفريقيا	تأليف : د/ والتر رودني ترجمة : د/ أحمد القصير مراجعة : د/ إبراهيم عثمان
١٣٣ ـ العالم المعاصر والصراعات الدولية	تأليف : د/ عبدالخالق عبدالله
١٣٤ ـ العلم في منظوره الجديد	تأليف : روبرت م. اغروس جورج ن. ستانسيو ترجمة : د/ كمال خلايلي
١٣٥ ـ العرب واليونسكو	تأليف : د/ حسن نافعة
١٣٦ ـ اليابانيون	تأليف : إدوين رايشاور ترجمة : ليلى الجبالي مراجعة : شوقي جلال
١٣٧ ـ الاتجاهات التعصبية	تأليف : د/ معتز سيد عبدالله
١٣٨ ـ أدب الرحلات	تأليف : د/ حسين فهيم
١٣٩ ـ المسلمون والاستعمار الاوروبي لأفريقيا	تأليف : عبدالله عبدالرزاق ابراهيم
١٤٠ ـ الانسان بين الجوهر والمظهر (نتملك أو نكون)	تأليف : إريك فروم ترجمة : سعد زهران مراجعة : د/ لطفي فطيم
١٤١ ـ الأدب اللاتيني (ودوره الحضاري)	تأليف : د/ أحمد عتمان
١٤٢ ـ مستقبلنا المشترك	إعداد : اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ترجمة : محمد كامل عارف مراجعة : علي حسين حجاج
١٤٣ ـ الريف في الرواية العربية	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله
١٤٤ ـ الإبداع العام والخاص	تأليف : الكسندرو روشكا ترجمة : د/ غسان عبدالحي أبو فخر
١٤٥ ـ سيكولوجية اللغة والمرض العقلي	تأليف : د/ جمعة سيد يوسف
١٤٦ ـ حياة الوعي الفني (دراسات في تاريخ الصورة الفنية)	تأليف : غيورغي غانشف ترجمة : د/ نوفل نيوف مراجعة : د/ سعد مصلوح
١٤٧ ـ الرأسمالية تجدد نفسها	تأليف : د/ فؤاد مُرسي

١٤٨ ـ علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية — تأليف : ستيفن روز وآخرين
ترجمة : د/ مصطفى إبراهيم فهمي
مراجعة : د/ محمد عصفور

١٤٩ ـ ماهية الحروب الصليبية — تأليف : د/ قاسم عبده قاسم

١٥٠ ـ حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي «الجوانب البيئية والتكنولوجيات والسياسات» — (برنامج الأمم المتحدة للبيئة)
ترجمة : عبد السلام رضوان

١٥١ ـ تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية — تأليف : د/ شوقي عبد القوي عثمان

١٥٢ ـ التلوث مشكلة العصر — تأليف : د/ أحمد مدحت إسلام

(ظهر هذا العدد في أغسطس ١٩٩٠، وانقطعت السلسلة بسبب العدوان الغاشم، ثم استؤنفت في شهر سبتمبر ١٩٩١ بالعدد ١٥٣)

١٥٣ ـ الكويت والتنمية الثقافية العربية — تأليف : د/ محمد حسن عبدالله

١٥٤ ـ النقطة المتحولة : أربعون عاما في استكشاف المسرح — تأليف : بيتر بروك
ترجمة : فاروق عبدالقادر

١٥٥ ـ مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي — تأليف : د/ مكارم الغمري

١٥٦ ـ الفصامي : كيف نفهمه ونساعده، دليل للأسرة والأصدقاء — تأليف : سيلفانو آرتي
ترجمة : د/ عاطف أحمد

١٥٧ ـ الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي — تأليف : د/ زينات البيطار

١٥٨ ـ مستقبل النظام العربي بعد ازمة الخليج — تأليف : د/ محمد السيد سعيد

١٥٩ ـ فكرة الزمان عبر التاريخ — ترجمة : فؤاد كامل عبدالعزيز
مراجعة : شوقي جلال

١٦٠ ـ إرتقاء القيم (دراسة نفسية) — تأليف : د/ عبداللطيف محمد خليفة

١٦١ ـ أمراض الفقر (المشكلات الصحية في العالم الثالث) — تأليف : د/ فيليب عطية

١٦٢ ـ القومية في موسيقا القرن العشرين — تأليف : د/ سمحة الخولي

١٦٣ ـ أسرار النوم — تأليف : الكسندر بوربلي
ترجمة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة

١٦٤ ـ بلاغة الخطاب وعلم النص — تأليف : د/ صلاح فضل

١٦٥ ـ الفلسفة المعاصرة في أوربا — تأليف : إ.م. بوشنسكي
ترجمة : د/ عزت قرني

١٦٦ـ الأمومة: نمو العلاقات بين الطفل والأم   تأليف: د/ فايز قنطار



سلسلة عالم المعرفة

عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت ـ وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير عام ١٩٧٨ .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارىء بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفاً وترجمة :

١ ـ الدراسات الإنسانية : تاريخ ـ فلسفة ـ أدب الرحلات ـ الدراسات الحضارية ـ تاريخ الافكار.

٢ ـ العلوم الاجتماعية : اجتماع ـ اقتصاد ـ سياسة ـ علم نفس ـ جغرافيا ـ تخطيط ـ دراسات استراتيجية ـ مستقبليات .

٣ ـ الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي ـ الآداب العالمية ـ علم اللغة .

٤ ـ الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن ـ المسرح ـ الموسيقا ـ الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

٥ ـ الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) والدراسات التكنولوجية . أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية فأمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة عالم المعرفة على ان تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع / المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف دينار كويتي ، وللمترجم مكافأة بمعدل خمسة عشر فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي أو تسعمائة دينار أيهما أكثر بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتياً مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة و المترجمة ـ من نسختين مطبوعة على الآلة الكاتبة .



الاشتراك السنوي : وهو مقصور على الفئات التالية :

● المؤسسات والهيئات داخل الكويت	١٠	دنانير كويتية
● المؤسسات والهيئات في الوطن العربي	١٢	ديناراً كويتيا
● المؤسسات والهيئات خارج الوطن العربي	٨٠	دولارا أمريكيا
● الأفراد خارج الوطن العربي	٤٠	دولارا أميركيا

الاشتراكات :

ترسل باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص . ب : ٢٣٩٩٦ الصفاة/ الكويت ـ 13100

برقيا : ثقف ـ تلكس : ٤٤٥٥٤ TLX. NO. 44554 NCCAL

فاكسميلي : ٤٨٧٣٦٩٤